ALI SHARIATI

الآثار الكاملة (٢٢)



علي شريعتي





الإنسان والإسلام

دار الأمير

الإنسان والإسلام



سلسلة الآثار الكاملة ـ ١٩ ـ

الإنسان والإسلام

الدكتور علي شريعتي

ترجمة

الدكتور عباس الترجمان

مراجعة

حسين علي شعيب

دار الأمير

إسم الكتاب : الإنسان والإسلام

إسم المؤلف : د. علي شريعتي

ترجمة : د. عباس الترجمان

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

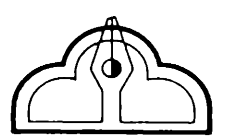
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-23-4

الطبعة الأولى : ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

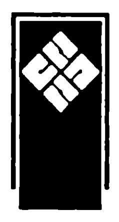
الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان
تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب : 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان
Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي
تلفاكس: 2232729 21 98 +
ص.ب: 19395-6516 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . . ، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

بسم الله الرحمن الرحيم

في العام ١٩٦٢ ميلادياً، وفي إحدى المنشورات السياسية - الاجتماعية للطلبة الجامعيين الإيرانيين في أوروبا، كتب الدكتور الشهيد علي شريعتي:

«لنذهب أيها الأصدقاء ونبحث عن ساحلٍ آخر، ونخترق جدران الظلماء، ونتسلل حثيثاً من الظلمة التي عتَّمت حياتنا لنخرج منها دون رجعة، وعندها يجب أن نجد سبيلاً للوصول إلى ذلك اليوم الجديد الذي سنرفع فيه رؤسنا شامخة، فخراً بالمقاومة والصلابة التي أبديناها، ذلكم يوم الوعي والفكر الجريء الدائم التحدِّي».

وهذا الكتاب، سيدي القارئ، **(هو مصداق وعيٍ، وسبيلٌ إليه، وتجلّيات فكرٍ جريء، كمشعل نورٍ في مسار السبيل، ورجع صدىً لصوت تحدٍّ يدوم.. ولكن.. ولكن تحدّي الذات).**

وهو عبارة عن ست محاضرات ألقاها شريعتي في العام ١٩٦٨ خلال ست جلسات متتالية في كلية النفط في مدينة آبادان الإيرانية ضمن الموسم الثقافي من ذلك العام.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الأسلوب المتَّبع في تعريب الكتاب حافظ على إبقاء صياغة النصوص بأسلوبها الخطابي «كمحاضرات» ولم يتم كتابتها بما هو متعارف في أصول الكتابة، وذلك لدقة التعبير وحفظاً للأمانة.

١٦/ ١/ ٢٠٠٦ **حسين علي شعيب**

١ ـ الإنسان والإسلام

موضوع حديثي هو «الإنسان والإسلام».

لقد أثار إعجابي البرنامج الذي سمعناه في المقدمة، حيث أن من لا يعلم بحقيقة الأمر يتصور أن حديثي اخترته أنا لهذه الجلسة، وهكذا الأحاديث التي تفضّل بها الأصدقاء الطلبة، كانت قد أعدّت من قبل وقد اتفق عليها مسبقاً؛ إلاّ أن حقيقة الأمر هي أني لم ألتق الأخوة قبل هذا اليوم، ولم أتعرّف على فقرات البرنامج إلاّ هذه الساعة. حتى القصيدة الشعرية التي ألقاها أحد الأخوة وسمعناها معاً، كانت متناسبة مع حديثي الذي أُريد أن أطرحه للأخوة.

هذا التوافق الفكري والوحدة في المواضيع ظاهرة صحية، ودليل الوحدة الفكرية والانسجام العقائدي ما بين الأفراد الذين يقيمون في مناطق متباعدة وتباعدهم فواصل جغرافية كبيرة، حيث أنهم يفكرون بأسلوب واحد وطريق مشترك، وعندهم ألم مشترك وإحساس مشترك.

صحيح أن التكنولوجيا الحديثة تقرّب الفواصل بين الناس، إلاّ أن العقيدة الواحدة تقرّبها أكثر فأكثر.

إن موضوع الإنسان قضية مهمة جداً؛ فالمدنية الحديثة قد أقامت بناءها الفكرى على نظرية أصالة الإنسان «أومانيسم»، أي نظرية تقديس الإنسان.

المشكلة هي أن المذاهب القديمة، والأديان، حطمت شخصية الإنسان وحملته على أن يقدم نفسه قرباناً للألهة، كانت تغري الإنسان بأن يتخلى عن إرادته في مقابل إرادة الإلٰه والظهور بمظهر العاجز، كانت تدفع الإنسان لأن يتطلع عن طريق الدعاء والتوسل والتضرع، لتحقيق ما يصبو إليه من الآلهة.

لهذا السبب، فإن نظرية أصالة الإنسان «أومانيسم»، فلسفة ظهرت منذ عصر النهضة وما بعدها، مقابل الأديان الإِلٰهية، الأديان التي تستند إلى الغيب وما وراء الطبيعة، وقد حددت هدفها بإعطاء الأصالة للإنسان.

لقد ظهرت جذور نظرية أصالة الإنسان «أومانيسم» الأولى في (أثينا)، إلاّ أنها أضحت ـ باعتبارها مذهباً عالمياً ـ القاعدة الفكرية والفلسفية للمدنية، الحديثة في الغرب.

وعلى وجه التحقيق برزت هذه النظرية كرد فعل معاكس

لمذهب «الاسكولاستيكية» والدين المسيحي في القرون الوسطى.

إن ما أهدف إليه في هذه الليلة ـ بقدر ما تتيح له الفرصة وبقدر ما تمكنني طاقتي ـ هو بحث هذا الموضوع، لنتعرّف على رأي ديننا مثلاً، الذي هو دين الإسلام، حول الإنسان وكيف ينظر إليه.

هل الإنسان في نظر الإسلام موجود عاجز غاية هدفه ومثاليته أن يبقى عاجزاً أمام الله؟ وهل الإسلام ينظر إلى الإنسانية بنظرة الأصالة أم لا؟ هل الاعتقاد بالإسلام سبب لعجز الإنسان واستسلامه؟ أو بالعكس، إن الاعتقاد بالإسلام والإيمان بحقيقة الدين الإسلامي، هو نوع من الاعتقاد بأصالة الإنسان والاعتراف بقيمته وعظمة خصائصه وقدراته؟ هذا ما أُحاول تسليط الضوء عليه هذه الليلة.

للتعرّف على مفهوم الأديان لأصالة الإنسان «أومانيسم»، أو كيف تفهم الأديان الإنسان وكيف تنظر إليه، فإن هناك طريقة واحدة، قل إنّها أفضل الطرق، وهي محاولة دراسة فلسفة الخلقة عند هذه الأديان.

وطالما أن الوقت لن يتسع لدراسة كل مذاهب الشرق والغرب وما تراه في فلسفة خلق الإنسان، لذا تراني مضطراً لأن

اكتفي باستعراض فلسفة الخلقة في الإسلام، والأديان التي جات قبل الإسلام ومن ثم تبعها الإسلام، مثل دين موسى وعيسى وإبراهيم.

كيف وردت قصة خلق الإنسان في الإسلام، وفي رسالة إبراهيم التي جاء الإسلام مكمّلاً لها، وكيف تُطرح وتُفسر؟.

هل بإمكاننا أن نتعرف على مكانة الإنسان من خلال قصة خلق الإنسان في القرآن وفي الأحاديث النبوية؟

كما قلت، يمكننا التعرف ـ عن طريق استعراض قصة خلق آدم (الذي هو رمز الإنسان) في القرآن ـ على مقام الإنسان عند الله، وفي نظرة الأديان، وفي نظرة ديننا الإسلام.

في البداية يجب أن أعرض هذه الحقيقة وهي، أن لغة الأديان ولا سيما الأديان الصحيحة التي نعتقد نحن بأنبيائها، هي لغة رمزية. واللغة الرمزية لغة تبين المعاني عن طريق الرموز، وهي أحسن وأفضل لغة اكتشفها الإنسان حتى اليوم، حيث أنها أعمق وأرقى من اللغة الصريحة التي تؤدي إلى معانيها مباشرة، وأكثر منها خلوداً وبقاءً.

اللغة العادية البسيطة هي اللغة التي لا تستعمل فيها الرموز، لغة يمكن أن تكون أسهل في التعليم والتفهيم، إلاّ أنها لا تبقى. لماذا؟

لأنه، وعلى حد قول (عبد الرحمن بدوى) الفيلسوف المعاصر: «إن المبدأ أو الدين الذي يبين جميع حقائقه ومعانيه في كلمات واضحة ومباشرة ذات بُعد واحد، هذا المبدأ أو الدين لا يكتب له البقاء والخلود. لماذا؟ لأن المخاطبين من قبل الدين ليسوا من طبقة واحدة، بل هم من طبقات شتى وجماعات مختلفة من مثقفين وعامة الناس.

كذلك، إن المخاطبين من قبل الدين ليس هم من جيل واحد في زمان معين، بل هم من أجيال مختلفة متعاقبة على طول التاريخ، ومثل هؤلاء طبيعة يختلفون من الناحية الفكرية، ومن ناحية العمق والنضج العقلي وزاوية النظر، وتتفاوت نظراتهم إلى الأشياء.

لذا، فلا بد للدين أن يختار لغة لبيان معاني فلسفته بحيث تكون هذه اللغة متعددة الجوانب ومتعددة الأبعاد والزوايا، لكي يصلح كل بُعد من تلك الأبعاد لجيل معين، وتفهم كل جماعة جانباً من تلك الجوانب. فإذا كانت لغة الدين ذات بُعد واحد، فإنه سيكون مفهوماً لجماعة معينة، أما لسائر الجماعات فلا قيمة له. أو يكون مفهوماً لجيل واحد، أما الجيل الثاني والثالث فلا يتمكن أن يستخرج منه معنى جديداً. . .».

لهذا نرى أن معظم الآثار الأدبية الرمزية قد بقيت خالدة.

فقصائد «حافظ الشيرازي» بقت خالدة لأنها رمزية. ففي كل مرة نقرأها نفهم منها معنى جديداً. وبمقدار ما نملك من العمق والذوق الأدبي، والمنظار الفكري، فإننا نستخرج من أشعار «حافظ» معان جديدة، ونستنبط منها مطالب أخرى.

أما تاريخ «البيهقي» فهو ليس كذلك. وهكذا ديوان «سعدي الشيرازي» (روضة الورد).

عندما نقرأ هذا الديوان (روضة الورد) فإن معانيه واضحة لنا وقد نتلذذ بتركيبها الفني أيضاً، إلاّ أنه من الناحية المعنوية فإن الكثير من معانيها قد نسخ الآن، لأنه واضح ما يقول، وما يقوله باطل.

بخلاف أشعار حافظ، فلغتها رمزية، أي متعددة الجوانب والأبعاد، وكل رمز من رموزه يأخذه كل واحد منا ويفكّه حسب مستوى فهمه ونظرته وذوقه، ويكتشف منه معنى جديداً، ويستخرج كلاماً وفكراً جديدين.

لهذا بالذات، فإن أرقى الأعمال الأدبية ـ في الأدب الأوروبي ـ هي ذات الأسلوب الرمزي، يعني التعبير بالرموز، واختيار أعمق المعاني تحت ألفاظ خاصة ظاهرها يعطي معنى معيناً، ولكن في حقيقتها يكمن معنى آخر، وفيما لو أوتي الإنسان عمق الفهم والحس الأدبي لتمكن أن يكتشف ذلك المعنى الباطني المرموز.

وعليه ولهذا السبب، وطالما كانت الأديان نازلة لمختلف الفئات ولجميع الأجيال، فيجب أن تكون لغتها رمزية. فهناك الكثير من المعاني الموجودة في الدين لم تكن مفهومة في زمان ظهوره، حيث أن الدين من جهة يريد أن يوصل كلامه للإنسان، فعليه أن يستعمل لغة بسيطة وإلاّ فإن كلامه لم يكن واضحاً.

ومن جهة أخرى إذا بيَّنَ الدين كلامه بلغة عادية ففي المستقبل لن يكون لكلامه معنى جديد، لذا فهو مضطر لأن يتكلم بأسلوب الرمز، حتى تفسر الرموز في المستقبل وتتوضح حسب مستوى رشد الإنسان العلمي ونموه الفكري.

فمثلاً قصة خلق آدم، يعني قصة خلق الإنسان، كان من الضروري أن تعرض بلغة الرموز، حتى تصبح في هذا اليوم، وبعد أربعة عشر قرناً من نزولها، وبعد تقدم العلوم الطبيعية والإنسانية، تصبح بالنسبة لنا قابلة للمطالعة والتأمل.

أما الإنسان، فكيف تم خلقه من وجهة نظر الإسلام؟

في البدء يقول الله (عز وجل) لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. لاحظوا بدقة مكانة الإنسان في الإسلام كم هي عظيمة، حتى أن نظرية أصالة الإنسان «أومانيسم» لأوروبا، و«اومانيسم» ما بعد عصر النهضة، لم تتمكن أن تفترض للإنسان هكذا قدسية وعظمة وبهذا السمو والرفعة.

فالله سبحانه ـ الذي هو في العقيدة الإسلامية وفي اعتقاد كل مؤمن، هو أكبر وأعظم من أي شيء، وهو خالق آدم، والمهيمن على خلقه ـ يخاطب الملائكة بأنه يريد أن يجعل الإنسان خليفته في الأرض. بمعنى أن رسالة الإنسان في الإسلام تتضح بالخطاب الأول لله سبحانه وتعالى. أي أن الرسالة التي حددها الله سبحانه للكائنات يضطلع الإنسان بمسؤولية أدائها باعتباره خليفة الله في الأرض.

إذاً فأول ميّزة للإنسان هي أنه خليفة الله في الأرض.

وهنا يسأل الملائكة الله قائلين: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. . . ؟». هل تريد أن تخلق كائناً يقوم مرة أخرى بالجرائم والجنايات وسفك الدماء. (لأنه كان قبل آدم أشخاص آخرون ارتكبوا في الأرض من الفساد والجنايات مثل ما يرتكب الإنسان اليوم). وقد سألت الملائكة الله: بأنه لو خلق إنساناً جديداً في الأرض فهل سيقوم بنفس الفساد وسفك الدماء؟

فيقول الله: «إني أعلم ما لا تعلمون».

وبعدئذ خلق الله الإنسان.

من هنا تبدأ لغة الرمز. انظروا ماذا يكمن خلف هذه الرموز من أسرار عميقة في علم الإنسان. فالله يريد أن يخلق خليفته من الأرض، من تراب الأرض المتعفن. أليس من المفروض أن

يختار له أفضل مادة وأحسن عنصر، إلاّ أننا نرى العكس، يختار أخس وأحط عنصر في الأرض ليخلق منه الإنسان.

لقد وردت في القرآن ثلاثة مواضع تتحدث عن المصدر الذي خلق الله منه الإنسان، فمرة يقول: «من صلصال كالفخار». ومرة أُخرى يقول: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، أي من طين متعفن كريه الرائحة كالوحل. وفي موضع ثالث يقول: «وخلق الإنسان من طين».

إذاً فإن الله سبحانه، أراد أن يخلق خليفته وممثله في الأرض، الإنسان المكرم، من طين أو من وحل متصلب (صلصال)، ومن ثم نفخ من روحه في هذا الصلصال ووجد الإنسان.

إن في لغة البشرية، يعتبر الطين والوحل رمزاً لأحط وأخس الأشياء وأشدها عفونة ودناءة، فلا يوجد في الموجودات شيء أخس من الوحل، وهكذا في مفهوم البشر.

وكذلك، فإن الله في لغة البشر هو أعظم وأسمى وأفضل من كل شيء، وكما هو معروف فإن أعظم واقدس ما في كل شيء هو روحه، حيث الروح أشرف العناصر.

فهذا الإنسان، الذي هو خليفة الله، قد خُلق من الوحل أو الطين المترسب، يعني من أحط مادة في الأرض؛ ومن ثم نفخ

الله فيه من روحه ـ وليس من نفسه أو دمه ـ، يعني من أشرف شيء يمكن أن يعبّر عنه البشر ويضع له إسماً. فالله، واجب الوجود، أعلى شيء في الوجود، وروحه أعلى موجود يمكن تصوره، أي أعلى مفهوم يمكن أن يرد في ذهن الإنسان.

بناء على هذا، فالإنسان قد خُلق من الطين ـ الوحل ـ ومن روح الله، يعني أنه موجود ذو بُعدين.

يريد القرآن أن يقول: أن الإنسان موجود ذو اتجاهين، موجود ثنوي، بخلاف سائر الموجودات ذات البعد الواحد. موجود بُعد منه يميل إلى التراب والانحطاط، وينشد إلى الترسب في الأرض والجمود والتثاقل والتوقف، مثل الطين الذي يترسب في قاع البحار والأنهار، حيث أنه عندما يطغى الموج فيها ينزل التراب ويترسب، لا يموج ولا يتحرك، بل يترسب ويستقر في القاع ويتكلس، فطينة الإنسان وطبيعته ـ الترابية ـ أيضاً تميل إلى الرسوب والتوقف والإنشداد إلى الخمول والراحة.

ومن جانب آخر فإن بُعده الثاني، أي روح الله (بتعبير القرآن)، يميل إلى التعالي بعكس البُعد الأول، يتّجه إلى السمو إلى أعلى قمة في الوجود يمكن تصورها، أي إلى الله.

إذن فالإنسان مخلوق من قطبين متناقضين، واحد: الطين،

والآخر: روح الله، وهذا هو سر عظمة الإنسان، إنه كائن ذو بعدين، وموجود ذو قطبين متناقضين. ومن ثم وبفضل إرادته، يتمكن من أن يتجه إما إلى بُعده الأرضي وينشد إلى قطب التراب والترسب، أو ينطلق في بُعده السماوي ويصعد في قطب السمو الإلهي والروح الإلٰهية.

يبدأ هذا الصراع والتجاذب بين هذين القطبين داخل الإنسان، حتى يختار الإنسان أحدهما ويقرر مصيره.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

ثم يعلّم الله الإنسان الأسماء؛ ولكن ما معنى تعليم الأسماء للإنسان؟ وما هي هذه الأسماء؟ كل ذلك غير معلوم لحد الآن، فكل يقول شيئاً، وكل مفسر له تفسير معين ورأي خاص، وهناك من يقول أنه رمز، والخلاصة أن كل واحد بتعبيره وطريقة تفكيره ذكر معنى من المعاني، والذي لا شك فيه هو أن الحديث عن العلم والتعليم والمعرفة، فبعدما يخلق الله الإنسان يعلم خليفته الأسماء، ويصبح الإنسان عليماً بالاسماء.

ثم تسأل الملائكة: أننا مخلوقون من نور، وهذا الإنسان من الطين المترسب، فكيف تفضله علينا ونحن نسبح ونقدس لك، فيقول: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويقول لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾.

هذا هو معنى (أصالة الإنسان).

فهل يمكن أن نعرف عظمة للإنسان إلى هذا الحد؟ إلى درجة أن الملائكة التي يتفوق عنصرها على آدم ـ لأنها مخلوقة من نور وآدم مخلوق من تراب ـ وتتميز ذاتياً عليه، ومع ذلك فهي تسجد له.

ولأنهم سألوا الله عن سبب تفضيل آدم عليهم، فقد أراد سبحانه وتعالى أن يبين لهم سر عظمة الإنسان وسبب تفوقه عليهم، فإمتحنهم الله وسألهم عن تلك الأسماء وإذا بهم لا يعرفونها:

﴿...فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

في حين أن آدم كان يعرف تلك الأسماء: «قال يا آدم أنبئهم بأسماء هؤلاء، فلما أنبأهم» تبين فضل آدم وسر تفوقه على الملائكة ـ لأنهم لم يوفقوا في الامتحان ـ، وفضله عليهم هو علمه بالأسماء، لهذا فهم يخرون له ساجدين.

ومثل هذا خير ما يُعرفّ شخصية الإنسان في الإسلام. فالإنسان يعرف أشياء لا تعرفها الملائكة، ولهذا فمع أفضلية عنصر الملائكة والشيطان وتفوق جنسهما على جنس الإنسان، فإن الإنسان تفوق عليهما، لأن قيمة الكائن وأصالته هما بمقدار علمه ومعرفته وليس بعنصره.

المسألة الثانية، هي خلق المرأة من ضلع الرجل ـ كما يقال ـ، والصحيح أنها خلقت من طينته، هكذا ورد في الروايات الإسلامية، وفي لغة التوراة العبرية، بأن المراد من الضلع هو الطبيعة «خلقنا حواء، أي المرأة، من طينة الرجل».

وهناك رواية تقول بأن المرأة خلقت من الضلع الأيسر للرجل، لذلك فإن عدد أضلاع المرأة أقل بواحد من عدد أضلاع الرجل.

إن رجل كبير مثل (نيتشه) يقول: لقد خلقت المرأة من عنصر، وخلق الرجل من عنصر آخر، ومن ثم تشابه الإثنان وتزاوجا على طول التاريخ، أيّ هما مخلوقين من عنصرين مختلفين.

إن معظم الفلاسفة والحكماء ممن يرون هذا الرأي ـ اختلاف عنصر المرأة عن عنصر الرجل ـ فهم يريدون بذلك ـ غالباً ـ أن يحقروا طبيعة المرأة ويفضلوا طبيعة الرجل.

أما القرآن فهو يحدثنا قائلاً: «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها». أي من نفس عنصر الرجل وطبيعته؛ يعني أن المرأة والرجل من طينة واحدة وأصل واحد.

أما الموضوع العجيب الآخر في قصة خلق الإنسان هو: أن

الله ينادي على كل الموجودات والكائنات الطبيعية من جماد ونبات وحيوان، ويعرض عليها الأمانة: «أنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها»، يدعو الله الأرض والسماء والجبال والكائنات إلى حمل الأمانة، إلاّ أنهم لم يحملوها، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

وعليه، يتضح من هذا أن للإنسان أفضلية أُخرى، وسراً آخر لعظمته، وهو أنه حامل لأمانة الله التي عرضها على جميع الموجودات فلم تقبل بحملها، وحملها الإنسان، وهذا يعني أن الإنسان في الأرض هو خليفة الله وحامل لأمانته أيضاً (بتصريح القرآن).

ما هي هذه الأمانة؟ كل واحد يقول شيئاً.

يقول المولوي (جلال الدين الرومي): «الأمانة هي إرادة الإنسان، الإختيار»، وهذه هي عقيدتي.

فالفضيلة الوحيدة التي يتميز بها الإنسان على جميع الموجودات في العالم هي إرادته... أيّ أنه الموجود الوحيد الذي يتمكن من العمل حتى بخلاف طبيعته وضد غريزته، في حين أن كل من الحيوان أو النبات لا يتمكن من التصرف خلافاً لطبيعته أو خلافاً لغريزته، فلا يمكن أن نشاهد حيواناً يصوم في النهار، ولم نسمع أو نشاهد عشباً من النباتات انتحر من شدة

الألم، أو انجز خدمة كبيرة، أو ارتكب خيانة، أيّ أنه لا يمكن أن يعمل شيئاً خلاف الصورة التي خلق عليها.

الإنسان هو الوحيد الذي يتمكن أن يتمرد على الصورة التي خلق عليها، وحتى على احتياجاته المعنوية والمادية وغرائزه الجسدية، يتمكن من عمل الخير وعمل الشر، يتمكن أن يعمل بعقله أو بخلافه، وهو حرّ أن يكون خيّراً أو شريراً، أن يصير ترابياً أو ربانياً، وهكذا، فالإرادة من أعظم خصائص الإنسان، وعليه، فمن هنا تتضح العلاقة ما بين الإنسان وبين الله.

ألم يكن قد نفخ الله فيه من روحه وحمّله أمانته؟ إذن فالإنسان هو خليفة الله على الأرض، وهو يستمد إرادته من إرادة الله، أيّ أن الله، الذي هو وحده في هذا الكون له الإرادة المطلقة وبإمكانه أن يفعل ما يريد حتى لو كان خلافاً للمنظومة والقوانين الكونية، قد نفخ في الإنسان من روحه، والإنسان يتمكن من العمل مثل الله، مثل الله إلاّ أنه ليس بمستوى قدرته، فقط من حيث التشابه يتمكن أن يعمل مثله سبحانه، كل ما يريد وخلافاً للقوانين والطبيعة الفيزيولوجية.

بناء على هذا، فإن وجه الإشتراك أو العلاقة ما بين الله والإنسان، هي هذه القدرة على الاختيار، هذه الحرية، حرية الصلاح أو الفساد، حرية الطاعة أو الطغيان.

وعليه، فإن ما نخلص إليه من فلسفة الخلق هذه، هو:

أولاً: إن بني الإنسان كلهم اخوة وليسوا متساوين فقط، والفرق بين الأُخوة والمساواة واضح تماماً، فالمساواة اصطلاح حقوقي، في حين أن الأُخوة تعبير عن الطبيعة المشتركة بين جميع الناس، فالناس على اختلاف ألوانهم هم من أصل واحد.

ثانياً: التساوي بين طبيعة المرأة والرجل، يعني خلافاً لكل الفلسفات القديمة وطريقة التفكير في السابق، فإن كل من الرجل والمرأة كلاهما من طبيعة واحدة وخُلقا في وقت واحد وبيد واحدة، لذلك فهما متساويان من كل الجهات، ومتحدان في الطبيعة والطينة والعنصر، ومتآخيان، أيّ أنهما من أصل واحد.

ثالثاً: إن أفضلية الإنسان على الملائكة والعالم هي بفضل العلم، وذلك، لأنه علم الأسماء فقد سجدت له الملائكة، إن الملائكة مع علمها بتفوق عنصرها وأصالة ذاتها، إلاّ أنه عليها أن تركع على قدمه وتسجد له.

والأهم من ذلك، هو أن الإنسان يقف بين قطبين: الله والتراب، وبما أنه يمتلك الإرادة فهو يتمكن من أن يختار قطب الله أو قطب الطين، ولأنه يملك الإرادة فهو مسؤول، لأن الحرية والاختيار يوجبان المسؤولية.

بناء على هذا، فالإنسان في نظر الإسلام كائن مسؤول عن

مصيره، بل ليس مسؤولاً عن مصيره فقط وإنّما هو مسؤول عن أداء رسالة الله في العالم، وهو حامل الأمانة في الكون والطبيعة، فهو قد تعلم الأسماء، والأسماء معناها الصحيح في رأيي، الحقائق العلمية المختلفة، لأن الإسم علامة كل شيء، أي الوجه المشخص لكل مفهوم، وعليه فإن تعليم الأسماء لآدم ـ من قبل الله ـ يعني إدراك وفهم الحقائق العلمية والقابلية التامة لفهم المعاني الموجودة في العالم.

بناء على هذا، فالإنسان، وبفضل تعليمه الأول من قبل الله، يتمكن من إدراك واستيعاب جميع حقائق الطبيعة والكون، وهذه مسؤولية أُخرى، وهي مسؤولية كبيرة؛ مصير الإنسان يجب أن يصنعه الإنسان بنفسه، المجتمع الإنساني مسؤول عن تقرير مصيره بنفسه، وكذلك الفرد الإنساني أيضاً مسؤول عن تقرير مصيره بنفسه، «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت». فمصير المدنيات السابقة هو ما صنعوه بأيديهم، ومصيركم سيكون وفقاً لما تصنعون بأيديكم.

إذن، فالإنسان له مسؤولية كبرى أمام الله، لأنه صاحب إرادة واختيار.

وبناء على هذا، نخلص إلى أن الإنسان حامل أمانة الله وممثله في الأرض، وهو يملك بُعدين، الأول: الانحطاط

﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. والثاني: الإنطلاق والسمو إلى الله ﴿مِن رُّوحِي﴾.

وهنا يلزم أن أشير إلى قضية وهي أن التاريخ ـ وللأسف ـ يشهد مأساة كبرى وهي، أن الإنسان لم يُعرف حتى الآن بالصورة التي هو عليها ذات البعدين.

إن الإسلام، وخلافاً لبقية الأديان التي ترى وجود الله والشيطان في الطبيعة وهما في صراع، يرى أنه توجد قدرة واحدة في الطبيعة وهذه القدرة هي الله، أما داخل الإنسان، فإنه يرىٰ وجود صراع ما بين الله وبين الشيطان، هناك ساحة حرب بين هذين الإثنين.

بناء على هذا، فإن الثنوية الموجودة في الإسلام ـ بخلاف الأديان السالفة ـ إنّما هي اتجاهان في العبادة، أي معبودين وإلٰهين داخل النفس البشرية وليس في الطبيعة، أما في الطبيعة فيوجد إلٰه واحد وإرادة واحدة وهي إرادة الله.

لذلك فالشيطان ـ في الإسلام ـ ليس في مقابل الله، بل هو في مقابل الإنسان، في مقابل ذلك النصف الرباني من الإنسان. وبما أن الإنسان موجود ذو بُعدين يتكون من التراب ومن روح الله، فهو محتاج إلى التراب ومحتاج إلى الله أيضاً، وإن الدين أو الأيديولوجية التي يجب أن يختارها، أو الحياة التي يجب أن

يبنيها ويؤمن بها، يجب، أن تكون ديناً أو حياة أو أيديولوجية تلبي حاجات الإنسان الجسدية، المادية والروحية، وتهتم بكلا البُعدين.

المأساة هي أن التاريخ ـ للأسف ـ لا يحدّثنا بهذا الشكل، التاريخ يقول:

إن المجتمعات أما كانت تتجه إلى التمسك بالزهد والآخرة، أو تنشد إلى التراب والتمسك بالدنيا، كل المدنيات كانت هكذا.

فمدنية الصين، كانت أولاً دنيوية تعطي الأصالة للذائذ والتجملات والسعي لاستغلال أكبر قدر من الموارد الطبيعية، ونموذج ذلك حياة الأشراف في الصين، ثم جاء (لايوتزو) وجاء معه مذهب التمسك بالآخرة.، أي ميل شديد إلى ذلك النصف المعنوي الماورائي من الإنسان، وقد استطاع أن يؤثر في قومه إلى حد بحيث أن الناس الذين كانوا حريصين ـ دائماً ـ على التمتع باللذائذ الحياتية، قد تحولوا إلى رهبان ومتصوفة وعرفاء.

ثم جاء (كنفشيوس) وقاد المجتمع إلى النزعة الدنيوية ودعى الصينيين إلى الملذات الحياتية، فانحرفت الصين مرة أُخرى نحو هذا الإتجاه.

والهند، التي كانت في فترة من الفترات مركز الراجوات

واساطير ألف ليلة وليلة، تحولت عن طريق بوذا والبوذية إلى النزعة الآخروية، وانجرت إلى الزهد والرهبنة والتصوف وتزكية النفس، لهذا فإن مركز الراجوات أصبح الآن مركز الصوفية والمرتاضين والنوم على المسامير، والصوم لمدة أربعين يوماً مع الاكتفاء بحبة تمر أو لوز، وسائر الرياضات الروحية، والابتعاد عن الحياة المدنية.

وفي أوروبا، كان الرومان ينزعون إلى الجنايات وسفك الدماء بدافع التسلط والسيطرة السياسية والعسكرية على العالم، والوصول إلى الثروات في آسيا وأوروبا، والغرق في بحر النعيم والملذات واللهو واللعب.

ثم جاء المسيح وقاد المجتمع إلى النزعة الآخروية، فاتجهت الروم من اللهو واللذة والنزعة الدنيوية، إلى الرياضة والحث على الآخرة، وتمادت في ذلك حتى سقطت في ظلمة القرون الوسطى، فتحول مركز الحروب والدماء والقوة والسيطرة العسكرية إلى مركز للصوامع والأديرة والرهبانية والاعتزال في القرون الوسطى، وقد وصلت في انحرافها إلى درجة هيأت فيها إلى مجيىء عصر النهضة الذي أخذ بناصية أوروبا إلى النزعة الدنيوية.

ومرة أُخرى، نرى اليوم أن الحضارة الأوروبية قد اتجهت

نحو النزعة الدنيوية إلى درجة أنها حصرت الإنسان والإنسانية في الحياة المادية والعيش المرفه، وعلى حد قول البروفسور (شاندل): «أن دنيا اليوم جعلت حياتها وقفاً على توفير وسائل الإنتاج».

هذه هي حماقة الفلسفة البشرية المعاصرة، هذا هو معنى التكنولوجيا بلا هدف، ومعنى المدنية المجردة من المعنويات، فالبشرية اليوم أصبحت تتجه إلى المادية المفرطة إلى درجة أنها بحاجة إلى مسيح آخر.

أما فلسفة الإنسان في الإسلام، فهي ترى أن الإنسان موجود ذو بُعدين، ويجب أن يكون له دين ذو بُعدين أيضاً، حتى يتمكن من تغذية كلا البُعدين المتضادين، تغذية المجتمع الإنساني وروح الإنسان، حتى يتمكن الإنسان من العيش بشكل متوازن ومتعادل، هذا هو دين الإسلام.

بأيّ دليل؟

إن لمعرفة أي دين يجب أن نتعرّف على الإلٰه في ذلك الدين، وعلى رسول وكتاب ذلك الدين، والأنسب أن نتعرف على الطليعة التي خرّجها ذلك الدين.

في البدء لنتعرف على الإله، فهو إلٰه ذو بُعدين، ذو وجهين. له وجه «يهوه» (إله اليهود) الذي هو يميل للمجتمع،

ينزع إلى الدنيا، صارم، سياسي، شديد العقاب، مستبد، وهو في وجهه الآخر مثل إلٰه المسيح، رؤوف رحمن رحيم. وهذه كلها صفات الله يمكن استنباطها من القرآن.

الكتاب، القرآن هو الكتاب، فيه أحكام اجتماعية وسياسية وعسكرية وحتى قوانين الحروب ومعاملة الأسرى والرغبة في الحياة والإعمار والصناعة والكفاح ضد الأعداء، وأيضاً هو كتاب يعتني بتزكية النفس وسمو الروح والأخلاق العالية للفرد.

وهكذا نبي الإسلام، إنسان ذو وجهين متناقضين ـ كما نشاهد في تاريخ الشخصيات ـ (جمعت فيه الأضداد)، فهو رجل قيادي يشهد ساحة الكفاح والمقاومة السياسية مع العدو وعناصر التخريب في المجتمع، وهو دائماً بصدد بناء المجتمع الجديد، والتمدن الجديد؛ وفي الوقت نفسه هو بصدد هداية البشر إلى هدف خاص أيضاً، كما أنه رجل صلاة ونسك وتقوى.

وبعد ذلك، الطليعة الأولى التي ربّاها الدين، عليّ، أبو ذر، سلمان، هؤلاء كانوا أيضاً أفراداً ذوي بُعدين لهذا العالم، فهم من ناحية رجال سياسة وحرب وكفاح من أجل حياة أفضل، كما نشاهدهم دائماً يخوضون ساحات الحرب والتوعية والبحث العلمي والتحقيق، ومن ناحية أخرى هم رجال تقوى وطهارة

مثل الرهبان والزهاد الكبار في الشرق.

فأبو ذر، كان رجل سياسة ورجل جهاد وكفاح ضد الفقر والاستثمار في عهد عثمان، كذلك كان رجل علم وتقوى، وإن ما تركه أبو ذر لنا من التحقيقات والتأملات حول معرفة الله، يعد اليوم نموذجاً ومفتاحاً لمعرفة القرآن.

وهكذا بقية أصحاب الرسول، عندما ننظر في حياتهم وتاريخهم نجدهم كلهم رجال سيف لأجل بناء مجتمع أفضل وحياة أرغد، وأيضاً هم رجال عدالة في المجتمع، ورجال الفكر الأرقى والشعور الأسمى.

إن النتيجة التي أُريد استخلاصها هي:

إن الإنسان في ظل الإسلام، ليس كائناً مستحقراً وذليلاً أمام الله، بل هو خليفة الله، وكائن عزيز عند الله، وحامل لأمانة الله في الأرض، وقد علّمه الله وأمر ملائكته بالسجود له.

والإنسان ذو البُعدين، وصاحب هكذا مسؤولية يحتاج إلى دين لا يصرفه إلى النزعة الآخروية البحتة، ولا إلى النزعة الدنيوية المطلقة، بل يحقق له التعادل والتوازن، أيّ أنه بحاجة إلى دين ذي بُعدين حتى يساعده على تنفيذ مسؤوليته الإنسانية.



٢ ـ الرؤية الكونية

إن موضوع الرؤية الكونية، يجب أن يطرح في العالم، بمثابة موضوع فلسفي، وعلم من علوم الإجتماع، وعلم معرفة الإنسان.

إن الإنسان لا ينظر إلى الكون بالصورة والكيفية التي يتحدث عنها علم الجغرافيا أبداً.

إن الرؤية الكونية للفرد تتحدد طبقاً لأبعاد مجتمعه المتميزة، المعنوية منها والمادية، وان رؤية الأشخاص الذين يعيشون في مدينة من مدن العالم الخارجي، تتغير وتتسع بتغير معالم المدينة ومظاهرها واتساعها أيضاً، وحتى أن الصورة الذهنية للعالم، لدى كل شخص، تتلاءم في إطار طبقيته من حيث السنخ والشبه والمقدار.

وبعبارة واحدة: إن العالم الخارجي في نظر الفرد، هو الصورة المنعكسة للمجتمع والطبقة، في مرآة الواقع والشاشة العينية.

ووفقاً لرأي علم الإجتماع، فإن الذهنية وداخل الذات[١]، تعتبر رسّاماً ونحْاتاً، ينحت العينية وخارج الذات[٢]، ويلوّنها على صورته.

ولو أردنا أن نتحدث بلغة «برجسون»، فالعالم الخارجي يكون في نظر الإنسان، الذي يعيش في «مجتمع مغلق»[٣]، عالماً محدوداً صغيراً راكداً. وعلى العكس يرى الإنسان المنتمي إلى «مجتمع متفتح»[٤]، العالم غير محدود، واسعاً، وفي تغيير مستمر.

فالأرض بالنسبة للأول منطقة أكبر بقليل من وطنه (الوطن

---

(١) Subjective.

(٢) Objective.

(٣) المجتمع المغلق (Fermée) والمجتمع المتفتح (Overte) اصطلاحان معروفان للفيلسوف الكبير الفرنسي المعاصر هنري برجسون.
المجتمع المغلق هو المحصور في حصار أُصوله وعقائده وتقاليده وأشكاله الخاصة، وبناء على هذا فهو مجتمع راكد، وثابت دائماً على مدى القرون والعصور.
وبالعكس من ذلك المجتمع أو الدين المتفتح، إن هذا كسر الحصار، وأبوابه مفتوحة بوجه الأديان والمجتمعات الأخرى، وهذا هو سبب التغيير والتطور الغني، والنمو الدائمي للمجتمع، فدين اليهود وقوم اليهود نموذج من المجتمع والدين المغلق، والإسلام والمجتمع الإسلامي في القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية نموذج من الدين والمجتمع المتفتح، مسيحية الحبشة دين مغلق، ومسيحية أوروبا الغربية دين متفتح.

(٤) نفس المصدر السابق.

هنا المنطقة المحدودة التي يعيش فيها القوم أو القبيلة، والطوائف المتجاورة والمتعايشة معاً)، والسماء، سقف جامد لا يتغير وكأنه قبة منحدرة من كل جانب، التحمت بالأرض في الآفاق القريبة جداً، المتميزة.

فجبل قاف حدّ عالم الوجود، وجزائر جابلقا وجابلسا هي آخر نطقة اندحى إليها الوجود.

وإذا نظر إلى العالم، مثلاً، من شبه الجزيرة العربية، يرى (أن ما وراء «عبادان» قرية).

بناء على هذا، فالعالم في «مجتمع» مغلق، يعتبر «سقيفة» خاصة، بسيطة، صغيرة جداً وراكدة، وفيما وراء الحدود القريبة جداً، والتي هي أبعد قليلاً من حدود (الوطن)، ليس سوى العدم أو الإبهام المطلق غير القابل للاستفادة (ظلمات).

والمجتمع هو بمثابة مجموعة من الأشكال والعلاقات والتقاليد والحقوق الشخصية، الأزلية والأبدية.

والدين ـ أيضاً ـ عبارة عن مجموعة من العقائد والأعمال التي لا تتغير (مُنزَلة)، ولا تُعارض، وهي جبرية، وبعيدة عن تناول الفهم والعقل، و«النتيجة»، لاسيما في أذهان وأرواح جميع المنتمين إليه، هي «بمستوى» واحد، و«بشكل واحد»، وبتعبير آخر: هو نوع من التجلي الغريزي الأعمى، وعلى حد

تعبير «دوركهايم» ـ الذي هو صحيح من أحد الوجوه ـ: (هو المظهر الخارجي لروح المجتمع العامة، وتقديسها).

إن الأهمية الكبرى للموضوع تنبع من أن كل شخص يعمل على ضوء رؤيته للكون، أي أن الصورة المنعكسة في أذهاننا على الوجود، لها تأثير مباشر في عملنا، في عقيدتنا، سلوكنا الإجتماعي، حياتنا الفردية والإجتماعية، أي أن كل شخص يعيش وفق رؤيته للكون.

إذاً فدراسة الرؤى الكونية هي في الحقيقة دراسة الأفراد، وأن دراسة رؤية كل مدرسة، وكل جماعة وشعب، للكون، هي دراسة لكيفية بناء وجبلة تلك الجماعة وذلك الشعب وصفات كل منهما.

وتتعدد الرؤى الكونية، على أساس هذا العرض الحديث الذي طرح في علم الإجتماع، وعلم معرفة الإنسان، (ولأجل أن لا أتأخر عن بحثي الرئيسي، لا أُريد أن أتعمق كثيراً حول هذا الموضوع، واكتفي بالإشارة هنا).

نحن، على سبيل المثال، عندما نستعرض الأدب الفارسي بهذه النظرة، وحتى ندرس الأمثال التي تضرب على لسان الناس، نرى الرؤية الكونية في هذه الأشعار، وفي هذه الآثار الأدبية والأمثال.

يقول «حافظ»: «إن العالم وكل ما فيه لا شيء في لا شيء، إذاً فاغتنم الفرصة». هناك أصلان موجودان في هذا المعنى: الأصل الأول: الرؤية الكونية لحافظ، ووفقاً لذلك، كيف ينظر حافظ إلى الكون: مجموعة من الظواهر، لا شكل ولا ارتباط ولا هدف ولا غاية لها. لا شيء في لا شيء.

الأصل الثاني: إذاً فاغتنم الفرصة.

هذه طريقة حياة «حافظ» الفردية والاجتماعية، وأسلوبه الذي يعرضه، التي تقوم على أساس الرؤية الكونية لحافظ.

تلك هي رؤية «حافظ» للكون، وهذه رؤية «المولوي»:

إذا أَخرجت ذرة واحدة من مكانها

ينهار جميع العالم من أصله

وهذا يعني أن العالم قد خلق وفق معادلة دقيقة، ولأجل غاية وهدف محدد، وأنا الذي لي مثل هذه الرؤية للكون، عَلَيَّ في كل خطوة، وفي كل عمل، أن أبحث بدقة لأرى هل أن هذه الخطوة قد خطوتها أو سأخطوها كما ينبغي أم لا؟ لأني عضو وعنصر من هذا العالم الكبير أيضاً، العالم الكبير الذي وضعت كل ذرة من ذراته، وفق حساب دقيق ومعادلة دقيقة، في المكان الذي يجب أن تكون فيه... ماكنة عظيمة، وأُناس يعملون جميعاً لتحقيق هدف واحد، هم آلات هذه الماكنة العالمية.

إذاً عندما أرى الكون بهذه الصورة، لا أتمكن أن أبرر الحياة بالصدفة والعبث واللامبالاة، واغتنام الفرص، أعيش كما أشاء، وأملأ حياتي بالحبور واللذة، وكما اخترت، وكيفما كان فهو الصحيح!. مثل هذه الأمور لا تجد لها مكاناً في هذه الرؤية العقلية والمنطقية للكون.

وعليه، فنحن نرى، باعتبارنا أُناساً، أننا موجودون على ضوء رؤيتنا للكون، وعلى حد تعبير «سارتر»: كل شخص يعيش وفق معرفته للكون، وأن الفرق بين عمر الخيام وحافظ، والمولوي، وملا صدرا، وأبي مسلم الخراساني، وجان بول سارتر، والبيركامو، وأمثالهم، هو على أساس رؤيتهم للكون، أي على ضوء ما يفهمونه عن الكون.

إذاً هناك رؤى مختلفة للكون، إحداها الرؤية المادية للكون، الرؤية القائمة على أساس أصالة المادة.

أي أننا نعتقد بأن كل ما هو موجود عبارة عن: مجموعة من العناصر والصلات والأفعال والانفعالات التي كلها مادية، والعالم له عنصر واحد وهو المادة.

إذاً فالكون لا شعور له، إذاً فالكون لا إرادة له، إذاً فالكون لا هدف خاص له، لأن الكون ـ وفق المبنى المادي ـ لم يكن مخلوق إرادة واعية ذات شعور، إذاً لم يكن هناك غاية من خلق الكون.

إذاً، فالكون على حد تعبير جان بول سارتر ـ أيضاً ـ: دار للحمقى، دارٌ حمقاء (Idiot)، لا شعور ولا إدراك لها، عناصر متراكمة على أساس الطبيعة المادية والفيزيائية والكيميائية، تقوم بصنع اللاشيء، والإنسان، هو العنصر الوحيد الذي توصل إلى الوعي، في مثل هذه الدار التافهة التي لا هدف لها ولا غاية.

وهذه هي بداية حيرة الإنسان وتشتته، لأن الإنسان يعيش في عالم لا يناسبه، ولا ينسجم معه، ولا صلة له معه، الكون يسير نحو لا شيء، ليس للكون هدف في عمله، الكون فاقد للشعور، أي أن الإنسان غريب عن الكون.

بناء على هذا، فالرؤية المادية للكون، تنتهي إلى غربة الإنسان وبعده عن هذا الكون، تنتهي إلى تضاد الإنسان مع الكون، إن مثل هذه الصلة تستنبط بصورة تلقائية في المنطق الآدمي عن الرؤية المادية للكون.

لو تقرأون كتاب (الطاعون) «لالبيركامو»، سترون أن هناك عدداً من الظاهرين بغير مظهرهم، أحدهم قسيس يمثل الرؤية الدينية للكون، والآخر فيلسوف علمي له نزعة اجتماعية، والثالث مفكر لا يعتقد بأي من هاتين الرؤيتين للكون.

ضرب الطاعون مدينة (اوران)[١] . . . حيرة واضطراب

---

(١) مدينة في الجزائر، ولكن كامو كان يقصد بها مدينة خيالية. ومدينة اوران ـ في قصته ـ المجتمع البشري.

وبلاء بشري، القسيس يظهر نوعاً من ردود الفعل أمام ذلك، والمثقف الإجتماعي المسؤول الملتزم يظهر نوعاً آخر، وهذا الثالث، الذي هو ابن قاض في العدلية، لا يدري ماذا يعمل.

يقول القسيس: أن لي رؤية دينية للكون، ما معنى الرؤية الدينية للكون؟ العقيدة الدينية، أي أنني أعتقد بأن هذا الكون عبارة عن نظام واع له إرادة واحساس وشعور وهدف، وأنا أحد أبناء هذا الكون وظواهره، وأن ذلك الوعي والشعور الكبير الذي يحكم الوجود ويشرف على أعمال جميع الذرات، مشرف على وجودي وأعمالي أيضاً، إذاً فأنا مسؤول أمام هذا الشعور الحاكم على الكون، وبناء على هذا، فأنا لي مسؤولية أمام هذا الطاعون، لذا عليَّ أن أذهب صباح غد، واوقف كل وجودي وكل فكري لخدمة الناس وانقاذ الناس، وأنقاذ مدينة «اوران» من الطاعون.

نرى أنه هكذا يستنتج من رؤيته للكون وعلى أساس هذه الرؤية يذهب نحو الناس، ليقوم بالخدمة التي ألقتها مسؤولية رؤيته الدينية.

أما الثاني، المادي، فهكذا يرى الكون، يقول: الكون أحمق، السماء لا تدرك، لا شعور لها، لم يكن هناك في الطبقات العليا أحد، لا أحد يدرك في عالم الوجود، لا شعور له.

بناء على هذا، لو قتلت نفسي، لو فديت الآخرين بنفسي، أو ضحيت بالآخرين من أجل نفسي، سوف لن يطلع على ذلك أحد، لأن ليس هناك أحد، إذاً فالكون منطقة فراغ جامدة ومادة لا إحساس لها.

ولكنني إنسان، وعليَّ أن أعيش إلى جانب الناس الآخرين، ونحن ـ بني الإنسان ـ لنا شعور بالنسبة لبعضنا، وبما أننا واعون، إذاً علينا مسؤولية. بناء على هذا فالمسؤولية لم تكن أمام العالم، لم تكن أمام الكون، بل أمام الإنسان. نحن ـ بني الإنسان ـ محكومون جميعاً بمصير واحد وذلك هو، الحياة في هذا العالم، العالم الذي لا يدركنا. في هذه البيداء الغريبة، التي لا إدراك لها، ولا قريب، تحرّر الإنسان فيها لوحده وعلى حد تعبير (هايدغر): «صخرة قذفت في صحراء الوجود» ليس لأحد أي ملجأ وملاذ ورجاء.

ولكن هؤلاء الناس لما واجهوا مصيراً مشتركاً، عليهم أن يتعاونوا مع بعضهم، ويخدم بعضهم بعضاً. إنني أتمكن من العيش الرغيد فيما لو كان المجتمع بخير وتم إنقاذ (أوران) من الطاعون. بناء على هذا، فمن أجل أن أخدم نفسي عليّ أن أخدم المجتمع مضطراً، لذا يجب أن أذهب لخدمة المجتمع، وأقارع الطاعون في (اوران).

أما الثالث: له استدلال آخر وفقاً لرؤيته الكونية، وهذا

الاستدلال هائل جداً ومنطقي وصحيح جداً، هذا الثالث تجسيد حيّ «لالبيركامو».

يقول، على حد قول «داستافسكى»: إذا حذفنا الله من العالم فإن كل عمل يجوز، لماذا؟ لأنه ليس هناك أي إرادة أو إحساس أو إدراك يميز بين الفعل الحسن والفعل القبيح، كما هو من يعيش في الدار لوحده، فلا يوجد هناك أي شخص ليراه.

فلو كانت هناك، في الطبقة العليا، عين ترى وتطلع على عملكم، فسوف يختلف نوع عملكم في هذه الدار، أما إذا لم يكن أحد سوى إنسان واحد، فإن هذا الإنسان بأي صورة أراد أن يجلس أو يقوم أو يلبس أو يتزين، أو أن يؤدي أي عمل، فليس ذلك بمهم لهذه الدار، لأن هذه الدار لا شعور لها.

إذاً فأي عمل يعمله الإنسان في هذا الكون الفاقد للشعور والإحساس، هو على حد سواء.

ورفيقي الثاني هذا يقول: نحن ـ بني الإنسان ـ لما كانت لنا آلام مشتركة، وعلينا أن نعيش في (أوران)، لذا فكل منا مسؤول أمام مجتمع أوران، أي المجتمع البشري، والطاعون القادم الذي أودى بمجتمع أوران، يوجب علينا مسؤولية مقاومته.

لكن هذا الثالث لا يقبل استدلال الثاني، وهو يقول: هنا

مغالطة، خدعة، لأن عملي ـ سواء كان حسناً أو قبيحاً ـ من أجل العالم، ليس له أي أثر في النهاية في تقرير مصيري، سواء ضحيت بنفسي من أجل الآخرين، أو ضحيت بالآخرين من أجل نفسي، إن العالم لا يشعر بذلك، لأنه غير مدرك.

أليس من الغباء أن أضحي برأس مالي الوحيد المعقول، وهو الأربعين والخمسين عاماً، الفرصة التي منحني إياها الوجود صدفة وبدون أن يعلم، أضحي بها من أجل الآخرين، ليتمكن الآخرون أن يستفيدوا من هذه الفرصة بصورة أفضل؟ حسناً، وأنت، ماذا؟ لا شيء ثم ماذا؟ طبعاً بعد ذلك، عندما تموت، يضعون على قبرك باقة من الزهور، يضعون صورتك ـ مثلاً ـ على الرف، يذكرون اسمك في الكتب، يمدحونك بالشعر، حسناً، ما تأثير هذا الشعور وهذه الزهور عليك أنت الذي لم تعد موجوداً، سوى عظام نخرة، لقد رحلت.

بناء على هذا، عندما لم يكن «للوجود» شعور وإدراك، وعلى حد قول «داستافسكي» ـ والذي قبل «سارتر» منه هذه الجملة ـ: في الوقت الذي لم يكن لدى الوجودية ونظرية أصالة الإنسان شعور، فإن كل عمل هو مجاز في هذا العالم.

إذاً أتمكن من القيام بأي عمل، ولا فرق في ذلك للعالم ولا لمصيري، لأن «الوجود» لا يدرك، وعليه فهو لا يتمكن من المكافأة، ولا يتمكن من التأثير في عملي.

إذاً لو حذفنا الله، ستحل الـ(أنا) في محله، هذا بصورة مطلقة، وهو مسلّم به. إذا لم يكن للعالم شعور، ولا مقياس لتقييم الأعمال فالـ(أنا) ستحل محله، أي أن كل شيء هو حسن، وكل عمل هو صحيح إذا كان يؤدي إلى لذتي وإعجابي في سنوات العمر هذه. إذا كنت قد فديت نفسي ـ أي رأسمالي الوحيد الموجود ـ للآخرين، فإني لم أر مكافأة من هذا العالم، لأنه لا يدرك العمل الحسن والعمل القبيح.

بناء على هذا، فإن فلسفة «اغتنام الفرصة» ـ على حد قول البيركامو ـ تتولّد منطقياً من فلسفة عبث تافهة، أي يجب عليَّ أن أُقيّم جميع أعمالي، حياتي، صلاتي مع الآخرين، مع الطبيعة، على أساس لذتي، وأعمل وفق ذلك، لأنه لا وجود لقياس آخر حتى يبرر تضحياتي من أجل الآخرين، لأن ذلك سوف يكون رومانسياً ومثالياً، مثالياً حيث يدعي الإنسان: أن عملي لا تأثير له في العالم، لأن العالم لا يدرك عمل، ولكن ومن أجل أن يذكرني الآخرون بخير بعد فنائي، لذا فأنا أفديهم بنفسي!.

بالنشيد والتلقين واستغلال العواطف والمدح الخارق، يمكن حمل الأشخاص على التضحية، ولكن، الأشخاص العاطفيين فقط، وإلاّ فلو سأل نفس ذلك الشخص: أنا الذي أتمكن من الحياة ستين عاماً، أتمتع بها وأهنأ، وأقضيها بالمتعة

واللذة، لو أعطيت كل هذا للمجتمع فأي شيء بعد ذلك سيقدم لي المجتمع؟

أي إجابة يمتلك المجتمع عن سؤاله هذا، وهو الذي يقول له: لا وجود لعالم آخر يقدّر لك عملك ـ باعتباره شعوراً واحساساً ـ أو يكافئك، أو أن عملك سيترك تأثيراً في مصيرك في المستقبل، إذاً عندما لا يؤثر نوع عملي في مصيري ومستقبلي، فمن المنطقي أن اتجه لعمل له تأثير على مصيري وحالي.

بناء على هذا، تنتهي الرؤية المادية للكون مباشرة إلى لا شيء.

هكذا نرى اليوم، وبعد مرور ثلاثمائة عام على النهضة، على انتصار الرؤية المادية للكون على الرؤية الدينية للكون، نرى أن جميع الفلسفات والمدارس والفنون في القرن العشرين، وصلت إلى لا شيء، إلى التفاهة، والروح السائدة ـ الآن ـ على فن القرن العشرين، روح التفاهة، روح القشور.

يقول (رجريه): «لا معنى لأيّ شيء في عالم لا إحساس له، كل شيء، لا هو بقبيح ولا حسن، لا جيد ولا رديء، لا شر ولا خير. إذاً ماذا؟ الفنان هو الذي يضع لشيء ما، أو لفكرة ما في الكون، معنى الحسن والقبح، كما يريد».

بكيت في مسرحيته «في انتظار جودو»، والتي هي أثر كبير لكاتب كبير في قرننا المعاصر، يروّج للتفاهة. كذلك فإن مسرح التفاهة هو الآن من أكثر مسارح القرون الأخيرة رواجاً وشيوعاً.

مسرح القرن العشرين، مسرح التفاهة. ما معنى مسرح التفاهة؟ يعني أن المسارح منذ عصر أرسطو وحتى اليوم كانت تدعو إلى هدف خاص، هدف ديني، أو علمي، أو فلسفي، أو تاريخي، كانت تريد أن تقول شيئاً.

ولكن في الكون الذي لا شعور له، الإنسان ـ أيضاً ـ لا يملك شيئاً يقوله. الكون الأجنبي الذي لا يدرك، لا يمكن أن يكون مخاطباً للإنسان، وحيث لا وجود للمخاطب فكل كلام لا يكون منطقياً، سوف يتساوى الكلام ذو المعنى والكلام التافه، لأن ليس هناك أُذن صاغية، فالعالم أصم.

ومسرح التفاهة، مسرح رسالته اللاشيء في القول، رسالته والتزامه هو أنه لا يلتزم بأي شيء، ولا يتعهد بشيء، المظاهر المختلفة الكاذبة تلعب دور التفاهة في المسرح، يقتلون، يجهدون أنفسهم، يظهرون حوادث مختلفة، وبالتالي ما هي النتيجة؟ لا شيء، ويجب أن ينجر مسرح التفاهة إلى التفاهة، لماذا؟ لأن الحياة هي هذه، الحياة في الرؤية المادية للكون تافهة ولا معنى لها.

فالروح السائدة في الغرب في القرن العشرين، هي

التفاهة، في الوقت الذي كانت الروح السائدة في القرن التاسع عشر هي الأيديولوجية. واليوم في غروب القرن العشرين لا يقوم أي شخص بتقديم أيديولوجية، إن صنع الأيديولوجية كان من عمل أهل القرن التاسع عشر، الذي يسخر منه في القرن العشرين.

فكل فيلسوف أو مفكر أو فنان يريد أن يفكر تفكيراً يلائم القرن العشرين، عليه أن يبدع شيئاً خالياً من الدعوة، يمثّل مسرحية خالية من المحتوى الكلامي، لماذا؟ لأن واقعية الحياة هكذا تبدو، وإذا كان يريد أن يقول شيئاً، فمعنى ذلك أنه يريد مسخ الحياة، وإذا أظهر الإنسان حسناً أو قبحاً ـ لهذه الغاية أو تلك ـ فمعنى ذلك أنه لم يعرض الإنسان الواقعي، لأنه عندما يكون لا معنى للعالم، فالإنسان ـ أيضاً ـ لا معنى له. عندما يكون الوجود لا هدف له، فمن غير الممكن أن يكون للإنسان هدف. إذا كانت العربة التي تقلني لا تذهب إلى أي مكان فإني سأبقى جالساً في مكاني، ومن الغباء أن أنتخب لنفسي جهة من الجهات، كذلك بقية الركاب فهم متساوون، لأن الإنسان لا يتمكن من تقرير مصيره منفصلاً عن مصير العالم، وسواه غير ممكن.

أما الرؤية الدينية للكون، ما هي؟ هنا تكمن أهمية حديثي الذي أريد أن أتحدث به، هو نفس الشيء الموجود في

أذهانكم، هو نفس الحكم الموجود بالنسبة لأكثريتكم أو أقليتكم، وموجود في ذهني أيضاً.

أنا لست داعياً دينياً، ولا أدعو للدين الوراثي، ولست ملتزماً بعهد للدعوة إلى الدين، هذا نوع من تفكيري العلمي والتحقيقي الذي توصلت إليه وأنا أُريد أن أقوله. لا فرق بالنسبة لي، سواء كان مورد قبول مريدي الدين أو مخالفيه، لأنه انطباعي الشخصي، وأنا فرد يدرس ويبحث فيحصل أن تنطبع أشياء في ذهنه.

عندما يقال: «الرؤية الدينية للكون» ـ وإذا حكمنا بانصاف ـ، ما الذي سينطبع في أذهانكم؟ سيما بعد أن كانت الرؤية المادية للكون تصل إلى نوع من الخيال (الخيامي)، علماً أن الرؤية المادية للكون تقوم على أساس العلم على أي حال، في الوقت الذي تقوم الرؤية الدينية للكون، على أساس الخرافات المتبقية من ماضي الإنسان، والتي لم تصل إلى العلم لحد الآن.

الرؤية الدينية للكون هي عبارة عن تصوير للوجود، الوجود الذي يمثل بلداً، يمثل منظمة تشرف عليها قوة قاهرة عليا وتديرها، القوة التي تدير عجلة العالم، تدير الكواكب السيارة، القوة التي صنعت الأشكال والأشياء كما تريد، خلقت الناس كما تشاء، ونحن ـ أيضاً ـ كما شاءت تلك القوة، لا كما نشاء،

إذاً، فالإنسان تافه لا شيء، في نظام الرؤية الدينية للكون.

ففي الرؤية المادية للكون كان العالم تافهاً لا شيء، لا أحد له ولا معنى، ولكن في الرؤية الدينية للكون له أحد، له صاحب، سيد آمر، له إلٰه، له خالق، قاهر ومدبر.

إذاً، فما هو الإنسان؟ لعبة بيد مشيئة الإله أو الآلهة، الإنسان آلة لا إرادة لها، وإرادة الإله ـ فقط وفقط ـ هي التي تحركها أينما تريد. إذاً هناك نوع من عدم أصالة الإنسان، نوع من تفاهة الإنسان، موجود في الرؤية الدينية للكون.

الإنسان في الرؤية الدينية للكون، يجب ألاّ يعتمد أبداً على إرادته ووعيه ومصيره وشخصيته؛ بل عليه نكران ذاته أمام الإرادة الإلٰهية، نكران ذهنه وعقله أمام العقل الكل؛ نكران شخصيته وأصالته أمام شخصية الإلٰه وأصالته.

إذاً، كما نرى، أن الرؤية الدينية للكون ـ كما كانت سائدة طوال التاريخ ـ تؤدي إلى تفاهة الإنسان ونفي ذاته.

إذاً لماذا أنا أعتقد أن الرؤية الدينية للكون أكثر الرؤى علمية وإنسانية، وأفضلها منطقاً ورقياً، في الوقت الذي هي أخس الرؤى، وأبعدها عن الإنسانية، وأقواها عاملاً في نفي أصالة الإنسان وشخصيته؟

لماذا يوجد هذان الحُكمان المتناقضان بالنسبة للدين؟

واضح جداً. لأن ـ وللأسف ـ الحكم الذي نطلقه الآن على الدين، نستمده من موضعين:

من ماضينا التاريخي، الذي هو دين سلبي ضد الإنسانية، قد وصل إلينا ونحن إما أن نعتقد به، بحيث نكون دينيين خرافيين منحطين (أقول ذلك بصورة عامة)، أو أن نخالفه، بحيث نكون متجددين مخالفين للدين المنحط الذي وصل إلينا من الماضي، لا دينيين.

هذه هي حصيلة تجربة المثقفين، وعلماء القرون الحديثة بعد عصر النهضة، في ثورتهم ضد القرون الوسطى الدينية.

إذاً، عندما نريد أن نقول: ما هو الدين؟ فإن كلانا، ـ المعتقد بالدين والمخالف له ـ متساوون.

الإيمان بالدين، موضوع غير موضوع المعرفة والصورة التي لدينا عن الدين. أنتم ترون الجنة ـ مثلاً ـ مكان خاص، ولها مكان في أذهاننا، غير أن المتجدد مخالف والمتدين موافق لذلك، إذاً هذان الإثنان لديهما صورة ثابتة ومشتركة عن الجنة.

الله، مفهوم مشترك في أذهان الجميع، جماعة منا لا تقبله، وآخرون معتقدون به، جماعة تخالف قضية الإمام الحسين، ويسخرون من ذلك، وجماعة أخرى تعتقد بها وتسكب العبرات، إذاً فالمخالف والموافق لهما وجه مشترك في نوع

وكيفية مورد الاعتقاد، كلاهما يفهمان الموضوع بصورة واحدة.

بناء على هذا، أنا لا أتحدث عن الإيمان أو الكفر، أو عدم الإيمان، لا حاجة لي بذلك، الموضوع هو التحليل العلمي لهذه القضية، لا التبليغ أو التلقين. أننا محتاجون اليوم إلى المعرفة، لا إلى الاعتقاد وعدم الاعتقاد، لأننا نعتقد ـ غالباً ـ أن الدين بدون معرفة لا قيمة له أبداً، إننا محتاجون اليوم إلى معرفة الدين، إلى معرفة العلم، إلى معرفة المجتمع والتاريخ، إلى معرفة شخصياتنا، لا إلى التظاهر بالعقيدة، كل هذه العقيدة عندما لا تكون مقترنة بالوعي، ليس أنها لا فائدة فيها فحسب، بل أنها مضرّة، لأنها تأخذ جميع الطاقات الإنسانية.

الإيمان لوحده لا فائدة فيه، الوعي هو الذي يعطي الإيمان قيمة الولاء لعلي، الولاء لمحمد، الولاء للقرآن، وعبادة الله، بدون المعرفة لا قيمة له أبداً، وحتى أنها تكون ـ تارة ـ عاملاً من عوامل نفي وشقاء قوم وانحطاطهم.

عليٌّ الذي لا نعرفه مثل رستم الذي لا نعرفه، كأيّ شخص آخر لا نعرفه، والفرق بين هؤلاء إنما هو بالمعرفة، وإلاّ فما الفرق في نفس الحب أو البكاء أو إظهار العواطف لهذه الشخصيات الدينية، أو الدين؟

فالإسلام المجهول يساوي الدين البوذي المجهول، يساوي الشرك وعبادة الأصنام المجهولة، يساوي السحر.

كتاب ككتاب المثنوي، أو حسين كرد[١]، ما الفرق بينهما إن لم نعرفهما، وبأي منهما نعتقد؟ عندما فتحناهما وقرأناهما وعرفنا القيم التي ضمها كل من الكتابين، فقد تركا فينا أثرين مختلفين.

الموضوع هو أننا عندما نكون مؤمنين نرى أنه لا فائدة في ذلك وعندما نكون مثقفين متنورين أيضاً نرى أننا لم نصل إلى أي مكان. إن هذا المفهوم الواحد ـ سواء باسم الدين، أو باسم التصور الديني، أو باسم الرؤية الدينية للكون، الموجود في أذهاننا ـ وهذا المفهوم الثابت المشترك عن الأديان في الحياة البشرية، الذي نخالفه أو نوافقه، كلاهما خطأ.

فعلى طول التاريخ، ومنذ أن أخذ الإنسان بالعيش على هذه الأرض، كانت المجتمعات البشرية قد اتخذت مكانها في جناحين وفي قطبين متصارعين، هذه الجماعة تكافح ضد الجماعة الأخرى دائماً، وقد استمر الكفاح هذا من قبل الجناحين على طول التاريخ البشري وبصور مختلفة (حسب المرحلة التاريخية ومستواهم الثقافي).

---

(١) المثنوي: ديوان شعر من مفاخر الأدب الفارسي، يضم ما يقرب من ثلاثين ألف بيت، ضمّنه ناظمه المولوي جلال الدين الرومي، المواعظ والحكم والأمثال والعبر. وحسين كرد: كتاب قصصي اسطوري، باللغة الفارسية (المترجم).

إن القطب المانع للرقي البشري، هو القطب المؤسس للانحطاط، المؤسس للجريمة والفساد، لاستغلال الإنسان، جهل الإنسان، رِقِّيَة الإنسان، التسلط الجائر على الإنسان، بقائه في حال الجمود والجهل والركود، المؤسس للتفرقة البشرية، والتمييز العائلي والقومي والعنصري، وصانع الفضائل الوهمية، الذي كان الإنسان ـ على طول التاريخ ـ يتحمل آلامها، صانع الخرافات والشعوذات لمصلحة جماعة خاصة، والاساءة للأكثرية العامة.

إن هذا القطب يمثل كل الذين كانت فلسفتهم الحياتية ووضعهم الإجتماعي تقتضي ألاّ يصل الناس إلى الوعي والنمو والكمال والشخصية، الذين كان وجودهم وفلسفتهم الوجودية، الاجتماعية والتاريخية، مغايرة للعدالة والوحدة الإنسانية على وجه الأرض.

مثل هؤلاء كانوا يحاربون الأناس الذين يسعون للوحدة البشرية على وجه الأرض، ويتطلعون لاستقرار المساواة على الأرض وإبادة الامتيازات الموهومة لتلك الأقلية، أي جميع الناس، أي أكثرية البشر.

كان هذا القطب يحارب ذلك القطب على طول التاريخ، منذ بداية النوع البشري وإلى اليوم، وإلى غد، وإلى الأبد ولكل منهما سلاحه وأفكاره وتأملاته، كان سلاح هذا القطب شيئاً

واحداً: الدين، وسلاح ذلك القطب شيئاً واحداً: الدين.

إذاً كان الدين يحارب الدين، والدينان يتحاربان دائماً على طول التاريخ.

إننا نضع هذين الدينين المتضادين المتناقضين، اللذين كانا يتحاربان على طول التاريخ، وفي مفهوم واحد ثابت ومشترك، مورد إتهام، سواء اعتقدنا بذلك أم لم نعتقد، وكلاهما خطأ.

واليوم، وكما هو موجود في الدول الأوروبية المتقدمة، حيث كيف أضحىٰ عمل الفيلسوف والكاتب الأوروبي الكبير اليوم، يعتمد على استخراج المفاهيم المتجددة الحديثة لمعرفة تاريخ الإنسان حتى من أساطير اليونان والروم، من تلك الأساطير لآلهة اليونان القديمة فيما قبل ٢٦٠٠ و٢٧٠٠ عام ومن قصة بروميثوس، وسزيف، وزيوس، واطلس، ولاوكون... ! فإنه يجب علينا أن نقوم بنفس هذا العمل أيضاً، وإن الثقافة الإسلامية طافحة بأغنى المعاني الإنسانية وأعمقها.

إن قصة هابيل وقابيل الموجودة في قصصنا الإسلامية، والتي يسميها القرآن نفسه بالـ«قصة»، مليئة بالحقيقة العلمية. (إذا أخذنا القصص المشابهة باعتبارها وقائع تاريخية، تكون غير مفهومة وبدون نتيجة، ولكن إذا أخذناها باعتبارها حقائق نموذجية فإنها مليئة بالأسرار العلمية لمعرفة الإنسان ومعرفة التاريخ).

قابيل وهابيل، من هما؟ إبنا آدم، إذاً عندما تُذكر قصة قابيل وهابيل، فإنه المراد بها قصة بداية التاريخ البشري بصورة رمزية ونموذجية. (كما يذكر «آلبركامو» قصة «أوران»).

نموذجان هما قابيل وهابيل، يقوم آدم بخطبة ابنتيه لإبنيه هذين، ولكن قابيل يرى خطيبة أخيه أجمل من خطيبته فيطمع فيها، ومن أجل ذلك يتمرد قابيل.

إنهما أول انسانين على وجه الأرض يبدآن بالتاريخ البشري، آدم انموذج لنوع الإنسان، أما هذين فهما انموذج بدء التاريخ البشري.

يقول هابيل: أنا قانع بحقي الذي أُختير لي، ولكن قابيل يقول: لا، عليَّ أن آخذ حقك منك، فيبدأ صراعهما على صورة تمرد واعتداء قابيل على هابيل، بدافع أخذ خطيبته منه؛ فيشكوان إلى آدم، يقول آدم: فلينتخب كل منكما قرباناً، وأيّ منكما قَبِل الله قربانه، فليذعن للآخر، قبلا بذلك، ينتخب هابيل من بين ابله ناقة شقراء عزيزة، ويأتي بها إلى المنحر قرباناً لله، وقابيل يأتي بقبضة من القمح الذابل الأجوف القائم المضروب الذي لا يفيد كل شخص، إلى محل القرابين، وبالتالي ـ وبصورة طبيعية ـ يُقبل قربان هابيل، ويظل قابيل خائباً مرة أخرى.

قابيل ـ الذي حرم من هذا العمل أيضاً ـ يستمر في إعتدائه،

ويخدع أخاه هابيل في الصحراء ويقتله، وهذا أول دم سفك في التاريخ البشري بواسطة الإنسان؛ أول قتل أخ بدأ في النوع الإنساني.

تريد هذه القصة أن تقول: كيف أن الوحدة الإنسانية، التي كانت كلها من نوع واحد، وكان ذلك النوع هو آدم، كانت متساوية، كل أفراد البشر كانوا أخوة، وهذه الأُخوة انجرت إلى التضاد، لقد انقلب الأخوان إلى عدوين، أي أن الوحدة الإنسانية انقلبت إلى تفرقة وخصومة إنسانية.

أي عامل صار سبباً لسفك أول دم في النوع الإنساني، وكيف؟ وأي عامل صار سبباً لتنقلب الوحدة والتعايش والسلم البشري تفرقة وحرباً تاريخية على طول التاريخ والنوع الإنساني؟.

أي كيف انقسم المجتمع على نفسه إلى قسمين؟ المجتمع البشري الذي كان له «نحن» واحدة، كيف انقلب إلى اثنين «أنا»، وأصبحا قطبين متضادين بحيث صار أحدهما يقتل الآخر؟!ما الذي أدّى إلى أول اعتداء؟.

وهنا لا يمكن القول أن المحيط الذي كان يعيش فيه قابيل يختلف عن محيط هابيل، استاذه يختلف عن استاذ أخيه، الكتب التي كان يطالعها تختلف عن الكتب التي طالعها أخيه، ذاك ذهب إلى أوروبا وهذا ذهب إلى النجف. لقد كانت ظروف

كلا الطرفين متساوية، الأب، الأمّ، المحيط واحد، الدين واحد، ولكن أحدهما يكون قاتلاً ومجرماً من أجل هواه، والآخر يكون مظهراً للإنسانية، للسلم، للإيمان، بل ويضحي بأعز شيء لديه وأفضله في سبيل إيمانه.

ما هو سبب الاختلاف؟ عامل الإختلاف الوحيد هو عملهم، أحدهما كان فلاحاً وهو قابيل، لأنه ذهب وجاء بالقمح، وهابيل كان يقوم بتربية الدواب، لأنه ذهب وجاء بالناقة.

إذاً فهابيل يمثل مرحلة من مراحل التاريخ البشري، المرحلة التي كانت فيها حياة الإنسان تقوم على أساس الطبيعة والصيد وتدجين الحيوانات، أي أن الطبيعة كانت هي مصدر الإنتاج.

وكان قابيل يمثل دوراً من أدوار تاريخ الإنسان، بحيث يكون فيه مصدر الإنتاج انحصارياً، وتوجد فيه الملكية الفردية والشخصية الإنحصارية.

نحن نعلم بأن أول مرحلة في التاريخ للنوع الإنساني، كانت مرحلة الصيد في الطبيعة، ولم يكن ـ في هذه المرحلة ـ أي شخص يختص بأيّ شيء لنفسه، لأن مصدر إنتاج الجميع كان البحر أو الغابة، والبحر والغابة لم يكونا في انحصار أي شخص، مائدة الطبيعة المفتوحة هذه، كانت تحت اختيار جميع الناس ليذهبوا ويصطادوا ويأتوا ويأكلوا الإستهلاك تحت اختيار

الجميع، الإنتاج تحت اختيار الجميع، وجميع الناس ـ في تلك المرحلة ـ هابيليون، المرحلة التي كانت فيها المصادر الاقتصادية ـ عادة ـ في متناول أيدي جميع الناس بصورة متساوية، ولم يكن بعد مكان للأنانية وحب السيطرة الفردية؛ لم يكن هنالك من يقول: مالي وليس مالك.

وقابيل كان يمثل مرحلة، بحيث يحدد قطعة من أرض الله، ويثبت اسمه على مصدر الإنتاج هذا، ثم يستثمر الآخرين ويستعبدهم، ويجبرهم على العمل له في مصدر انتاجه واقتصاده، مقابل حصولهم على لقمة الخبز.

إذاً فالأمر واضح تماماً، إن أول قتل أخ بدأ في المرحلة التي فكر فيها الإنسان بالملكية الإنفرادية، والانحصار الفردي، فانقلبت الوحدة الإنسانية تفرقة إنسانية، وصلة الأخوة البشرية إنقلبت إلى صلة قاتل ومقتول.

أي أن التاريخ ـ بمقتولية هابيل وقاتلية قابيل ـ ينتقل من مرحلة الوحدة الإنسانية إلى مرحلة التمييز الإنساني، ومن مرحلة أصالة النوع البشري إلى مرحلة أصالة الفرد البشري وحب الإنفرادية للنوع البشري.

أيّ أن التاريخ ـ بذهاب هابيل وبقاء قابيل ـ انتقل من المرحلة الهابيلية إلى المرحلة القابيلية، وبأزالة هابيل وبقاء

قابيل، أصبحنا جميعاً أبناء قابيل، لأن هابيل لم يتزوج وظل محروماً.

مَنْ هو قابيل، الذي يدخل التاريخ ـ من هنا ـ مرحلته، ويسود قابيل والروح القابيلية على فلسفة تاريخ الإنسان؟

مَنْ هو قابيل؟ رأينا من هو: قابيل دين، لم ينكر الله، ولم يقل: ما هو الله، وليس له وجود، وهذه الأقوال تافهة، لأنه يذهب ويقدمّ قرباناً. قابيل يدين بدين آدم، وكذلك هابيل. ولكن هذا الدين يكون لدىٰ الشخصين دينين متضادين، أحدهما يبرر دوافع قابيل، والآخر يكون سبباً في تحقق الحقائق وفضيلة هابيل، وهذان الدينان يتحاربان على طول التاريخ.

وخلاصة الموضوع، أن قابيل الذي يبقى، نرى أنه يضع الإيمان بالله جانباً، ويضحى به لمصلحته الخاصة، يضع أباه ـ آدم ـ جانباً، ويضحى به ـ أيضاً ـ لمصلحته الخاصة، يضع أخاه جانباً ويقتله ويضحي به لمصلحته الخاصة.

نرى أنه يتنازل إلى أي مستوى بما في ذلك استخدام الدين واستغلاله لكسب مصلحته الخاصة، ونرى أن قابيل، باشتراكه في القربان، متديناً يعتبر الدين وسيلة لتأمين مصلحته الخاصة أيضاً.

إذاً، فالتاريخ دخل مرحلة التميز البشري، ومرحلة قتل

الإنسان لأخيه الإنسان، ولم تعد الوحدة الإنسانية سائدة في التاريخ.

قابيل حيّ دائماً في تاريخ البشرية، لأن هابيل قد مات، قابيل والنظام القابيلي ـ باعتباره محدودية للحياة الاقتصادية والمادية وانحصارها بجماعة خاصة، واسترقاق الأكثرية من قبل هذه الجماعة أو الطبقة الخاصة ـ أوجد نظاماً بحيث كان لهذا النظام ـ على أساس مئات من الأدلة الموجود في التوراة والإنجيل والقرآن ـ سيادة في كل أدوار التاريخ البشري والمجتمعات البشرية، والمراحل البشرية كانت هكذا في كل الأدوار.

وعلى حد تعبير القرآن، هناك أكثرية جماهيرية إسمها «الناس»؛ وهناك قطب ضد هؤلاء الناس، هذا القطب المخالف للناس، والذي هو حاكم على الناس في التاريخ، ويتصرف بمصير التاريخ البشري والمجتمع البشري، هو القطب القابيلي الذي له ثلاثة وجوه: وجه اقتصادي، ووجه سياسي، ووجه ديني، المال والقوة والدين، تتعلق وتنحصر بهذه الطبقة الخاصة.

هذه الوجوه الثلاثة، والتي هي لفرد واحد وهو، الطبقة القابلية، لها في الإسلام نماذج ثلاثة تدل عليها وتعرّفها بصورة واضحة، ثلاثة مظاهر موجودة في القرآن وتتكرر دائماً، وهي

موجودة في التوراة أيضاً: أحدها فرعون باعتباره نموذج السلطة، والثاني قارون باعتباره نموذج الثروة والرأسمال الاقتصادي، والثالث بلعم بن باعورا، الروحاني الذي بيده الدين، هؤلاء الثلاثة هم نماذج الطبقة القابيلية.

إذاً هكذا نرى، إن الدين في التاريخ كان قوة في قلوب جميع الناس، كما كان في قلب قابيل، وفي قلب هابيل أيضاً؛ ولكنه كان وسيلة بين الروحانيين، أي البلاعمة الباعوريين. والبلاعمة الباعوريون، أي الطبقة الروحانية، كانت إحدى هياكل الطبقة الحاكمة على طول التاريخ انظروا إلى اليهود، إيران القديمة، الروم، اليونان، في كل مكان، ترون هذه المظاهر الثلاثة، وجوه ثلاثة لهيكل واحد، هذا هو التثليث.

فالله واحد ـ أيضاً ـ بالشكل الذي يقوله الكاثوليك، وبنفس الوقت فإن هذا الواحد هو ثلاثة، وهذه الثلاثة المنفصلة عن بعضها كل واحد منها أقنوم واحد منفصل، وبنفس الوقت الثلاثة واحد! ومثل هذا لا يستسيغه العقل الإنساني أبداً، كشعر المولوي الذي يقول: «اطلب الخمر بلا قارورة، من القارورة بلا خمر»، فيكون لا شيء! ولكننا نرى أنّ الأمر صحيح.

نحن يخيل إلينا أن التثليث الموجود في الأديان، يعني أن الله له ثلاثة وجوه بالوقت الذي هو واحد، ولكن هذه الطبقة

السائدة في التاريخ هي التي لها ثلاثة وجوه بالوقت الذي هي طبقة واحدة: وجه راهب، زاهد، الطبقة الروحانية، أي البلعمية الباعورية، ووجه القوة والسلطة، أيّ الوجه الفرعوني، ووجه الثروة والرأسمال، أي الوجه القاروني، ففي الوقت الذي هي ثلاثة، هي واحدة، ونرى في التاريخ، أن هؤلاء الثلاثة، فرعون وقارون وبلعم بن باعورا، يقفون في هيكل واحد يحاربون موسى.

إن هذه الوجوه الثلاثة، باعتبارها فرداً واحداً، الذي هو قابيل، أو الطبقة القابيلية، حاكمة على التاريخ.

إذاً فكما أن الاقتصاد ـ أي الثروة ـ كان في تاريخ البشر بيد طبقة خاصة، وكما أن السلطة ـ من حيث الحكم والنظام وتدبير العالم والمجتمع ـ كانت بيد طبقة خاصة، فإن الدين هو الآخر، باعتباره وسيلة، كان بيد هذه الطبقة الخاصة، أين؟ بجانب الثروة وبجانب القوة، والناس كانوا اسرى بيد طبقة كانت تسيّر التاريخ، أي توظف التاريخ لمصلحتها.

وكما أنهم كانوا يجبرون الناس على الاذعان بواسطة السلطة والقوة، وكما أنهم كانوا يستثمرونهم بواسطة المال، كذلك ـ أيضاً ـ كانوا يخدرونهم بواسطة الدين. واحد يأخذ برأسه، والثاني يفرغ كيسه من المال، والثالث يقرأ في أذنه:

أخي، لا تهتم، ولا ترفع صوتك، يكافئك الله غداً.

الثلاثة كانوا واحداً.

انظروا إلى إيران القديمة، إلى الساسانيين والأخمينيين، كانوا يقدّمون الأموال الطائلة إلى المعابد، بحيث ـ على حد تعبير المؤرخ (البيرماليه) ـ كانت تسعة عشر بالمائة من الأراضي الزراعية في البلاد، في أوائل عهد المزدكية، تتعلق بمواقد النار والمعابد؛ وبعد ثلاثين سنة وصلت هذه النسبة إلى ثمانين ونيف بالمائة.

يقول شاعر من عهد رمسيس الأول في مصر، والذي ظهرت آثاره الحجرية اليوم: هذا الإِلٰه «اختون» لشدة حرصه يحملق نظراته على اللقمة التي أريد أن أضعها في فم طفلي، ويختطفها، متى يمتلىء بطن هذه الآلهة الجشع؟!

منذ أن انقسمت البشرية على نفسها ـ باعتبارها وحدة واحدة ـ إلى قطبين متضادين، إلى ثنائية قطبية متضادة غير متشابهة أبداً بل ويعادي كل منهم الآخر بشدة؛ ومنذ أن وجدت الثنائية في النوع البشري، أصبحت الرؤية التوحيدية للكون، الملائمة للوحدة البشرية، متناسقة مع الثنائية الطبقية، وتبدّلت إلى الثنائية الإلهية، أو الرؤية الثنائية للكون، ومنذ أن أصبح النظام السائد ذا ثلاثة أبعاد، قدرة واحدة في ثلاثة مظاهر، صار

الإِلٰه الواحد ـ أيضاً ـ ذاتاً واحدة في ثلاثة وجوه، الرؤية التثليثية للكون.

هكذا نرى، أن الرؤية التوحيدية للكون، والرؤية الشركية، كلاهما رؤية كونية دينية، ولكن رؤية الشرك للكون هي انعكاس للنظام الإجتماعي على النظام الإِلٰهي؛ هي صورة للأرض منعكسة على السماء.

وبهذا الشكل، فإن الروحانية السائدة، بتبريرها للتوحيد الملفع بالشرك، قد بررت تبديل التوحيد الطبقي ـ العنصري، بشرك طبقي ـ عنصري.

وهنا قاموا بلعبة ديالكتية فطنة بين «الذهنية» و«العينية»، أي: الدين والحياة، الرؤية للكون، والرؤية للمجتمع، والتي لا زالت خافية على الكثير من العلماء والمثقفين.

إن المجتمع، في الرؤية الدينية للكون، تابع للكون، النظام السائد على الحياة المادية محكوم ومعلول للنظام السائد على عالم الوجود، وبتعبير أكثر بساطة: إن كل ما يمضي على وجه الأرض، هو انعكاس عن ما مضت به إرادة الله العظيمة.

إذاً، فالله أو المشيئة الغيبية، هي العلّة؛ والإنسان ومصيره الأرضي هو المعلول.

فالمجتمع البشري تبدّل من نظام «الاشتراك الأول» الذي

كان نظاماً توحيدياً بشرياً، إلى نظام التمييز وتعدد الطبقات، الذي نسميه نظام الشرك الاجتماعي.

إن الشرك الإجتماعي لا يتلاءم والتوحيد الاعتقادي، إن الجماعات والطبقات المختلفة ـ في الشرك الإجتماعي ـ كانت تبرر الإختلاف في الوضع الإجتماعي ودورها الاقتصادي والسياسي، على أنه اختلاف في الذات الإنسانية وجذورها العنصرية، ومن أجل هذا التبرير كان عليها أن تبحث عن ملاك فلسفي واعتقادي، أي عن أساس وجودي وعالمي، وطبعاً ـ وبصورة تلقائية أيضاً ـ عندما تتغير العينية، فإن صورتها تنعكس على شاشة الذهنية.

وهكذا، عندما تبدلت وحدة ذاتية الإنسان (آدم) إلى تعدد ذاتية الإنسان، فإن وحدة ذاتية الإلٰه تتبدل أيضاً إلى تعدد ذاتية الإلٰه، أي إلى نظام تعدد الآلهة.

بناء على هذا، فإن نظام الشرك الإلٰهي هذا، هو مخلوق لنظام الشرك الاجتماعي، أي أن آلهة الأرض هي التي خلقت آلهة السماء، ولكن ـ في ذهنية الناس الدينية ـ يفهم أن آلهة السماء هي التي خلقت آلهة الأرض، أي أن العينية الإجتماعية تصنع الذهنية الدينية، ومن ثم تظهر الذهنية الدينية بمثابة خالقة للعينية الإجتماعية.

وعلى هذا المنوال، فإن تسلسل المراتب الذاتية والطبقية

في الجهاز الإِلٰهي، وفي عالم الوجود ـ التي تُوجد رؤية الشرك للكون ـ، يبرّر تسلسل المراتب الذاتية والطبقية في الجهاز الإجتماعي، وفي عالم الإنسان، تبريراً فلسفياً ومنطقياً؛ وبما أنه يتم باسم الدين، فإنه يظهر بمثابة تبرير اعتقادي أزلي وأبدي مقدس، وأنه ما وراء الإنسان وفوق الطبيعة، وتوثّق سلطة إيمانه الديني العميق، وتجعله ثابتاً متغلغلاً في أعماق اعتقاد الناس.

هكذا تبدلت الرؤية التوحيدية للكون ـ التي كانت رؤية الإنسان الهابيلية الأولىٰ للكون في نظام التوحيد الإجتماعي والأخوة البشرية ـ، بموت النظام الهابيلي وسيادة نظام «الأخوة الأعداء» القابيلي تبدلت إلى شرك ثنائي (DUALISME) أو رؤية ثنائية ذاتية للكون، أي رؤية التضاد للكون، والتي هي انعكاس عن المجتمع ذي الطبقية الثنائية، رؤية كونية ثنائية الإِلٰه، أساس ذهنية المجتمع ذي القطبين.

وبعد ذلك، وكما أن آدم (التوحيد الذاتي البشري) تبدل إلى قطبين متضادين (الحاكم ـ المحكوم)، والعالم أيضاً تبدل إلى قطبي الخير والشر: «آهورا ـ اهريمن»، فإن قابيل ـ القطب الحاكم ـ، هو الآخر تجلى أيضاً في ثلاثة أبعاد متميزة، في مسيرة تكامل الأبعاد الاجتماعية وتطورها وتعقيد الصِلات الإنسانية، ونمو النظام الطبقي. وهذه الأبعاد الثلاثة التي تتمثل في السياسة والاقتصاد والدين، والتي كانت متمركزة في السلطة

الواحدة التي كانت سائدة، أصبحت اختصاصيةً وانشعبت في ثلاث شعب لقطب واحد.

ولما أصبح النظام السائد على المجتمع ذا ثلاثة أبعاد، أصبح النظام السائد على الكون ذا ثلاثة أبعاد أيضاً.

وقابيل، الذي أخذ لنفسه على الأرض ثلاثة أوجه، الإِلٰه في السماء أيضاً صار له ثلاثة أوجه: فرعون وقارون وبلعم بن باعورا؛ هم ثلاثة وبنفس الوقت واحد وهو قابيل، كذلك الأب والإبن وروح القدس، هم ثلاثة، وبنفس الوقت هم واحد وهو الإِلٰه!.

وعلى هذا المنوال، تبدلت الرؤية التوحيدية للكون إلى رؤية تثليثية للكون (TRINITE)، حيث نرى في الهند واليونان والروم وإيران القديمة، (النار، اهورا، مزدا). وفي المسيحية واليهودية وحتى الإسلام، نرى (ثلاثة مظاهر لله) حاكمة في الأرض.

أمّا ما هو جدير بالتأمل هنا وله معنى كبير، وهو أحد الأدلة على صحة رأيي، هو أنه في الرؤية الكونية ثنائية الإِلٰه، (الثنوية)، هناك إلٰهان، ذاتان متضادتان، في حالة حرب مع بعضهما، (الخير والشر، النور والظلمة، أهورا واهريمن).

بينما نرى في الرؤية الكونية ثلاثية الإِلٰه، (التثليث)، الآلٰهة الثلاثة هي ذات واحدة في حالة تبادل مع بعضها، حيث يتجلى

أحدهما في الآخَرين، ليست ذواتاً ثلاثة منفصلة، وإنّما مظاهر ثلاثة لذات واحدة.

وهذا يدل على أن الثنوية الإلٰهية في الدين، هي نموذج للدين ذي القطبين في المجتمع، أي طبقتي الحاكم والمحكوم. بينما تثليث الآلهة، نموذج للقطب الواحد السائد في ثلاثة اجنحة، أو ثلاث صور لذات واحدة.

وبهذا الشكل، نرى في الماضي، عندما كانت رؤية الإنسان للكون دينية، كيف بدلوا النظام الطبقي للرؤية التوحيدية للكون إلى الشرك؛ وإن جميع الأديان ـ الحقة أو الباطلة ـ هي التي صنعت دين الشرك، وحتى أنها أشاعت رؤية الشرك، مع المحافظة على أصل التوحيد الكلي.

كما نرى أن الرؤية الدينية للكون، للكثير من الناس ممن يعتبرون أنفسهم من أتباع دين التوحيد، هي عين الشرك؛ شرك خفي في رداء التوحيد أكثر خطراً من الجميع. أمّا الشرك الذي صنعوه في الإسلام ـ الشرك الجديد ـ فهو أعمق وأقوى وأخفى من كل شرك.

ولكن، في القرون الحديثة، التي اشتدت فيها المواجهة مع الدين، فقد رفضت الرؤية الدينية للكون باسم العلم، وقد حلت محلها الرؤية الكونية المادية.

قديماً، كانت القوى الثلاث الحاكمة في التاريخ أكثر ما

تخدع العوام، وكانت تُحِلّ الشرك محل التوحيد، أو تلبسه لباس التوحيد، باسم «الكلام» ـ الفلسفة الدينية ـ، وبقوة «العاطفة» ـ الروح الدينية ـ.

ولكن بعد عصر النهضة، وفي أوج القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، خدعت المثقفين باسم «العلم» ـ الذي كان فلسفة اقتصادية ـ، وبقوة «العقل» ـ المنطق المادي أو الروح الغريزية ـ وأحلت المادة محل الدين، أو أنها ألبستها اللباس المعنوي، أي الإنساني. (نظرية أصالة الإنسان).

إنّ هناك عاملين خارجيين صارا سبباً لأعظم «خدعة في التاريخ»، وأنا أرى من واجبي اليوم أن أعرض هذه الخدعة العظيمة باعتبارها فرضية شخصية، حيث أصبحت موضع دهشة وإعجاب أغلب المثقفين، وهي أن «الرؤية المادية الحديثة للكون المضادة للدين» أصبحت تماماً «كالشرك»، «رؤية كونية خاصة بالطبقة الحاكمة».

أحد هذين العاملين هو «العلم»، الذي أخذ نظرة مادية، والآخر هو «الاشتراكية»، حيث تم الاستناد إلى المادية في مواجهة الدين في أوروبا القرن التاسع عشر.

إلاّ أن كلامي هو، أن النظرة العلمية، والرؤية الكونية، والنظرة الفلسفية للإنسان، وفلسفة الحياة الاشتراكية الغربية

الحديثة، كلّها قد وقعت تحت تأثير الروح السائدة على العصر ونظرته، وإن هاتين، الروح والنظرة السائدتين، هما وليدتا النمو والتكامل ومن ثم سيادة الطبقة الاجتماعية الحديثة في الغرب، والتي هي البورجوازية الحديثة.

لقد كانت القرون الوسطى ـ في أوروبا ـ أساساً للمجتمع الاقطاعي، وكان الدين بمثابة بناءه الملائم الذي يبرره.

إن صلة أوروبا الوضيعة الجامدة بدنيا الإسلام الراقية ومدنيته المتحركة، وانهيار جدران اقتصاد الاقطاع المغلق، وثقافة المذهب الكاثوليكي المغلقة، فضلاً عن توسيع التجارة مع الشرق، واكتشاف أمريكا، والذهاب إلى أفريقيا، وتكامل الملاحة البحرية، وضعف حكومة الاستبداد الروحاني ونظام التفرقة الاقطاعي تحت تأثير حرية الفكر الديني، والحكومة المركزية، ونمو المجتمع القومي العظيم، والمجتمع السياسي الواحد في عالم الإسلام، وشيوع الملاحة البحرية السريعة بدلاً من الملاحة النهرية، والتجارة الدولية، واتساع العالم السياسي والفكري في أوروبا القرون الوسطى، وازدياد النزوح إلى المدن والسوق، والاقتصاد التجاري بدلاً من الاقتصاد الزراعي البعيد، وبالتالي التمسك بالواقعية بدلاً من التمسك بالزهد الكنسي والبروتستانتي، ثم الإنبعاث والحركة الفكرية وحرية العقل من قيد الدين الرجعي، وانتشار العلوم الطبيعية

والصناعة، واتجاه العالم من الكلام المسيحي إلى الحياة المادية، والانتفاضات القومية بوجه حكومة البابا.

وفي كلمة واحدة، أن تمزق النظام الاقطاعي، ونمو البورجوازية وحكومة الطبقة الشابة التي تنشد البورجوازية بدلاً من الاقطاع، وبالتالي، مكافحة الثقافة والأخلاق الإقطاعية، أي الدين وأرستقراطية القرون الوسطى، وسيادة الثقافة والأخلاق البورجوازية، أي المادية والحرية الفردية (المادية الليبرالية السياسية، والاقتصادية، والنزعة الفردية، أو الأصالة الفردية ـ الاجتماعية ـ الأخلاقية) تزامناً مع سيادة الطبقات البورجوازية الاقتصادية والسياسية، كل ذلك أدى إلى سيادة الروح البورجوازية وفلسفتها وثقافتها، التي جعلت العلم في خدمة مصلحتها، وأضفت على الأدب والفن والأخلاق صفة بورجوازية، وبهذه الطريقة حلّت الثقافة البورجوازية ونظرتها ـ التي هي المادة واللذة الفردية ـ محل الثقافة القديمة ونظرتها التي كانت قائمة على أساس الدين والفضيلة والمجتمع؛ وحلّ «الربح» (utilite) محل «القيمة» (valeur) والعقل الحاسب (Ration) محل الشعور العرفاني (Intution)، و«حب التسلط» في كل شيء حتى في العلم، محلّ «البحث عن الحقيقة»؛ وأصل «الحياة من أجل. . .» محل «. . . من أجل الحياة»، و«الراحة» محل «الكمال»، و«اللذة» محل «الفضيلة»، و«الجنسية» محل «الجنة

الموعودة»، و«المعاش» محل «المعاد»، و«تسخير قوى الطبيعة» محل «كشف فلسفة الوجود». والأصول الثلاثة الدائمة «الحقيقة، الجمال، والخير» التي كانت تعطي معنىً للإنسان، أو ـ على الأقل ـ كان الإنسان يبحث عن ذلك المعنى، هذه الثلاثة رحلت وحلّت محلها أُصول ثلاثة جديدة ـ حيث كان الإنسان الجديد يفسّر في الثقافة التجارية البورجوازية بـ«الواقعية، السلطة، والاستهلاك» ـ طغت على الحياة والروح والعقل والفلسفة الوجودية وفرد المجتمع الجديد، وعاد نظر الإنسان من السماء إلى التراب، ومن القلب، إلى البطن وتحت البطن، ومن أهداف الحياة إلى رفاه الحياة، ومن كشف معنى الوجود إلى معرفة الآلات وتأمين ظروف الوجود، وبالتالي طرد وإنكار جميع المشاعر، والقيم، والأسرار، والحاجات، والطموحات، والغيبيات، وحب الفضيلة والأهداف. . . التي كانت تعرج بالإنسان دائماً من سطح «وجوده الطبيعي الغريزي» الوضيع إلى سدرة المنتهى الذي كل ما فيها يطير به، وتناغيه دائماً وتدعوه ليهرب من إطار تقديره الترابي، واجتياز الأبعاد المحدودة التي فرضها عليه تكوينه الأرضي، وكانت تسعى لتنميته وتربيته إلى حد يكون أكبر وأعظم مما هو فيه بحيث يضيق عليه لباسه الذي خاطته الوراثة على قامته، وبدلاً من ذلك إيجاد نوع جديد من الإنسان الذي تكون واقعيته محدودة في حدود دنياً

تهب له السلطة واللذة، ولا تدفعه إلى أن ينبض قلبه بالإيثار والعبادة، فكرة أيّ بحث، وحبّ أي وصال، وخشية أي مُعَمّىً، والقلق لأي أمل وانتظار.

إن الروح السائدة على الثقافة والمدنية الحديثة روح بورجوازية، روح النقود الأربعة والمهمة السوقية: الكسب، ومدنية التسلط، وآلات الصناعة، وثقافة التجارة، وبالتالي سلوكية الاستهلاك، وأخلاق البحث عن اللذة، وبالنتيجة ماذا يكون أدبه وفنه؟ الدعاية، والتفاهة، والمظاهر البراقة، والصخب!.

إن كل ما مزجه الجميع معاً هو أن البورجوازية الحديثة قامت بـ«جناية راقية» في طردها للثقافة القديمة،أي ثقافة تم طردها؟ إنها ثقافة القرون الوسطى الدينية، والتي كانت بمثابة «معنوية وضيعة»، وهذا يعني أن أرقى المواريث الإنسانية في أخس قوالب القرون الوسطى، وبيد الروحانين المتحجرين سخرت لخدمة الإقطاع.

والبورجوازية الحديثة بأزالتها الثقافة وأخلاق القرون الوسطى، واماتتها لروح الإنسان القديمة، قدّمت أعظم خدمة لنمو العقل وحريته ونشاطه.

لقد أوجدت علماً ومدنية، بنبذها للاقطاع والروحانية المرتبطة به جانباً، إلاّ أنه ماتت هنا أعزّ وأغلى قيم الإنسان،

والثقافة والأخلاق المعنوية للنوع الإنساني، ودفنت تحت أنقاض القرون الوسطى.

ونحن، الإنسان ما بعد عصر النهضة، قمنا دائماً ـ وبحق ـ بالثناء على عصر النهضة الراقية، والبورجوازية الرائدة في الحرية، والشعارات المثيرة: الليبرالية، الديمقراطية، التقدم، نبذ الخرافة والزهد والاستبداد الديني؛ ولم نكن نتنبه ـ أبداً ـ لخيانة هذا الخادم الكبير، ولم ندرك أن الإنسان في هذا الإنطلاق والإنقلاب قد فقد أبعاد فطرته الأساسية والتي هي حب الهدف، حب الكمال، والقيم والمعاني الروحية التي كانت سرّ وجوده.

وإن هذا الموجود الأعجب من الطبيعة، الذي كان الدين يسميه خليفة الله في العالم، والذي ألقى على عاتقه مسؤولية الطبيعة الإلٰهية، الذي كان يدعوه إلى كسب شخصية تمثل الله، انقلب هذا الموجود إلى «أقوى حيوان» للطبيعة، لأن البورجوازي ـ من ناحية الأخلاق الطبقية ـ إنسان نقودي (مالي)، أي أن ماهية النقود والمال حلّت في فطرته الإنسانية كالجن، محلّ ماهيته الإنسانية، ومن ناحية الدين، فهو مؤمن متعصب (طالب للاستهلاك)، لا لأنه لا يرى الطبيعة عالماً مليئاً بالحقيقة والسر والجمال والغيب فحسب، بل لأنه لا يعرف الإنسان ـ أيضاً ـ باعتباره (عالماً صغيراً) ذا قابليات إلٰهية،

وإمكانيات ميتافيزيقية، وجمال، وصلاح وقيم، وأسرار، ومعميات وأفضليات أعلى من الكائنات. وأن الطبيعة والإنسان بالنسبة له عبارة عن مصدرين من مصادر الإنتاج، وهو يضحي بجميع القيم والقابليات والإمكانيات والحقائق الكامنة في هذين المصدرين ببساطة، أو يستخدمهما في طريق كسب السلطة وكسب الاستهلاك، ثم لا شيء!.

وأنا أعجب من أن ـ الناس ـ حتى المثقفين الاشتراكيين المعتقدين بفلسفة التاريخ العلمية، والصلة الديالكتيكية بين العينية والذهنية، بين الاقتصاد والثقافة، والأساس الطبقي والبناء الفكري، لماذا يعدون ـ كالمفكرين الذهنيين والمحققين المجردين للتأمل والتفكير ـ موضوع الهروب من الدين ونمو الفكر المادي في العصور الحديثة كشفاً للعلوم ونمواً للفلسفة، وكأنهم اعتقدوا بأن العلوم والفلسفة والثقافة ـ المجردة من التطورات الاقتصادية والإجتماعية، وتغيير النظام، وأساس المجتمع المادي ـ قد تطورت وتكاملت!.

في حين أننا إذا أردنا أن نحلل التطور الفكري للعصور الحديثة تحليلاً طبقياً بالطريقة الديالكتيكية التاريخية، وعلى أساس مادي وعلى ضوء علم الاجتماع الطبقي، وحسب الملاك الاقتصادي والانتاجي للمجتمع، أي بطريقة التحقيق العلمي الماركسي، فإننا نصل إلى نتيجة تتنكر للاستنتاج الماركسي

التقليدي، أي نحكم ـ مضطرين ـ بأن ضعف الشعور الديني، وتزلزل القيم الأخلاقية المعنوية، وطرد الرؤية الدينية للكون، وبصورة عامة، ابتعاد إنسان العصر عن قاعد «البحث عن السمو الفلسفي ـ الأخلاقي» وتقوية الذكاء العقلي، يؤدي إلى استحكام الأخلاق الاقتصادية، وسيادة الرؤية المادية للكون. وبصورة عامة، فإن اقتراب إنسان العصر من قاعدة «النظرة الفلسفية إلى الدنيا والجنسية الأخلاقية»، نتيجة طبيعية للسلوك الطبقي، والسيرة الاجتماعية والنفسية الخاصة بالطبقة البورجوازية.

إن الرجل الإشتراكي العلمي، الذي يزن علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وعلم النفس الطبقي بالموازين العلمية والعينية، يعلم أن العلم ـ أيضاً ـ إذا ترك البحث عن الحقيقة، والبحث الميتافيزيقي، وكشف غاية الوجود، وفهم معنى الإنسان، ودرك أهداف الحياة الحقة ومخاوفها الوجودية في العصور الحديثة؛ وإذا كان «بيكون» يعلن «السلطة» شعاراً للعلم الحديث بدلاً من «الحقيقة»؛ وإذا كانت التحقيقات العلمية تقصر أبحاثها في كشف «الظواهر» و«الصلة بين الظواهر»، وتسخيرها لخدمة السلطة والاستهلاك المادي؛ وإذا كانت الفلسفة الحديثة تغض النظر عن جميع الأحلام والأهداف وأسئلة الإنسان الدائمية التي تنبع من فطرته؛ وإذا أنكروا هذين الإثنين: الشعور العرفاني والقيم الأخلاقية، ليسقطوا الإنسان من برج «مثال اللهالمحلّق»،

و«الوجود الرمزي الذي يفوق الطبيعة» إلى حضيض خسّة «مثال الحيوان المحب للسلطة والاستهلاك»؛ وبدلاً من أن يكتشفوا نمو وعي الإنسان الفلسفي وتكامله العقلي، وقيمه السامية، ينكرون هذه القيم بصورة تامة. كل هذا، هو الروح البورجوازية ومنطقها، الذي يتحدث بلسان العلم، وينظر بعين الفلسفة.

إن المادية الاقتصادية تسيطر على الإنسان في العصور الحديثة، وتمهد للفلسفية المادية لكي تسود على رؤيته للكون، ففي الجانب العيني يكون المجتمع مادياً، ويقوم نظام الحياة على الإنتاج والاستهلاك المادي المطلق، أما من الناحية الذهنية، فإن العلم والفلسفة يصوران العالم بمثابة مادة، ويستخلصان وجود آدم والعالم في الطبيعة على أنه محسوس مادي.

هكذا يكون العالم المادي خليفة الرؤية الدينية للكون، وفي هذه الرؤية الكونية أيضاً تكون الطبقة سائدة، والروح والنظرة والثقافة سائدة، والنظام العيني سائد، حيث كانت بالأمس تبدل الرؤية التوحيدية للكون بالرؤية الشركية للكون، بمساعدة الروحانية (رجال الكهنوت) المتحكمة بالناس، واليوم تؤتى بالرؤية المادية للكون خليفة للروح والنظر، وهاهي الثقافة السائدة والنظام العيني الحاكم يفرض المادية على البشرية من أجل تبرير نفسه.

في العصور القديمة، كانت الطبقة الحاكمة وبمساعدة

الروحانية (الكهنوت) المرتبطة بالسلطة الحاكمة، تنكر الرؤية التوحيدية للكون من أجل تبرير النظام الطبقي في المجتمع ذي القطبين، من أجل تبرير الطبقة ذات الأبعاد الثلاثة الحاكمة في مجتمع التضاد والتمييز الطبقي والعنصري، لتحل محلها الرؤية الشركية للكون في صورة تثنية الآلهة وتثليثها، بل وأكثر من ذلك[١]، لتضفي على النظام الأرضي قدسية إلٰهية، وتبدي له تقديراً أزلياً أبدياً.

وفي العصور الحديثة أيضاً، توجد الطبقة الحاكمة، من أجل تبرير كل من سيادة السلطة والاستهلاك، وانحطاط الروح الإنسانية، وتفاهة الحياة المادية الاقتصادية السائدة التي لا معنى لها ولا هدف، وتبديل الإنسان بحيوان استهلاكي، وتمكينه في الدور الباطل: «الانتاج للاستهلاك والاستهلاك للانتاج»، ومسخ ماهية بني آدم من إنسان مسؤول عن العالم، إلى آلة للمجتمع، وحلقة لسلسلة العمل الجبرية في النظام الميكانيكي الفولاذي والبيروقراطي، وديكتاتورية التكنيك، واستبداد الانتاج، وسقوط الإنسان من الكائن الحرّ الوحيد في العالم، إلى رق يكد ويكدح ويخضع ويعبد ليباع في نظام الرقيّة الحديثة. . .، ومن أجل أظهار الأزلية والأبدية للحياة الغريزية

---

(١) تبرير للنظام متعدد الحكومات والأقوام، مثل الهند، الصين، اليونان. . . .

التافهة الوضيعة البليدة، وللنظام والمدنية والسلطة والصناعة والثقافة والأخلاق البورجوازية، التي حررت العلم والفلسفة من قيد الدين واسقطته في شرك المال وكدح الحانوت، فهي تتنكر لجميع الأهداف والأماني الدينية السامية والأخلاق، وتحل الرؤية المادية للكون ـ بمساعدة الطبقة المثقفة المرتبطة بالسلطة البورجوازية الحاكمة ـ محل الرؤية الدينية للكون.

ولذا نقول: على طول التاريخ، ومنذ ذلك اليوم الذي بقي فيه قابيل ـ القاتل المعتدي المكّار قاتل أخيه ـ مالكاً، وأصبح هابيل الموحّد المسالم المحب لأخيه، شهيداً لنظام الملكية الخادع المعتدي الجشع، كانت الطبقة الحاكمة ـ التي بيدها، أيضاً، السلطة والاقتصاد والثقافة والأيديولوجية والدين ـ تسعى باسم الدين أو الفلسفة أو العلم، في عصر حاكمية الروحانيين (الكهنوت) الفكرية المرتبطة، أو المثقفين المرتبطين، دائماً، من أجل التقديس الإلٰهي والتبرير الديني أو العلمي «للوضع القائم»، وإظهار النظام السائد بالمظهر الأزلي الأبدي والطبيعي والإلٰهي؛ ومن أجل إيجاد إيمان علمي أو ديني، ورؤية كونية علمية أو دينية ملائمة للثقافة الموجودة، والأخلاق والسلوك والقيم والأُسس القائمة، كذلك تسعى لوضع أُسس فكرية واعتقادية خاصة بالبناء الإجتماعي والاقتصادي والسياسي السائد.

كانت الطبقة الحاكمة تسعى لتصنع في الدين رؤية شركية للكون

ومن العلم رؤية مادية للكون، أو متعددة الآلهة أو فاقدة للإله.

والغريب أن هؤلاء الاثنين لهما دور مشترك واحد، وهو تسليم الناس في مقابل النظام الحاكم على المجتمع، باسم النظام الملائم للنظام السائد على العالم.

كذلك، مقاومة «الرؤية التوحيدية للكون»، التي هي الرؤية الكونية الوحيدة التي تقاوم الشرك وتدعو البشرية إلى التوحيد الطبقي والإنساني ومقاومة المادية، لتنقذ الطبيعة من إنحطاط المعنى الوجودي، ولتخبر الإنسانية بعظمة رسالتها الإلهية باعتبارها الموجود الوحيد في العالم الذي يمثل الله في الطبع والخلق، ولتعطيه مكانته إلى جانب الله في مقابل جميع الكائنات في عالم ليس بالعابث ولا الأعمى ولا المتقاعس، ليتحمل مسؤوليته أمام الطبيعة، ومسؤولية تقرير مصيره ومصير بني نوعه.

وهكذا، تنفي الرؤية التوحيدية للكون التضاد في المجتمع والعنصر البشري، وما بين الطبيعة وما وراء الطبيعة والإنسان.

وبما أنها تنفي آلهة دين الشرك، وتهب الطبيعة والإنسان معنىً ووعياً وهدفاً، فهي بذلك تنفي تفاهة العالم وعبثه، وخسّة الإنسان ورِقِّيَته العمياء للطبيعة، كذلك تنفي الإِلحاد المادي.

وعلى هذا المنوال، إن أردنا أن نتكلم بلغة القرآن، فالتوحيد يهب للإنسان «الحكمة» و«الميزان». والسلام.

٣ ـ استخراج المصادر الثقافية وتهذيبها



أيها الحضّار المحترمون، أيتها السيدات، أيها السادة، أصدقائي الطلاب.

إن موضوع حديثي الليلة هو استخراج المصادر الثقافية وتهذيبها، وذلك بمناسبة أن أكثركم يسكن في مدينة رسالتها الأساسية وعملها الأساسي، هو استخراج الموارد المادية وتصفيتها.

فكما أن الشعب أو المجتمع، له معادن ومصادر إقتصادية، وأن هذه المصادر والمعادن مليئة بالطاقة، وببقائها مواد خام فلا قيمة لها، وأن الشعب غير اللائق يبقى جائعاً رغم امتلاكه لهذه الثورات الاقتصادية والطاقات العظيمة، حيث يبقى محروماً من جميع هذه الطاقات الفياضة التي بإمكانها أن تخلق منه شعباً مرفهاً، كذلك فإن نفس هذا الشعب، له معادن ومصادر ثقافية ومعنوية أيضاً، والتي تكدست فوق بعضها على طول التاريخ.

وهذا الجيل، الذي فقد لياقته وجدارته، يبقى ـ على رغم

مصادر الثقافة، والمعارف والمعنويات العظيمة هذه ـ محروماً من كل هذا، جاهلاً، راكداً، غير واع وغير مستفيد منه، . ونحن نعرف شعوباً كبيرة في آسيا وأفريقيا، لها مصادر ثقافية غنية وفياضة جداً، إلاّ أن جيلها الحاضر يتهم بالوحشية، بالتخلف، بالجهل وبالفقر المعنوي والأخلاقي.

بناء على هذا، فهناك شَبَهٌ بين المصادر الثقافية والمصادر المادية للشعب، وهذا الشبه بصورة بحيث أن الجيل الحاضر الذي يمتلك هذه المصادر الثقافية والمصادر الإقتصادية، إذا لم يكن جديراً باستخراج هذه المصادر وتنقيتها فإنه سيبقى محروماً من هذه الثروة المعنوية، أو الثروة المادية، ويبقى جائعاً، محتاجاً، جاهلاً وفقيراً.

وكما أن هذا الجيل، عليه أن يسعى للتخلص من الفقر الاقتصادي إلى الرفاه، ومن الركود إلى الحركة والانتاج والتوليد الاقتصادي، فالشعب أيضاً مطالب بالبحث عن جدارته في معرفة استخراج هذه المعادن المعنوية العظيمة والتصرف بها، وذلك بدافع تغيير وضعه الثقافي أو المعنوي الوضيع المنحط، ومن ثم، وعبر استخدام هذه الطاقات المعنوية الراكدة، التي هي الآن في حال الجمود والركود، يتمكن من تبديلها إلى قوة وطاقة للانتاج والتصنيع وللحركة المعنوية والأخلاقية والإجتماعية.

بناء على هذا، فمن الواضح أن الشعب يتمكن من استخدام مصادره المادية وله الجدارة الفنية والعلمية في ذلك، إلاّ أنه يمكن أن يبقى جائعاً مع كل ما يملك من هذه المعادن والمصادر.

وإن شعباً ما، بإمكانه ـ أيضاً ـ أن يبدل حالة الركود والتخلف، وانحطاطه المعنوي والفكري، إلى حالة التصنيع والإبداع المعنوي والأخلاقي والاجتماعي، بحيث يتمكن عبر جدارته، أيّ وعيه الثقافي، ووعيه التاريخي، من تبديل موارده الثقافية، التي هي في حالة الركود، وانحطاطه المعنوي والفكري، إلى حالة التصنيع والإبداع المعنوي والفكري والاجتماعي.

وفيما لو وجدت هذه الجدارة، فكما أن شعباً متخلّفاً، باستخدامه لهذه المصادر بإمكانه أن يتحوّل إلى شعب متطور يرفل في الرفاه الاقتصادي والتمتع المادي؛ كذلك من الناحية المعنوية، أيضاً، يتمكن شعب ما، باستخراجه لمعادنه المعنوية العظيمة، من أن يتحوّل إلى مجتمع عصري، مجتمع أصيل، وبنفس الوقت خلاّق وبنّاء، ليس أن يكون نسخة من مجتمع راق آخر، بل يكون نفسه ذا تجربة مستقلة، وذا أُصول وقواعد وفضائل أصيلة، وذا رسالة جديرة في حركة البشرية العامة نحو أهدافها.

في السنوات الأخيرة، أضحى الجيل المثقف في آسيا وأفريقيا، على اتصال مباشر بمدارس أوروبا الفلسفية والثقافية والمعنوية، حيث كان في العصور السابقة، في القرن التاسع عشر ـ مثلاً ـ كان الطالب الآسيوي يذهب إلى أوروبا، ومن ثم بعد عودته من هناك كان يجتر بذكرياته، ويتقبّل الآخرون كل ما يقوله، كانت الشعوب في آسيا تتصل بأوروبا بهذه الواسطة، هكذا يتصلون بالثقافة والمعنوية.

أما اليوم ـ وأثر الصلات العامة وارتفاع المستوى الثقافي والاطلاعات المختلفة التي أصبحت أكثر من ذي قبل، فإن آسيا وأفريقيا باتت تعرف أوروبا عن قرب، ومن هنا وفجأة وبدون ستار، انتبهت الشعوب ـ طبعاً ليس كل الشعوب، ليس كل مجتمعات أفريقيا وآسيا والشرق، بل جماعة من الواعين لأنفسهم والمطلعين على الثقافة الأوروبية ومعنويتها وأحاديث القرنين التاسع عشر والعشرين الأوروبيية، انتبهوا إلى هذا الموضوع ـ إلى أنه كيف أصبح المثقفون الشرقيون مع ما لديهم من الثقافة العظيمة الفياضة بالمعنوية، بالفكر، والفلسفة، وعلم الحياة وحيوية الفكر والروح، أصبحوا أفواه فاغرة تتلقف اللقم الثقافية التي ترميها أوروبا أمامهم.

وإن كل ما يفخر به هؤلاء، هو استيعابهم لجميع الألفاظ والاصطلاحات والأفكار من المفكر الأوروبي الفلاني، ومن

المدرسة الأوروبية الفلانية، في القرن التاسع عشر أو في القرن العشرين أو الثامن عشر، ومن ثم يأتون بها هدايا لشعوبهم.

ولو أردنا أن نتعرف على ما جاء به هؤلاء المثقفون، وسائط النقل هذه التي عُرّفت باسم المثقفين، وأي مدرسة يرددون، وأي نموذج وأي فكرة سيعرضونها باعتبارها هدية، فإننا سنرى أن المحتوى الواقعي لهذه الرسالة وهذه الهدية، هو عدد من الأحاديث التي لا تمت لنا بصلة، لا تمت لمصيرنا ولا لآلامنا وأتعابنا بصلة.

إن عذاب الشرق من الجوع، وتعب الغرب من الشبع، والكلام الذي يردده شخص يكاد ينفجر من الشبع، تافه ولا معنى له بالنسبة للذي يكاد أن يموت من الجوع، كلمات غريبة عن المحيط، لا فائدة لها، وتافهة بالمعنى الواقعي للكلمة.

أي أنها كلمات لها قيمتها ونافعة وصحيحة وبنّاءة في محيطها، إلاّ أنه عندما تنتقل إلى مكان آخر، وننقلها إلى مجتمع آخر، ذي ماض آخر، وحالة أخرى، يكون لا معنى لها ولا ثمرة ترجى منها، إنها تنفع فقط الأفراد الذين يجترونها.

إن عدداً من هذه الأحاديث هي مواضيع بشرية عامة، واكتشافات حديثة قام بها علماء أوروبا واذكياؤها الكبار، وإننا نرى أن للشرق في الكثير من هذه التخصصات، تجارب واسعة جداً.

إنني مع قلة خبرتي، نتيجة لحساسيتي الشديدة بالنسبة إلى مدارس (الوجودية) المختلفة والمتنوعة في القرن التاسع عشر إلى العشرين وبصورة عامة، فإن (الوجودية) بشكلها الفلسفي والروحي كليهما، والفني أيضاً، أراها وأعتبرها أسمى مراتب الوعي البشري في أوروبا الصناعية والغرب المادي، ولهذا السبب لي فيها دراسات كثيرة وقد طالعت أغلب مؤلفات هؤلاء الكبار.

إلاّ أنه ـ ويا للأسف ـ إننا نرى أن الآسيويين والأفريقيين، أي المثقفين، أي الذين لم يستفيدوا أبداً من ذخائرهم التاريخية والمعنوية بل اكتفوا بتعلم لغة أوروبية واحدة فقط، ومن ثم اطلعوا على المدارس الوجودية في أوروبا أو أمريكا بصورة سطحية غالباً، يعود أغلبهم بها إلى الشرق باعتبارها ظاهرة حديثة لا يعرفها العالم، ولم يطلع عليها الشرق أبداً.

وعندما ننظر إليها نرى، أن ما يوجد باسم (الوجودية) في أوروبا قرن التاسع عشر، عصر «كي يبركه غارد»، وحتى أوروبا قرن العشرين، عصر «سارتر» أو «سبرس»، هو عبارة عن نوع من الوعي الإنساني، المعنوي والفلسفي، لأوروبا، مقابل ضغط الأنظمة المادية، والحياة الإستهلاكية البليدة المتحجرة التي تسود الغرب، وهو ـ حتى هنا ـ حسن جداً، ولكنه قياساً بتجربة الشرق المعنوية فإنه يعتبر دروساً ابتدائية تصلح للصبيان.

إن القلق، هو من أعمق أُسس روح المذهب الوجودي في القرن الأخير، قلق بشري، قلق ناتج عن المسؤولية، ناتج عن عدم كشف الجهة والطريق، قلق ناتج عن غربة الإنسان في هذا العالم المادي، هذه هي أهم الأسس التي تقوم عليها مواضيع المذهب الوجودي في أوروبا.

نرى أنها مواضيع كحروف الأبجدية التي عرضت في العرفان الشرقي، في دين «لائوتسو»، في دين «بوذا»، وفي العرفان الإسلامي، والذي له فيها تجارب غنية جداً.

ثم نرى، أن القضية تصل إلى حد بحيث أن المثقف الإيراني ـ مثلاً ـ عندما ذهب إلى أوروبا، فإنه لم يكن يعرف أي شيء؛ لا يعرف عن الإسلام شيئاً سوى ما قالته له أمّه أو اخته الكبيرة مثلاً، ولا يعرف عن تاريخه شيئاً سوى ما جاء في الكتب الدراسية التي قرأها في المدرسة الثانوية، والتي تعلمون ماهي، لم يعرف شيئاً عن تصوفه وعرفانه، سوى الموهومات التي يعرضونها على الناس باسم التصوف الإسلامي والعرفان الإسلامي، لم يعرف عن تاريخه سوى قصص الإقطاعيين والتجار، لم يعرف عن قوميته سوى عدد من التفاخرات العنصرية التي لا قيمة لها ولا أساس، ومزاعم تتعلق بعصر لم نعرف أي شيء عنه وأين وجد، ومن ثم يذهب وبهذه المعلومات، التي هي لا شيء، أي يذهب صفر اليدين من

المعلومات إلى أوروبا، ويدرس هناك الدروس العالية، النصوص الأدبية والفلسفية والفنية العالية.

وعندما يعود، نرى أن المواضيع التي تشبه (الأبجدية) التي يقرؤنها في ثانوياتنا وكتاتيبنا، هذه المصطلحات التي كان الأطفال يتعلمونها، أو التي يتعلمها طلاب العلوم الدينية في سنينهم الأولى في المدارس القديمة، وبصورة عامة، كل من له إحاطة بالمعارف الإيرانية القديمة، وبالمعارف الإسلامية، يعرف أن هذه المباحث تشكل مباحثهم الإبتدائية في السنوات الأولى. ولما كان هذا المثقف لم يعلم، ولم يدر أصلاً أن مصطلح «شوازر» الذي يقوله «سارتر» في أوروبا مثلاً، هو نفسه مصطلح «الجبر والإختيار» الذي نقوله نحن، ولم يعرف أصلاً ما هو اصطلاح الجبر والاختيار، لم يعرف أصلاً أن الجبر والاختيار بحث موجود دائماً بين شعبنا، إنه جبر أو اختيار، علماً أن الكتب الفلسفية والروحية والعرفانية والحكمية والدينية، التي تحدثت عن الجبر والاختيار لا حدّ لها في الثقافة الإسلامية، والكل يعلم أيضاً هذا، أهو جبر أو اختيار، إلاّ أن هذا المثقف لا يعرف أصلاً ما هو، ثم يذهب ويرى أن سارتر يقول «شوازر»، وشوازر يعني الإنتخاب، أعظم فضيلة للإنسان، ولم يعلم أن هذا ليس بانتخاب، بل هو اختيار.

فالاختيار يعني الانتخاب، وفي اصطلاحنا الفلسفي

الانتخاب هو الاختيار، وهو بحث له سابقة ألف عام في إيران؛ الكل يعرف ذلك إلاّ أنت أيها المثقف ما كنت تدري، ويخيل إليك أنك أدخلت اصطلاحاً جديداً أو فكرة جديدة إلى بلد شرقي، البلد الشرقي الذي يعد هذه المواضيع قديمة ومن أوليات مراحله الفلسفية ومراحله الثقافية.

قلق الإنسان ووحدته، مفاهيم تشكل المواضيع البدائية والأولية للعرفانية الشرقية. ولم تكن هذه الهدايا مواضيع جديدة.

إني أرى دائماً، أن كثيراً من الأفكار التي يحملها المثقفون لنا كهدايا من أوروبا، تشبه مصير كلمة الماس التي نتداولها على ألسنتنا.

وكلمة الالماس هذه في اللغة الفارسية، كانت ـ أولاً ـ على هيئة «ماس»، ثم انتقلت إلى اللغة العربية، فأضافوا لها ألفاً ولاماً فصارت «الماس»، ثم بقيت مدة هناك، في السنوات التي أصاب فيها لغتنا الفارسية الجمود، حيث كان جميع المثقفين والكتّاب يكتبون باللغة العربية.

بعد مدة عادت إيران تكتب اللغة الفارسية، وبدون أن يتذكروا أن هذا (الماس) ألفه ولامه للعرب، وماس وحده لذاته، جاءوا بكلمة «الماس» وأدخلوها إلى اللغة الفارسية، وظلت تتناقل بهذا الشكل في اللغة الفارسية وفي الثقافة

الفارسية، ثم أخذ العرب هذه الكلمة من إيران مرة ثانية، ونسوا أن هذه الألف واللام لهم فأضافوا لها ألفاً ولاماً، وهم الآن يقولون: «الالماس!».

إن جميع هذه الأفكار الفلسفية والمواضيع العلمية، يكون بحثها على حدة، وأن للمواضيع العلمية مسيرتها التكاملية الدقيقة. ولا شك أن العلم في القرن العشرين أكثر تقدماً من القرن التاسع عشر، وفي القرن التاسع عشر أفضل مما كان في القرن الثامن عشر. ولا شك أن أوروبا تتفوق على الشرق في المواضيع العلمية؛ ولكن المواضيع الفكرية، والمواضيع الأخلاقية، والمواضيع المعنوية، لا يمكن تقييمها بصورة تصاعدية مع مسيرة الزمان.

فمثلاً، نرى أن جدال «ولتر» و«روسو» في القرن الثامن عشر، حيث أن أحدهما ينتصر لرسالة المجتمع والمدنية وإعمار المدن، والآخر يعادي التمدن والمدينة ويقول: أن السكن في المدن يذهب بفضيلة الإنسان، ويمسخ النوع الإنساني، وعليه يجب الرجوع إلى الإنفرادية، والروح، والطبيعة، والتمسك بها.

نرى أن هذا الجدال، هذه الحرب بين «ولتر» و«روسو»، حرب عظيمة، مليئة بالفكر، مليئة بالمعنى والعمق، كانت قد حدثت أيضاً قبل ستمائة وألفي عام من الآن، أي في القرنين

السادس والسابع قبل الميلاد، في الصين، بين «لائوتسو» و«كونفوشيوس». أما أنا، أو فلان المثقف الصيني، أو الهندي أو الإيراني، لا يعرف من هو «لائوتسو»؛ لا يعرف ماذا يقول «كونفوشيوس»؛ بل يعتبرهما نبيين مرتبطين بالسحرة الحاليين.

يوجد اليوم في الصين واليابان أناس يتّبعون كونفوشيوس، يقومون بأعمال سحرية؛ أو أنهم يتّبعون لائوتسو، وهم مشغولون باحضار الروح والجن وأمثال ذلك.

ومثقف الشرق اليوم، عندما يأتي حديث كونفوشيوس ولائوتسو، يخيل إليه أن هذين هما مؤسسا طريقة احضار الجن وعلم الرمل والاسطرلاب، والتفاؤل بالحمص والشعوذة، وامثال هذه الكلمات.

بناء على هذا، وفي رأى هؤلاء، يجب ألاّ يطرح حديث كونفوشيوس ولائوتسو اليوم، لأنه سخرية، وتمسك بالقديم، الرجوع إلى عهد لائوتسو وكونفوشيوس نوع من الرجعية، والحديث عنهم بمثابة الوهم.

إلاَّ أن هذا المثقف، يأتي ليعرض ـ مفتخراً ـ الحرب بين «ولتر» و«روسو»، للشرقيين، باعتبارها حديثاً جديداً؛ باعتبارها أسمىٰ اكتشاف فكري وفلسفي في عالم اليوم؛ باعتبارها أعلى قمة فكرية لإنسان اليوم، والتي يشكل ولتر أحد طرفيها وروسو

الطرف الآخر، ولم يدر أنه هو، أحد اصداء هذه الحرب العميقة بين كونفوشيوس ولاتوتسو، لأنه لم يعرف نفسه من هو.

هكذا نرى، أن هناك تشابهاً بين مصير الشرق الاقتصادي ومصير الشرق المعنوي، تشابهاً دقيقاً جداً.

وكما قلت، أن الشعب الذي لا يتمكن ـ من الناحية الفنية ـ من استثمار مصادره المادية فإنه يبيت جائعاً، وإن كان يمتلك المصادر المادية، كذلك الشعب الذي لا يتمكن من معرفة مصادره الثقافية والمعنوية، وطريقة استخراجها، وتنقيتها وتبديلها إلى طاقة بنّاءة، يبقى جاهلاً متخلفاً رغم تربعه على أكداس من المصادر الثقافية والمعنوية!.

مثل هذا التشابه موجود أيضاً بين دور المصادر الثقافية والمصادر المادية في مصير المجتمع: المجتمع الذي لا يتمكن من استخراج مصادره المادية، نرى أن المجتمعات الأخرى، التي لها هذه الجدارة، هي التي تستفيد من هذه المصادر؛ ثم أن نفس هذا السيد، نفس هذا الشعب، صاحب المصادر المادية هذه، نراه يتطفل على مائدة الأجنبي المادية.

وله مثل هذا المصير ـ أيضاً ـ من الناحية الثقافية، نرى أن الأوروبي الواعي الذي يعرف الشرق أحسن منا نحن الشرقيين يستخدم مصادرنا الثقافية والمعنوية ويشكّل منها مدارس ويبتدع منها أفكاراً جديدة.

وعندما لم نكن جديرين بمعرفة مصادرنا المعنوية واستخدامها بصورة واعية، نكون متطفلين على موائدهم الفكرية التي يضعوها أمامنا نحن الشرقيين.

وبالطبع فإن ذهنية المثقف الشرقي لم تنتبه إلى أن المواد الخام لهذه اللقم هي في الواقع ترجع إليه، ولأنه لم يمتلك اللياقة والجدارة لاستخراج واستثمار مصادره الثقافية، فقد أصبح الآن متهماً ـ من الناحية الثقافية ـ بالتخلّف، متهماً بالوحشية، وبالجهل، والفقر المعنوي والأخلاقي والمادي.

بناء على هذا، فكما أن الشرق يسعى لأن يكتشف مواده الخام ومصادره المادية وأن يتعلّم فن استخراجها، وأن يكتسب جدارة استخراجها وتصفيتها وتحويلها إلى طاقة ومادة استهلاكية؛ كذلك يجب عليه، ومن أجل أن يتمكن من الخروج من مأزق التخلّف والفقر أيضاً، يجب عليه أن يقوم بنفس العمل في القضايا الثقافية، حيث أنه باستخراجه لمصادره الثقافية وتنقيتها، يصل إلى رفاه معنوي وإبداع، يصل إلى انبعاث معنوي وفكري.

وكما أنه من الناحية الاقتصادية، يسعى لأن يكون مستغنياً عن البضائع الإستهلاكية الأوروبية، والصناعات الأوروبية، يسعىٰ لأن يحصل على استقلاله الاقتصادي؛ فمن الناحية المعنوية والثقافية عليه أيضاً أن يسعى ليستغني، بهذا الوعي،

عن الانتاج المعنوي الغربي، وأن يكون مستغنياً عن البضائع الاستهلاكية، الفكرية والروحية الغربية، للوصول إلى الإستقلال الأخلاقي والمعنوي.

ومن غير الممكن أن يصل مجتمع ما إلى الإستقلال الاقتصادي بدون الاستقلال المعنوي، كما أنه من غير الممكن أن يصل شعب ما إلى الاستقلال المعنوي بدون الاستقلال الاقتصادي، هذان الإثنان أحدهما يكمل الآخر، وكل منهما موكول بالآخر. عليَّ أن أكون من ناحية الفكر والوعي ذا شخصية مستقلة أمام الغرب لأحصل على هذه الشخصية أيضاً في الحياة المادية والاجتماعية والاقتصادية. كما أن عكسها هو الصحيح أيضاً.

والآن، ما العمل؟ وكيف؟ وعلى أي صورة؟ واضح جداً. علينا أن نعلم أن أعظم معلّم للشعب للحصول على استقلاله وشخصيته، هو العدو الذي أخذ منه استقلاله وشخصيته القومية.

بناء على هذا، فإن وعينا ومعرفتنا بالكيفية التي حرمنا فيها الغرب من مصادرنا الثقافية والمعنوية، وجعل منا ـ نحن الشرقيين ـ جيلاً فاقداً للياقة والجدارة للاستفادة من هذه الأكداس الفياضة والثروة العظيمة، من المعنوية والفكر والأخلاق والتأمل والروح، والثقافة ـ بمعناها الأعم ـ، وأصبحنا غرباء عن هذه المصادر.

إن وعينا للطرق التي سلكها، والأساليب التي استخدمها، والفنون والحيل التي استعملها للوصول إلى هذا النجاح، بل الوصول إلى حد أصبح فيه، الشرق العظيم الفياض بالمعنوية والثقافة ومنابع الثقافة الأولى في العالم ومهد الحضارة والثقافة البشرية، أصبح اليوم متهماً في العالم بالوحشية والتخلف والانحطاط.

إننا نرى هنا، أن الغرب قد حصل على نجاح عظيم في الوصول إلى أهدافه! من أين حصل على هذا النجاح؟ علينا أن نبحث ونرى من أي طريق حصل الغرب على نجاحه هذا، فعلينا أن نسلكها نفسها ونرجع إليها.

إن أول ما نأسف له هو أننا لا نعرف الأشخاص المتألمين مثلنا، المحتاجين مثلنا، الذين هم بيئة وتاريخ وحالات تشابهنا، وأن الحلول التي يتخذونها لمجتمعاتهم يمكن أن تكون مفيدة لنا ومعبرة، إننا لا نعرف هؤلاء المفكرين، إننا نعرف المفكرين الذين، وإن كانت أفكارهم صحيحة، وإن كانت مدارسهم ذات عمق، وحلولهم مركزة، لكنها لا تجدينا نفعاً.

علينا أن نعرف المفكرين الأفريقيين والأسيويين العظماء في العصر الحاضر، الذين وصلوا بوعيهم القومي والشرقي والعالمي إلى حلول جديدة، إننا لا نعرف حتى أسمائهم، ثم بعدها نوقف جميع مساعينا، بولع وشوق، من أجل عرض

ومعرفة أمثال «برشت» و«بيكت» وغيرهم، ممن لا علاقة لهم بوضعنا أبداً، ولو كان الأفضل والمثقف والمتطور منهم مثل «برشت».

أنا لو كنت المانيّاً لكنت مطيعاً لبرشت، ولكن لما كنت إيرانيّاً، لم أفهم لغته، ولم أدر بماذا يفيدني، وأنه له ألم آخر، وقد كتب وصفة لذلك الألم، وأنا عندي ألم آخر أصلاً، هو مصاب بألم الأعصاب، وأنا مصاب بألم في البطن، ووصفة دوائه لا تنفعني أصلاً.

بأي شيء تنفعني؟ هو قد شاهد حربين عالميتين، شاهد العصور الميكانيكية خلال ثلاثة قرون؛ وأنا، لم أشاهد حرباً عالمية بتلك الصورة، ولا أعرف ما هي الميكانيكية أصلاً، ولا البورجوازية، بناء على هذا، فإن فلسفته لا تنفعني.

إن قلقي من أجل حطب الشتاء، قلقي من أجل الحصول على عمل الغد، من أجل تربية ولدي، هذا هو قلقي. أما قلقه هو، البحث عن عملي في هذا الوجود، هو قد وصل إلى هنا، إلى المرحلة التي اطمأن فكره من كل شيء، وأخذ يفكر بوجوده، ونحن لازلنا بدون لباس وفحم، ولكنه يفكر بنفسه. بناء على هذا، فهو له آلام، ولي أخرى.

يجب علينا ـ باعتبارنا كتّاباً ومفكرين ـ التوجه إلى أشخاص يماثلوننا في آلامنا، يماثلوننا في تأريخنا ووضعنا ومصيرنا

وماضينا، ليتنا كنا نعرف «كاتب ياسين»، بدلاً من «برشت»، أو كنا نعرف «عمر مولود» أو «عمر اوزغان»، بدلاً من «جون بول سارتر»، ونعرف «ايماسزار» و«فرانتز فانون»، بدلاً من «آلبير كامو»، لنعرف أنفسنا عن هذه الطريق.

هؤلاء المثقفون الغربيون، هم أشخاص بقدر ما نعرفهم نبتعد عن أنفسنا.

والذين يشوبون ـ بصورة صادقة ومخلصة ـ أذهان المثقفين بالمواضيع الثقافية والفلسفية والاجتماعية والإنسانية للغرب بعد الحرب العالمية الثانية ويثيرون الحساسيات الذهنية، الكثيرة في المثقف الشرقي بالنسبة للمواضيع المطروحة في أوروبا، وللمدارس الراقية جداً المطروحة في الغرب، والتي ليس لها أهمية في الشرق؛ هؤلاء، وبهذه الطريقة يبعدون الشرقيين والمثقفين الشرقيين عن رسالتهم العينية والواقعية، يبعدونهم عن الواقع القائم أمامهم، وبالتالي تتبدل خدماتهم وإخلاصهم وثقافتهم إلى عامل انحطاط وغفلة.

ماذا عمل الغرب ليكون الشرق غريباً عن مصادره المعنوية وغير لائق لها، كما هو حاله بالنسبة لمصادره المادية؟ ماذا عمل؟ واضح تماماً.

يقول (عمر مولود)، وهو أحد كبار مفكري أفريقيا: إذا أردت أن تستخدم شخصاً وتجعله مطيعاً، وتطمئن من وفائه

لك، عليك أن تسلب منه شخصيته، لأنه إذا كانت له شخصية، لا يمكن أن يكون خادماً جيداً، ومن أجل إحكام التسلط على قوم ما، يجب أن تسلبهم شعورهم بالإنسانية، أو إضعاف هذا الشعور في الأقل، فالشخص ذو الشخصية خادم رديء؛ ولكن فاقد الشخصية خادم جيد ومطيع ووفي، وسلس الإنقياد.

وما دام الشرقي يشعر بأنه ذو شخصية إنسانية مستقلة أصيلة ولائقة، فمن غير الممكن أن يهز ذيله إلى هذا الحد ويشعر بالسرور، ويفاخر جميع الدنيا إلى هذا الحد، في مقابل اللقم المادية والمعنوية التي يرميها الغرب أمامه، من غير الممكن أصلاً.

يقول أحد الأشخاص: كنت ذاهباً إلى المحكمة، وكنت أعرف أحد القضاة، كان صديقاً لي، كان هذا القاضي خلوقاً محترماً عالي الهمة وصلباً جداً، ذهبت إليه وجلست عنده، وأردت أن أسأل أحواله، فجاؤوا إلى غرفته بأحد المتهمين، وكان هذا المتهم سيداً محترماً، رزيناً جداً، كان يتنقل ويرفع قبعته بوقار تام، كان من الواضح أنه شخص له مكانته، ثم عندما استأذن ليجلس، ولقوة شخصية هذا الرجل المحترمة مع أنه كان متهماً، قمنا له نصف قيام دون اختيار؛ أي بدون أن يكون لنا الاختيار حرّضنا على رد الفعل هذا. ولكن القاضي، الذي كان رجلاً مؤدباً خلوقاً، بدأ فجأة بإهانة هذا الرجل بصورة

عجيبة غريبة: قم، تكسَّح، اخرج، خبيث، جاء ليجلس أمامي، أي حق لك في الجلوس؟ تعال وقف هنا، هذا الرجل المحترم بمجرد أن أراد الجلوس جمد على هذه الحالة، ثم اجبره أن يأتي ويقف أمام طاولته، ثم أخذ يقذفه بمختلف تعابير الإهانة وكلمات التأنيب التي لم يحتملها تصوري، وبمجرد أن نطق الرجل: سيدي. قال له: الموت لك، سيدي! وبمجرد أن قال الرجل: أرجو أن تسمع ما أقول، أجابه القاضي: أنت لست بإنسان أصلاً حتى يكون لك قول، أنت هيكل مليء بالرجس، وعائلتك مثلك، أنا تحققت عنك وعن أبيك وأجدادك، كلكم أرجاس، وخلاصة القول، بدأ بإهانته وإهانة شخصيته وأجداده والجميع، وزجره بأن يخرج، ثم رمى به خارج الغرفة بالتحقير والإهانة.

وعندما جاء القاضي وجلس تعجبت، وقلت: يا سيدي، أنت رجل مؤدب ومحترم وكنت لين الجانب، إن إنساناً ضعيفاً مهما كان ذنبه عليك أن تتحقق منه، أي أُسلوب كان منك مع هذا المتهم؟

قال ـ إن قول القاضي هذا يعكس لنا رابطة الغرب والشرق طول القرون الثلاثة الأخيرة ـ قال القاضي: يا سيدي، لديَّ ملفاً كله يدور حول هذا الرجل، ولو اعترف هذا الرجل فسوف تتضح لي جميع القضايا، ولكنه لا يعترف، لأنه شخصية مهمة

في محلّته، الكل ينادونه سيدنا أيها الحاج، رجل محترم يطمئنون إليه، ويعلمون بأنه لا يعترف أبداً، لأن الاعتراف صدمة لشخصيته، ولذا فهو غير مستعد للاعتراف لا يقول شيئاً حفظاً لشخصيته، وكلما ضغطت عليه، وحتى لو مزقته تحت السياط، لا يقول شيئاً أبداً، يجب سلب شخصيته التي تمنعه من الإعتراف.

بناء على هذا، ما دام هذا الرجل يقول: أنا شخص محترم، وذو كرامة في منطقتي ومحلّتي، وعائلتي كذا وكذا، والناس لا يتوقعون الإعتراف مني، ويطمئنون إليّ، وأنا موضع أسرارهم جميعاً؛ فإن كل ما تعمل معه لا يجدي نفعاً، تأخذ منه مائة ألف تومان، لا يقول شيئاً، تجلده مائة جلدة، لا يقول شيئاً! لماذا؟ لأن شخصيته هي التي تمنعه من القول.

إن هذه الشخصية الإنسانية والاجتماعية، التي يشعر بها لنفسه ولعائلته، هي التي تمنعه من الإعتراف، ويجب سلبها منه. يجب أن أشعره بفقدان هذه الشخصية، وعندها سيعرف بأنه لا شيء، سوف يأتي بنفسه ويقع على أقدامي ليقول: يا سيدي خذني خارج هذا المكان، وكل ما أردت مني أُؤديه، وكل ما تقول أفعل؛ لأنه حينئذ لا يملك شيئاً يخاف عليه من الطعن، لا يملك شيئاً يواجهه، لذلك فهو يظهر مثل هذا السلوك الإجتماعي، أو هذا التصميم، أو مثل ردود الفعل هذه.

«سوردل»، أحد الكتّاب الأفريقيين الكبار، ومن هؤلاء المفكرين المثقفين الكبار في أفريقيا، الذين تجب معرفتهم بدلاً من «جون بول سارتر»، يقول: هناك تضاد وديالكتيك وتناقض موجود بين رابطة إنسانين، بين رابطة مجتمعين بشريين، بين رابطة الشرق والغرب، كيف؟ يقول: إن هذا الديالكتيك الموجود بين الأم والولد، هو أن الأم تحقّر ولدها، تضربه، تنفيه، وتطرده؛ والولد من أجل أن يبقى في أمان من طرد الأم ونفيها وضربها له، من أجل أن لا يقع موضع تحقير أمّه وضربها ونفيها مرة أخرى، يقوم بهذا العمل، وهو أنه يلوذ بأمّه، يلتصق بحجرها، والأم لا تطرده بعد ذلك، لا تنفيه، لماذا؟ لأنه بعد هذا ليس بذلك الطفل الفضولي في مقابل أُمّه، وهو الآن ملتصق بأمّة، جزء منها، لاذ بها، وقد نفى الإبن شخصيته الأولى تلك.

الشخصية الأولى هي: أنا طفلك، لا أسمع بعد الآن كلامك، أنا غير مؤدب، فضولي، شيطان، لا أهتم بكلامك. كانت هذه الشخصية مورد هجوم الأمّ؛ كانت تهينه، تضربه، وهو من أجل ألاّ يكون موضع هجوم أمّه وإهانتها يلوذ بها، من أجل أن يكون في أمان من هذا الوضع غير المتناسق.

نرى أن رابطة الديالكتيك هي: الطفل صار موضع تحقير الأم، وبنفس الوقت من أجل أن يرد على التحقير يلجأ ويلوذ بالأم نفسها.

فرابطة انسانين، مجتمعين، الشرق والغرب، هكذا أيضاً، هذا هو ديالكتيك «سوردل». العنصر الأفضل في مقابل العنصر الأحقر؛ عنصران شرقي وغربي، الأبيض والأسود، الغربي بفلسفته، من «نيتشه» إلى «هيجل»، إلى جميع هؤلاء العلماء الكبار، من «كونت دوجوبنيو» إلى العنصر الأوروبي، حتى «سيغموند فرويد»، حتى أناس مثل «زيغفريد»، هؤلاء جاءوا وعرضوا العنصر الأفضل في مقابل العنصر الأحقر، العنصر الغربي والعنصر الشرقي، الأبيض والأسود.

«ارنست رنان»، أعظم علماء علم الإنسان المعنوي والأخلاقي في العالم، يسمّي هذه الخرافات ويقول: العنصر البشري الأفضل هو عنصر الشمال، عنصر الغرب، بأي دليل؟ له ألف دليل ودليل علمي وفلسفي وفيزيائي.

أنا شاهدت هذه الفاجعة بعيني، في جامعة كجامعة «السوربون» في باريس، وفي القرن العشرين، يقوم السيد الدكتور في الطب فيكتب رسالة الدكتوراه حول القياس بين خلايا دماغ كل من الأسود والأبيض، ويجلس عدد من الأساتذة الكبار العالميين المشهورين ويمنحون هذا السيد شهادة الدكتوراه لأنه أثبت أن خلايا دماغ الأسود أحقر وأكثر انحطاطاً من خلايا دماغ الأبيض.

يأتي هذا السيد الدكتور ويقول: أن خلايا دماغ الأسود يقل

فيها ذلك الغشاء الحنطاوي الرمادي اللون، وخلايا دماغ الأبيض يكثر فيها، وأن انحناء ذَنَب خلية دماغ الأسود قليل، وانحناء ذَنَب خلية دماغ الأبيض كبير، قلت: ذلك لم يكن ذَنَبْ خلية دماغك، بل ذَنَبُك أنت!

هكذا يضفون على مثل هذه الفاجعة الجاهلية البليدة التي كانت موجودة لدى الأعراب الجاهليين صفة علمية وفيزيائية ونفسية وفلسفية.

السيد هيجل بهذه العظمة ـ الذي يقولون عنه أنه أعظم نبوغ للبشرية، ولا يمكن أن يقال أن هذا الإدعاء تافه ـ يقول: إن الإِلٰه لم يكن وعياً، ثم دخل في الطبيعة، ثم نما ودخل في النبات، وبعد النبات نما ودخل في الحيوان، تلك الروح المطلقة الواعية، ثم دخل في الإنسان، ثم دخل الإنسان الشرقي، ثم تكامل من الإنسان الشرقي ودخل في الإنسان الغربي، ثم تكامل من الإنسان الغربي ودخل في الإنسان الجرماني، ثم تكامل من الإنسان الجرماني ودخل في بلد الألمان، ثم تكامل من بلد الألمان ودخل في هذه الحكومة التي تحكمنا الآن، انظر إلى أيّ مكان يجرّ الموضوع!.

اليوم، في المدارس الإبتدائية الأوروبية، يسمّون الحرب بين اليونان وإيران ـ في الوقت الذي كانت إيران تضم أعظم حضارة قديمة ـ بالحرب بين اليونان والبربر، والفرنسيّون أو

الإيطاليون عندما يقولون: بربر، لا يعلمون ـ أصلاً ـ أن البربر تعني الإيرانيين؛ أصلاً هم لا يعلمون بأن الإيرانيين كانوا متمدنين آن ذاك، ويخيل إليهم أن اليونانيين لو كانوا مندحرين أمام الوحشيين، يعني الإيرانيين، ـ إيرانيي عصر عظمتهم وتمدنهم ـ ذلك يعني أن الحضارة البشرية كانت قد اندحرت إلى الأبد، ولحسن الحظ لما كان البربر مندحرين واليونانيون منتصرين، لأنهم غربيون، إذاً فالحضارة المدنية قد نجت وانتصرت.

إنهم، ومنذ الصف الثاني والثالث الإبتدائي، يقرأون في آذانهم أن الغربي أفضل من الشرقي؛ لا تنظروا إلى الظاهر الأدبي، ولا أدري، إلى المظهر الإجتماعي؛ إن هذا التعصب للغرب، والعنصرية، وأفضليتهم علينا، موجود حتى عند مفكري وعلماء الجامعات في النظريات الفيزيائية، والكيمياوية، والتاريخية وفلسفة التاريخ، وعلم العناصر، وعلم الإنسان، وعلم النفس، وعلم الأعصاب، وعلم الخلايا، وعلم الاجتماع.

السيد «زيغفريد» نفسه يقول: إن الله أو الطبيعة، قد خلق عنصرين، عنصر الآمر الذي عليه أن يصدر الأوامر ويدير الأمور؛ والعنصر العامل.

حسناً، أيهما أشد لزوماً، العنصر الآمر أو العامل؟ وهذا

واضح، فالعنصر العامل أشد لزوماً، ويلزم لكل ألف عامل آمران أو ثلاثة.

إذاً فالله خلق عنصراً أوروبياً باسم العنصر الآمر، وخلق عنصراً شرقياً باسم العنصر العامل، ولهذا السبب يضاف لكل مائة شرقي خمسة أشخاص في السنة، ولكل مائة أوروبي نصف شخص أو شخص واحد، ولهذا السبب أيضاً أن تكثير النسل في الشرق أكثر منه في الغرب، هذا أيضاً دليله! أيّ نحن العنصر العامل، و«زيغفريد» السيد الآمر.

السيد «زيغفريد» هذا، الذي هو اليوم استاذ جامعة، عالم اجتماعي معروف، وعضو الأكاديمية الفرنسية، وشخصية عالمية كبيرة، وهو غير متهم بالعنصرية، يقول في كتابه «لام دبوبل»(١): نفس الشخص الفرنسي هذا، المتوسط العادي العامل، ذو العينين الزرقاوين والشعر الأشقر، الذي تراه على الرصيف ولا تعيره أي أهمية، نفس هذا الشخص يتمكن من إدارة جهاز إداري عظيم وتأسيسات عظيمة في الشرق، ببساطة، بينما إذا ذهبت إلى الشرق ترى الشخصيات العظيمة المفكرة تعجز عن إدارة جهاز ذي ستة عمال، لماذا؟ لأن الدماغ الغربي دماغ إداري مدني، والدماغ الشرقي دماغ عاطفي وشعري وعرفاني.

---

(١) Lame des Perples: روح الشعوب، ترجمة السيد أحمد آرام إلى الفارسية «روح ملتها».

يقول هذا السيد: إن الشخص الأوروبي يتمكن أن يعمل بماكنة واحدة لمدة ثلاثين أو أربعين سنة، ولكن الشرقي يعيبها في الستة أشهر الأولى، ويظل يعمل بها معيبة خمسة وعشرين سنة أخرى.

وأنا أقول: أيها السيد الأوروبي، هذا صحيح، ولكن لا لكون أنه شرقي، بل لكون أن الشرقي غير مطلع على الماكنة، لكون أن الشرقي أصبح منحطاً، وإلاّ هناك عصر كان فيه نفس هذا الدماغ الإيراني، رجل من طوس باسم خواجه نظام الملك، كان يدير امبراطورية عظيمة حدها الشرقي الهند وحدها الغربي البحر الأبيض المتوسط؛ الأمبراطورية السلجوقية كان يديرها نظام الملك لوحده، في ذلك العصر الذي عليك أن تجتاز بعشرين شعباً وعنصراً ومذهباً أن تذهب من هذه الجهة إلى تلك، يدير هذه الأمبراطورية العظيمة بهذه الدقة والقدرة، هذا دماغ شرقي لا دماغ غربي، لما كان الآن لا يتمكن من الإدارة ليس بسبب الدماغ الشرقي، بل لأن دماغه أصبح منحطاً، وحتى أنه لم يعرف نفسه، أنت جعلته منحطاً، ولا يعلم هو بذلك.

هؤلاء الهنود أنفسهم، المتهمون بأنهم لا ينفعون إلاّ للعرفان والأخلاق والرياضة النفسية، هم الذين أبدعوا الأعداد الأولى لأول مرة، والأعداد الموجودة الآن في الدنيا أصلها

هندي، الشعب الهندي والدماغ الهندي هو الذي أبدع العدد.

القوانين التي أبدعها «ابن الهيثم» في إنكسار الضوء، القوانين التي لا زالت مقبولة في الفيزياء الحديثة، المعادلات الدقيقة التي قام بها إبن الهيثم أو «اخوان موسى» أو «أولاد موسى»، أو الجبر والمقابلة للخيام، أو علم الجبر نفسه، هذه كلها إبداعات الدماغ الشرقي.

من الذي يقول أن الشرق محل للعرفان والأخلاق والفكر، ومحل التعقل والمنطق، وليس محلاً للبناء والتصنيع والإقتصاد؟

إن طرح المواضيع الفلسفية، المواضيع العلمية، المواضيع الإجتماعية والتاريخية بهذا الشكل، هو من أجل أن يتمكن الأوروبي، في الوقت الذي يعطي لنفسه الأفضلية والأصالة والقدرة والاطمئنان، يتمكن من أن ينسب إلى الشرقي نوعاً من العنصرية الوضيعة، التحقير، الضعف وعدم الإيمان أيضاً.

لماذا؟ من أجل أن يشعر الشرقي، المتهم بالعنصرية الوضيعة ـ في ديالكتيك «سوردل» بين التضادين العنصريين ـ، المتهم بتاريخ وضيع، بدين منحط، بماض مخجل لا حيثية له، أنه شعب غير لائق، يشعر في نفسه دائماً بهذه الخسة والوضاعة، ومن أجل أن ينقذ نفسه من هذا التحامل والتحقير يتشبه بالغرب، بالعنصر الأفضل.

وعندما يشبّه نفسه بالعنصر الأفضل، يكون قد تخلص من تحامل العنصر الأفضل الذي يقول: أنت أسود أنت شرقي، أنت ـ لا أدري ـ عرفاني، أنت ديني، أنت منحط، ليس لك دماغ أونبوغ.

لماذا؟ لأنه أصبح في غير زيّه، ولم يقف في موضعه، بناء على هذا فهو لم يكن بعد متهماً، تماماً كالطفل الذي يقع موضع التحامل من جانب أمّه، والآن يرجع ويلوذ بحجر أُمّه.

إن مثال الأم الذي طرحناه في صلة الاستعمار والمستعمِر، أقول ـ من الناحية الثقافية ـ لم يكن مثالاً، وإنّما هو واقع.

الـ«متروبول»، الذي هو بلد المستعمر، هو تلك الأم. هناك أمّ لأفريقيا وآسيا وهي: هولندا، بريطانيا، فرنسا، بلجيكا، أوروبا، هؤلاء «متروبول». أي عندما يحقروننا وينسبوننا إلى عنصر حقير وشعب حقير وثقافة أكثر حقارة، ونحن ـ أيضاً ـ نصدّق أننا متهمون بالخسّة والحقارة، فإن كل شخص منا يريد أن ينقذ نفسه لإبعاد التحقير، كيف ينقذ نفسه؟ بالتقليد والتشبه، بالتظاهر، وليس بذاته هو، وعندما يكون هكذا فإنه سينال رضى الأم، وعمله صحيح!.

كيف يكون العمل صحيحاً؟ عندما يكون الإنسان يفكر من وحي ذاته، يشعر بتاريخه بنفسه دون إيحاء من الآخرين؛ عندما

يكون له وعي بجميع خصوصياته الثقافية والقومية، عندما يلبس لباسه، عندما يستهلك كما يريد، عندما تكون له علاقات اجتماعية كما يرى، عندما يفكر بنفسه، هو يبدع، وهو يستهلك، وهو يعمل، هذا الإنسان هو عين ذاته.

ومن ثم فإن هذه «الهوية» أصبحت مورد التحامل، مورد التحقير؛ و«هو» لما أصبح مورد التحقير، يخرج عن هويته، ويتبدل بـ«ذاك».

كيف يتبدل بـ«ذاك»؟ يريد أن يفكر مثله، يعمل مثله، يشعر مثله، يكون له وعي مثله، ويستهلك مثله.

كل هذه الأقوال هي من أجل هذا الإستهلاك، كل هذه الأقوال من أجل أن يخرج الشرقي من هويته ويستهلك كالغرب، غربي رأسمالي أحرق «سوقاً صغيرة» من أجل منديل واحد.

منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عندما انتجت الماكنات الأوروبية إنتاجاً كثيراً، وحرّض «جبر الماكنة» أوروبا على أن تقوم بأنتاج بضائع عالمية، ولما كانت تنتج أكثر من سوقها الداخلية، اضطرت أن تبيع هذه البضائع لأفريقيا، لآسيا، لأمريكا اللاتيينية واستراليا، وكل مكان.

ولكن هذه البضائع قد صنعت على أساس ذوق الأوروبي واحتياجه، كيف يمكن أن تباع على الأفريقي؟ هذه بضاعة

تزويق وتجميل ومن غير الممكن أن تباع على المرأة الأفريقية التي تهيىء أدوات تجميلها بنفسها، تأخذها من شجرتها ومن مزرعتها؛ وهذه الألبسة أوروبية، وهي لا تلبس الألبسة الأوروبية، لأن للون ألبستها وفصالها وجنسها شكل آخر، هذه ألبسة إفرنجية، الرجال لا يلبسون ألبسة إفرنجية، يلبسون لباساً آخر، لهذا أقول أنها تجربة عظيمة.

عندما حدثت الزلزلة في مدينة «مشهد»، كنا قد شكّلنا لجنة وهناك من أجل إغاثة الزلزلة، بعض السيدات كن يأتين ـ متأثرات بالعواطف ـ ويرمين بملاحفهن وثيابهنّ التي كانت خياطة الثوب لوحده تكلّف ثلاثمائة تومان، ولا يهمنا الآن ما قيمة المتر من القماش؛ كنّ يرمين هذه الثياب على بقية الألبسة، ويقلن: خذوها إلى النسوة الفقيرات، وأية نسوة، نسوة العمال البائسين اللواتي لا يمتلكن الألبسة، يلبسن قطعة من الكرباس[١]. كان من بين الألبسة عدد من الملاحف والثياب التي ربما لا يوجد مثلها في مشهد سوى سبعة أو ثمانية، هذه الألبسة كانت جديرة لأن تعرض في المعارض الزجاجية، فأخذناها وأعطيناها إلى المنكوبين، وعندما رجع رفقاؤنا، رأيت أنهن أرجعنها كلّها، حتى أنهم تلاقفوا الأكياس المصنوعة من الخيش وتنازعوا عليها، ولكن الملاحف والثياب رجعت،

---

(١) الكرباس، قماش ينسج محلّياً في إيران خشن الملمس. المترجم.

لم يأخذها أي شخص نظروا إليها نظرة تعجب، لم يعرفوا ـ أصلاً ـ ما هي، أهي للشم؟ ستائر للجدار؟ قالوا يا سيد لا نريدها أعطنا هذه الأكياس!.

والآن ما العمل لحمل النسوة على شراء هذه الثياب، ماذا يجب أن نعمل معهن؟ يجب تغيير الاستهلاك، وهل يمكن تغيير الاستهلاك ببساطة؟ بأي شيء يتعلق الاستهلاك؟ مرتبط بأي شيء؟ الاستهلاك له صلة بذوقي أنا، له صلة بالشائع لدى مجتمعي، ذوقي والشائع لدى مجتمعي بأي شيء له صلة؟ له صلة بشخصيتي القومية، بديني، بتاريخي، بثقافتي، بذوقي الاجتماعي، بذوقي الفني، بمعرفتي للجمال، إذاً يجب إبادة جميع هذه الأمور، ليتحول هذا السيد، هذه السيدة، إلى مجسّمة نلبسها كل ما نصنعه، ونتمكن من أن نضع في حلقومها كل ما أعددنا، وهي لا تقول: أحب أو لا أحب، أصلاً ليس بمهم أن تحبي أو لا تحبي! عليك أن تحبي كل ما نحب، هل أنت إنسانة حتى تقولي أنا أحب أو لا أحب، يعجبني أو لا يعجبني، هذا قبيح وذاك جميل أنت فارغة من نفسك، أنتِ لم تكوني أنتِ، أصلاً عليك ألاّ تنطقي بكلمة «أنا»، وكما نرى فنحن لا نستعملها.

إن اختلافنا الدائم مع بعضنا هو أن أحدنا يقول: أولئك يعملون هكذا، والآخر يقول: لا، أولئك لا يعملون هكذا،

وعندما يتباحث إيرانيان أو شرقيان لا يقولان: أنا أحب هذا، والآخر يقول: لا، أنا أحب ذلك، وإنّما اختلافهم ينصب على تمييز الذوق الأوروبي، اختلافهم الوحيد حول هذا التمييز، وصاحب الكلام الصحيح هو الذي يثبت أن الأوروبي يلبس اللباس الكذائي، ويتخذ ربطة العنق الكذائية، أما الآخر فهو لا يقول: أنا لا أحب ربطة العنق هذه مع هذا اللباس، بل يقول: لا، إن الأوروبيين لا يلبسون ربطة العنق هذه مع هذا اللباس، وهذا يقول: إني بنفسي شاهدتهم يضعون مثل هذه، والآخر ينفي ذلك، يختلفون فيما بينهم، وبعد ذلك عندما ذهبا وسألا يقولان: حسناً نحن أيضاً نلبس هكذا، إنه لا يعنينا!.

لقد كنت أفكر، قبل هذا في يوم الأربعاء الذي تجري فيه القرعة، لماذا اختاروا يوم الأربعاء لأجراء القرعة؟ لأن يوم الأربعاء لا محل له في ثقافتنا، في اساطيرنا، في يومياتنا. أول الأسبوع السبت، وآخر أُسبوعنا الجمعة، أخر ليلة أسبوعنا الخميس، لست أدري ماذا يعني يوم الأربعاء، وبعد ذلك عندما ذهبت إلى فرنسا رأيت ـ نعم ـ أن الإقتراع يجري هناك يوم الأربعاء، وأنا لا أجرؤ على الاقتراع يوم الخميس، هل أن الأمر فوضى!.

لا زلنا لم نمتلك القدرة على انتخاب مشروباتنا من المرطبات، أيّ ذوق له الحق في أن يقول: أن لا أرغب في هذا

النوع من . . . الكوكا كولا ، ما أنت وهذا حتى لا ترغب، هل يحق لك أن تقول: لا أرغب في . . الكوكا كولا ، وأرغب في شنين اللبن؟ أما تخجل من هذا القول؟ حتى ولو كنت قد شربت الشنين ألف سنة، منذ يوم الثلاثاء السابع عشر من فلان، يجب عليك أن تشرب الكوكا كولا ، وكلنا نشرب أيضاً .

هكذا نرى أن ذوقنا في الشرق لم يتغير باختيارنا ، ليس نحن الذين ننتخب ثيابنا ، ولا نحن الذين نختار الديكور لبيوتنا .

المجمع السكني الذي شيد بثلاثة ملايين تومان، بأربعة ملايين تومان، لا يرضى صاحبه أن يفرش غرفه بالسجاد، بل يفرشها (بالموكيت) وأمثال ذلك، لأنهم في الخارج لا يفرشونها بالسجاد، وإن كان أجداد هذا السيد قد عاشوا ألف سنة على السجاد، لأنه لا قدرة له ـ أصلاً ـ على الاختيار والتمييز، يقول: يجب أن تفرش هذه البناية الحديثة بالموكيت لا بالسجاد الإيراني! .

إلى هذا الحد نحن قد فقدنا الاختيار، فقدنا الإنسانية، لأن الإنسان يعني موجوداً ذا اختيار؛ الإنسان موجود مفكر، ذو وعي، يتخذ قراراته على أساس اختياره، يعمل وينتخب؛ إلاّ أنهم الآن قد أخذوا منه هذا الاختيار، فقد شجاعة الاختيار هذه.

كنت أتباحث كثيراً مع أحد الأشخاص، والنظرية التي كنت

أتباحث بشأنها كانت من استنتاجاتي الخاصة بي؛ كان قبح هذه النظرية هو أن الأوروبيين لم يقولوا مثلها حتى الآن، كنت كل ما أتي له بدليل من الفلسفة، بدليل من التاريخ، من الآداب، من الدين، من أي شيء كان، وهو لم يتمكن أن يجيب مقابل أدلتي، كنت أرى أنه يخاف أن يقول: بلى، ولو كنت أقول له بدلاً من هذه الأدلة: إن المسيو الفلاني في أوروبا، أو حتى أن الأسود الأفريقي، قال مثل هذا لكان عندئذ يقبل ويوافقني الرأي، ويتظاهر بفهم ذلك بصورة مباشرة، ويبث له الدعاية، ويشاجر ويصيح؛ ولكنه عندما يرى أن كلامي ليس له سند إفرنجي لا يجرؤ حتى على فهمه وقبوله، لا يمتلك جرأة فهمه، وعندما شاع في أوروبا الرجوع إلى التقاليد المحلية، نرى أن هذا المثقف المتنور الذي لم يكن يقبل بأي شيء، يعود به الحال لأن يرغب أن يخضّب أصابعه بالحناء!.

كان لي صديق في سويسرا، ذهبت إليه فرأيته قد علّق على جدار غرفته زوجاً من «الگيوه»[1]! قلت له: ما هذا؟ هل هذا هو الرجوع إلى الذات؟ إن الرجوع إلى الذات الذي تتصوره لم يكن بهذه الصورة، إن كنت قد رجعت إلى ذاتك، أي إلى إيرانيتك حقاً، فالإيراني لا يتعلّق حذاءه على الجدار، بل يضعه وراء

---

(١) الگيوه: نوع حذاء محلي يعمل في إيران من الخرق والخيوط القطنية التي تنسج عليها، يلبسه الريفيون. المترجم.

عتبة الباب ليلبسه عند خروجه، إن أنت لبسته وأتيت به إلى شارع «جنيف» حينئذ أصدقك بأنك إيراني.

علق زوجاً من «الگيوه» في هذا الجانب، وزوجاً من الجانب الآخر، وصورة «بتهوفن» بينهما! لماذا؟ لماذا لجأ إلى «الگيوه»، وعلم بأن لها قيمة فنية؟ لأن السياح جاءوا واشتروا «الگيوه» من كرمان، هذا هو السبب.

إن الشخصية الثقافية عبارة عن مجموعة من الخصال الإنسانية التي تتحقق على طول التاريخ في إنسان مجتمع ما، وإنسان مرحلة تاريخية ما، هذا هو معنى الشخصية.

إذاً لم أكن أنا باعتباري فرداً لي هذه الخصال الفكرية والأخلاقية والروحية والاجتماعية، التي اكتسبتها خلال عمري الذي يتراوح بين الأربعين والخمسين والستين سنة؛ بل باعتباري فرداً إنسانياً، باعتباري وعاءً صب فيه ما صيغ طوال التاريخ، من مواضيع إنسانية وأخلاقية وفكرية وعقلية واجتماعية وأدبية ودينية، خلال الثلاثين أو الأربعين سنة من العمر.

إذاً كل شخص هو مظهر تاريخه، كل إنسان مرآة كاملة لانعكاس ثقافته وتاريخه، ما الثقافة؟ الثقافة هي مجموعة من الذخائر المعنوية والفكرية والتاريخية لشعب من الشعوب، كالمصادر الإقتصادية تماماً.

كيف كانت المصادر الإقتصادية؟ الحيوانات أو النباتات قد

ضغطت في تخوم الأرض، تحت ضغط الطبقات طيلة القرون، وعلى أثر الأحوال الجوية، وعوامل ضغط طبقات الأرض تتحول هذه الكائنات إلى مادة حيوية ومادة اقتصادية.

الثقافة أيضاً، طيلة التاريخ، وبمرور الأجيال المتعاقبة في تاريخ شعب من الشعوب، تكدست، وتكدست، وصنعت الرأسمال المعنوي لمجتمع ما.

بناء على هذا، لو أخذنا الأصالة على أي معنى كان، فهي للتاريخ؛ ولم يكن الإنسان ليُخلَقَ من الصفر في عصر ما بصورة فجائية.

إن ما يملكه الإنسان اليوم، مجموعة مكدسة من الذخائر التي صيغت طيلة القرون الماضية، إن كنت أفكر هكذا، أتكلّم هكذا، أشعر هكذا، فهو لأني ولدت وترعرعت في نهاية القرن الرابع عشر الهجري؛ ولو كنت مولوداً ومترعرعاً في بداية هذا القرن لكنت بصورة أخرى، ولو كنت مولوداً قبل عشرين قرناً لكنت أفكر بشكل آخر، وأشعر بشكل آخر، فبما أنّي موجود في هذه المرحلة من التاريخ، ولدت وترعرعت، إذاً فأنا صاحب جميع رؤوس أموال تاريخي الماضي.

بناء على هذا، فشخصية جيل ما، هي التي تجري فيها الحوادث المعنوية والفكرية والإنسانية والجمالية والفنية

والعرفانية والعقلية لطيلة تاريخ أجيالها، والتي يتغذى جيلها الحاضر من ذخائرها التاريخية دائماً، وبقدر ما يتمكن من التغذية من ذخائره الماضية، يتمكن من التغذية من صنائع عصره أيضاً.

نأتي بالشجرة كمثال، أية شجرة تتمكن من الانتفاع بالآزوت والشمس وحرارة الجو، بصورة أكثر؟ من المعلوم أنها الشجرة التي امتدت جذورها في أعماق أرضها بصورة أكثر، والتي تتمكن من جذب أكثر للمواد الغذائية المخزونة والتغذية منها.

فالإنسان الذي يتغذى من تاريخه، له شخصية تتمكن من الإختيار في جيله، وتتمكن من صنع المستقبل أيضاً، لأنه من غير الممكن للإنسان الذي يفتقر إلى الماضي، أن يكون له مستقبلاً زاهراً، من غير الممكن أصلاً، فالذي لا يمتلك ماض يبدأ من الصفر، والذي لا يعرف ثقافته فهو إنسان بدوي.

خذوا إنساناً أوروبياً في أرقى مجتمعات أوروبا المتحضّرة وأفصلوه عن تاريخه بمجرد ولادته، ربّوه في محيط ثقافي وتاريخي غريب عن محيطه، عندئذ سينشأ كرجل الأسكيمو، ينشأ على صورة نصف إنسان ونصف حيوان، ويكبر على هذا النحو، لماذا؟ لأنه انقطع عن تاريخه، ولم يعرف من هو، وعليه أن يبدأ من الصفر.

بناء على هذا، فإن علم الاجتماع الاستعماري في أوروبا، عرف تماماً أنه ومن أجل أن يفقد الشرق شخصيته، ـ ليمكن نهبه بسهولة، ليمكن السيطرة عليه بسهولة، ليمكن خدعه بسهولة ـ، وجب فصله عن تاريخه ليفقد شخصيته، ويلهث بنفسه وراء الغرب مفتخراً ومضحياً من أجل ذلك، ويكون بنفسه مستهلكاً للغرب بحالة جنونية وعطش تام، حيث لم تعد هناك حاجة إلى الإلحاح والخدعة والضغط الإفرنجي، لأن هذه الأمور غير لازمة في هذه الحالة، فالذي أصبح فاقد الشخصية، يريد ـ تلقائياً ـ أن ينتسب إلى شخص له شخصية، بناء على هذا، عندما أفقدنا الشرق شخصيته، فإنه سوف ينسب نفسه إلى الشخصية الغربية.

كيف يمكن أن ينتسب شخص ما إلى شخصية أخرى؟ إن أحد المظاهر التي تنسبني إلى الآخر، استهلاكي، آخذ استهلاكه وأُقلّده أننا نرى الأشخاص الذين يريدون التشبه بشخصية علمية أو فنية أو سينمائية وما شابه ذلك، نراهم يقلدون استهلاكه، يلبسون مثله، يدخّنون مثله، ينتخبون سيارته، وخلاصة القول يقلّدون جميع استهلاكه.

بناء على هذا، فإن أحد مظاهر شخصية الإنسان وصورته، استهلاكه، لذا يجب أن يفقد الشرق شخصيته ليكون مستهلكاً دائمياً للبضائع الغربية.

يوجد اليوم في أفريقيا آلاف القبائل، ولكل قبيلة استهلاكها الخاص بها، ترتدي ألبستها الخاصة بها، لها تجميل خاص، وسائط نقل خاصة، بناء خاص للمدن، تستفيد من أُمور خاصة في حياتها اليومية، هنا يوجد شكل خاص لاستهلاكهم، وهناك يوجد شكل آخر، آسيا بشكل، وأمريكا اللاتينية بشكل آخر، وخلاصة القول، لكل زاوية استهلاكها الخاص بها.

وهؤلاء جميعاً لا يمكن أن يكونوا مستهلكين للبضائع الأوروبية، لماذا؟ لأن لهم ذوقهم الخاص بهم، وسليقتهم الخاصة، ومظهرهم وأسلوبهم الخاص بهم، إذاً يجب سلبهم شخصيتهم، ليفقدوا أُسلوبهم ومظهرهم واستهلاكهم الخاص بهم، ومن ثم يضطرون ـ بحالة جنونية وبالتضحية وببيع كل ما يملكونه، وحتى ببيع مستقبلهم ـ إلى أن يكونوا مستهلكين للإفرنجيين.

المستعمر يريد أن يعمل ماكنته بصورة دائمية، ومن ثم فلتباد البشرية، الشعوب، الأديان، الأذواق، الأصالات والفنون المختلفة، يريد أن يتحول جميع البشر وجميع العناصر إلى مستهلكين بشبهون الجنس الإفرنجي.

كيف يتسنىٰ لهذا السيد، الذي عليه أن يكون مستهلكاً لي، أن يفقد شخصيته ليتظاهر بمظهري، ويأخذ من أجل ذلك استهلاكي؟ كيف؟

علينا أن نرى أولاً كيف يكتسب الجيل الشخصية، إننا نرى أن الجيل يكتسب الشخصية من مصادره الثقافية فقط، وفقط يكتسب الشخصية الإنسانية المتميزة المستقلة من مصادره الثقافية والتاريخية، والشخصية تعني وجوه تمييز قوم ما عن الآخرين.

بناء على هذا، يجب قطع هذا الجيل عن ماضيه، ليكون نبتاً، شجرة، ليس لها جذور في تربتها، ليكون كالعصى في يدنا نتحكم بها كما نريد، لن تبدي أي مقاومة، بإمكاننا أن نصنع منها سفينة أو أيّ شيء آخر، يجب قطع هذا الجيل عن ماضيه ليمكننا أن نصنع منه كل ما نريد، ويكون دائماً رهن أوامرنا.

إن الفصل عن التاريخ، الفصل عن الثقافة، غربة الجيل الحاضر عن مصادره الثقافية، أصبح بصورة بحيث أن المجتمعات التي كان لها أغنى الثقافات، وأفخر الأديان، وأرقى الأفكار الفلسفية، واجمع الفنون وأعلاها وألطفها، وقد أنتجت أعظم التجارب والقابليات البشرية المختلفة في العالم وفي تاريخ البشرية؛ بل وقد أبدعت أعظم المدنيات والحضارات ذات الأبعاد المتعددة والتي لها أوفر قسط في تربية النوع الإنساني، تحولت هذه المجتمعات إلى أناس بحيث أصبحوا اليوم عليهم أن يتعلّموا مرة ثانية كيف يلبسون، ويأكلون، ويقرؤون ويكتبون.

المجتمع الذي له كل هذه المصادر الثقافية يكون فجأة في

صفوف المجمع الصحراوي البدوي، وفي صفوف القبيلة الفلانية الاسترالية، أي عامل كان سبب هذا التغيير؟ ولماذا عندما يريد الإفرنجي نفسه، والمفكر الغربي نفسه، أن ينمي ثقافته ومعنويته ويغنيهما يتّجه نحو مصادر هذا المجتمع نفسه، في حين أن هذا المجتمع نفسه لا يعلم بهذه المصادر وهو يعيش في الفقر والجهل؟

في الحروب الصليبية، كان تحجيم المسيحية بالإسلام قد أوجد الپروتستانتية، ومن ثم تحول الكاثوليك إلى دين الپروتستانت المعترض المنتقد، وهو عالم يستند إلى الحياة المادية والحياة الإجتماعية.

فالمسيحية، التي كانت طوال ألف عام من العصور الوسطى سبباً للركود، تتحول ـ بعد ذلك ـ إلى عامل تحرك وبناء نهضة أوروبية، وعلى خلاف ما قيل من أن أبعاد الدين وإنكاره في عصر النهضة هو الذي أوجد الحضارة الجديدة؛ تحول دين منحط منفعل وزاهد، إلى دين معترض منتقد وساعٍ ومرتكز على حياة هذه الدنيا، أي أن هذه البروتستانتية هي التي أوجدت الحضارة الحديثة، أمّا المادية، ومخالفة الدين، فلم تكن موجودتين في عصر النهضة، لأن زعماء النهضة وقادتها، جميعهم، كانوا متديّنين.

إن تبديل الكاثوليك بالپروتستانت، أيّ تبديل روح دينية

وضيعة بروح دينية اجتماعية، هو الذي صنع حضارة اليوم العظيمة، على أنقاض ألف سنة من الركود والميوعة في الغرب.

إن أعظم تجارب عصر النهضة هو هذا الذي أُريد أن أقوله: إنّهم لم يأتوا بالنهضة لإِنكار الدين وإبادة الماضي، أو ليقولوا على حد قول «هتلر»: نحن نصنع التاريخ من الآن، لو كنت تصنع التاريخ من الآن، لكنت تصنع ما صنعت!؟ ماذا صنع هتلر سوى تخريب ما صنعه الآخرون؟

النهضة، يعني الرجوع إلى أي شيء؟ يعني الرجوع إلى المصادر الثقافية اليونانية التي ظلت مجهولة في القرون الوسطى.

ماذا كانت تعني النهضة، الرجوع إلى أي شيء؟ لم تكن تعني اجتناب المسيحية، بل كانت تعني تبديل الشعور المسيحي، الثقافة المسيحية، من حالة الركود والميوعة والتخدير، إلى حالة انتقادية بناءة متنورة ومتحركة، أي البروتستانتية.

بناء على هذا، إن حضارة الغرب العالمية العظيمة اليوم، هي وليدة هذا التصميم من قبل المثقفين الأوروبيين، في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر: تعالوا لنستخرج المصادر الثقافية الغربية من اليونان والروم القديمتين، تعالوا لنستخرج أحاسيسنا وإيماننا الموجود في المسيحية، ونتعرف

عليها بوعي وبصورة صيحيحة، ونحولها إلى طاقة واعية قوية وبناءة، وقد قاموا بذلك فعلاً، ورأينا أنّهم قد وصلوا إلى نتيجة. إذاً لماذا يقولون لنا غير هذا؟

يقولون أنّهم تجنبوا الدين، تجنبوا الماضي، وقالوا: فلنتقدم، وتقدموا، ومن ثم أوجدوا الحضارة الحديثة فجأة!!. ولكن كيف تتقدم وأنت صفر اليدين؟ عندما تتقدم وأنت صفر اليدين عليك أن تبدأ من الصفر، من البداوة.

إننا نرى في عصر النهضة، أن مفكري النهضة وفنانيها، فلاسفة النهضة، قسيسي النهضة، ليسوا بأوائل الأشخاص الذين ينكرون الماضي ويقولون: فلنبدأ من الصفر، بل كان عملهم هو أن يرجعوا إلى الماضي بوعي وبصورة صحيحة، وبدلاً من أن يعرفوا اليونان عن طريق العرب، يعرفوا أرسطو وأفلاطون عن طريق العرب، حاولوا أن يذهبوا عن طريقهم ويستوعبوا الفن اليوناني وثقافة روما، ويعرفوا أرسطو وأفلاطون، مثقفوهم الواعون فتشوا وبحثوا حول المسيحية والدين، وعرفوا، وصنعوا من هذه المادة المخدّرة المنومة، مادة محركة تبث الوعي، ورأينا أنهم نجحوا أيضاً.

إننا نرى اليوم الأفارقة، المفكرين الذين درسوا في أوروبا وعلى مستويات عليا، قادة أفريقيا ومفكريها، يحضرون إلى المجامع الدولية بزيّهم المحلي البدائي، لماذا يقومون بهذا

العمل؟ لأنهم يعلمون أن الاستعمار كان طيلة قرنين يريد أن يقول: لم يكن لك ملابس، وأنا الذي ألبستك الملابس، لم تكن لك لغة، وأنا الذي علّمتك اللغة، لم يكن لك ماضٍ، وأنا الذي صنعت لك الحال والحاضر، لم تكن تعرف المدنية، وأنا الذي جعلتك متمدناً، هذا الأسود الأفريقي ، كانوا قد صيروه بشكل بحيث يشعر في نفسه بأنه لا ينفع إلاّ للخدمة والرقص، ويتمكن من أن يكون خادماً جيداً وراقصاً جيداً فقط.

وهذا القائد الأسود، الذي يلبس زيّه المحلي، يريد أن يوجد في نفسه الثقة بأنك كنت في الماضي إنساناً جيداً، كنت مفكراً جيداً، وقد أبدعت في ماضيتك أعظم القضايا المعنوية والفضائل الأخلاقية، وكان لك قسط في الحضارة البشرية، وأن هذه الخدمة والرقص الموجودة لديك الآن لم تكن لك، بل هي هديتهم إليك، ويقول: ارجع إلى نفسك، إلى ما عندك، إلى مصادرك الثقافية، وهناك اليوم مفكرون أمثال «ايماسيزار» و«فانون»، و«عمر مولود»، وكذلك جوليوس نيريري، رئيس جمهورية تنزانيا، وأمثالهم ـ من هؤلاء السود الذين يتهمونهم بأن لهم ثقافة ضعيفة جداً وتاريخاً ضعيفاً ـ يقفون وجهاً لوجه أوروبا.

إن مفكري تنزانيا يتكلمون الآن باللغة الإنجليزية، أي أنهم منذ الطفولة أنشأوهم في رياض الأطفال على اللغة الإنجليزية،

وهي سائدة في جامعاتهم، في مجتمعاتهم وأسواقهم، حتى أنهم يخطبون ويتكلمون ويدرّسون باللغة الإنجليزية، وهذا السيد رئيس الجمهورية ـ نيريري ـ يقول: دعونا الآن نرجع إلى اللغة السواحلية، اللغة التي يتكلم بها الأفارقة المحليون والسود البدائيون، لنبيد اللغة الإنجليزية ونبعدها من بيننا، لنتكلم باللغة السواحلية، إنه أحد الوجوه البارزة المفكرة الراقية في عالم اليوم، لم يكن شخصاً رجعياً قديمياً غبياً، إنه أحد علماء الإجتماع المشهورين في العالم.

لماذا هو يقول هذا؟ لأن هذا الأسود ما دام لم يعلم بأنه من الممكن التكلم بغير اللغة الأجنبية، وأن له لغة كانت ولا زالت، فهو يشعر بأنه كان نصف وحشي أخرس، وأنه أصبح انساناً بالحضارة الإفرنجية وبالتصاقه بالإفرنجى، إذاً فيجب إزالة هذا الشعور عنه.

وعلى الرغم من أن لغته لغة سواحلية، لغة فقيرة، ضعيفة ومحلية، وأن اللغة الإنجليزية لغة عالمية، وهي لغة الحضارة البشرية اليوم، فإنه يجب تعلم اللغة السواحلية هذه واجتناب اللغة الإنجليزية، وذلك بدافع إيجاد إيمان بنفسه وبشخصيته وبمعنويته وأصالته، عندما تقوم أفريقيا بمثل هذه التجربة، فإنه يجب عليها أن تغسل يدها من ثقافة أوروبا العظيمة، وترجع إلى ذاتها، تستلهم مز ماضي تاريخ السود وثقافة السود.

فكيف بنا نحن ـ الشرقيين ـ، الذين كنا طيلة تاريخ البشرية، من بداية المدنيات والمعنويات والثقافات للنوع الإنساني إلى ما قبل ثلاثة قرون، كنا نصنع المدنية البشرية دائماً، كنا معلمي البشرية دائماً، ونمتلك الآن مجموعة من الذخائر العظيمة والتجارب المدنية والثقافية والفكرية والإجتماعية البشرية العميقة؛ كيف لا نتمكن بالاعتماد على النفس، وباستخراج جميع هذه الذخائر المعنوية العظيمة واحيائها، هذه الأكداس التي ظلت حتى الآن مجهولة وراكدة، كيف لا نتمكن باستخراجها وتهذيبها، من تبديلها إلى طاقة واعية، من تبديلها إلى طاقة معترضة، نحن الذين نملك كل هذه الأكداس العظيمة من الثقافة، كما هي المعادن والبحار الغنية الموجودة تحت أقدامنا، ولكن قطعوها عنا، بحيث لجأنا، ومن أجل الحصول على الشخصية، إلى الطريق الوحيد وهو اللجوء إلى الآخرين.

ماذا علينا أن نعمل؟ يجب أن نوصل هذا الفصم: لنتمكن من أن نفكر لأنفسنا، ونعرف أنفسنا، لنحصل على قوة الاختيار، ومن ثم نحوّل العوامل التاريخية، العوامل الدينية والعرفانية، والأدبية التي أصبحت اليوم بصورة مادية مخدرة وصارت سبب ركود مجتمعنا وانحطاطه، إلى صورة خلاقة محركة وبنّاءة.

المثقف هو كالمهندس تماماً، الذي يحوّل المادة الخام

النتنة إلى طاقة خلاّقة وبنّاءة، يجب أن تحوّل هذه المواد الخام، التي تنتج العفونة وتولد المواد المتعفنة، إلى طاقة بنّاءة وخلاقة ومتنورة ودافعة إلى الأمام.

للأسف، إن إحدى أكبر مأساتنا هي، على حد قول «أحمد عودة»: يا ليتهم أنكروا ماضينا فحسب، ليت الأوروبي أنكر ماضينا، ليته قال: لا شيء، لم يكن لكم ماض أصلاً، عندئذ لم نعرف عن ماضينا أي شيء، ولكن ـ مع الأسف ـ لم ينكروا ماضينا، بل جاءوا ومسخوه، وأنا أقولها بصراحة: إنني لم أكن وجهاً دينياً، وليس لي مقام اجتماعي، ولم يكن عندي أي شيء.

كان هناك حديث في مكان ما يدور حول: ماذا نصنع لكي نروج الدين في المدارس الإبتدائية والثانوية؟ قلت: ليس هنالك سوى طريق واحد، وهو أن نحذفه بصورة نهائية، نحذفه حتى أن الطالب يدخل الإبتدائية والثانوية والكلية ويتخرج منها ولا يعرف ما هو الإسلام أصلاً، لم يسمع بالإسلام أبداً، وبعد ذلك يتمكن من معرفة الإسلام الصحيح ويتفهمه ببساطة.

كنت أدرّس في أحد المراحل الدراسية قواعد اللغة الفارسية: وقد نظمت أُسلوباً للتجزئة والتركيب من ابتكاري، وكنت أقول: أنا أتمكن بهذا الأُسلوب، وخلال خمس ساعات من المحاضرات، من تأهيل كل شخص وتمكينه من التجزئة

والتركيب لأعقد جمل اللغة وأشكلها، بل وبإمكانه أن يعمل بصورة تلقائية، بشرط أن يكون الذي يريد أن يتعلمها لا يعرف شيئاً عن قواعد اللغة، ويلزم عشر ساعات من الوقت، للذي قرأ قليلاً من قواعد اللغة، أما بالنسبة للذي يعرف قواعد اللغة بصورة تامة، فأنا لا أتمكن من تدريسه قواعد اللغة، لأنه لا يتمكن أبداً من تعلّم قواعد اللغة، لأن الذهن عندما يكون فارغاً يمكن التدريس والتفهيم.

كان أحد أساتذتي، ممن درّس الدروس القديمة العجيبة الغريبة، يقول: منذ ثلاثين سنة وأنا أقرأ هذه الدروس، والآن أتمنى شيئاً واحداً، وهو أن يأتي شخص ويفرغ دماغي ويأخذ كل ما فيه لنفسه، ويرجع لي ظرفه الخالي لأني محتاج إليه، فإن هنالك كثيراً من الكلام الصحيح الذي أُريد أن أصبه في دماغي فلم أجد له مكاناً، ولو كان الظرف خالياً لكنت أتمكن من هذا العمل.

كنت قد تكلّمت عن «عليّ» ـ الإمام علي ـ عند البروفسور «برك» في كلية «دوفرانس»، وكان هناك أشخاص لم يعرفوا من هو «عليّ» وما هو أبداً، وحتى لم يسمعوا باسمه، تكلمت عن «عليّ»، وقدّمت بحثاً حول تاريخ الشيعة، بعد هذا البحث الذي قدمته، كانوا ينظرون إليّ باعتباري إنساناً متجدداً وعصرياً ومفكراً حديثاً. لماذا؟ لأنه لم يكن لديهم هنالك ما يوجب

التداعي، وغداً لو تحدثت لهم عن الإمام الحسن، كانوا يعرّفونني باعتباري مثقفاً عصرياً راقياً أيضاً، لكان لساني طليقاً.

ولكن ليلة ميلاد الإمام الحسين أُريد أن أتحدث في جامعة مشهد، فكلما أفكر أن أذكر الإمام الحسين أخشى أن يردد الجميع «الصلوات على محمد وآله»، أتمكن من التحدث عن أبطال سبارتاكوس، ولكن لو تحدثت عن أبي الفضل[1] لتذكروا أبا الفضل وقربته المثقوبة فجأة وارتفعت أصواتهم بالعويل، لا أدري، هل هنا في مدينة آبادان توجد وسائط أبي الفضل، بحيث يقيمرن الموائد، ولكنهم لا يعرفون أبا الفضل نفسه من هو؟ هذا الإنسان الذي ضحى بكل حياته وبكل إمكانياته وكل مستقبله من أجل هدفه واستشهد في سبيل ذلك، هذا الإنسان في أُمته هذه، في مجتمعه، أصبح في وضع بحيث لا يتمكن الخطيب المسلم أن يذكر اسمه أمام المسلمين، علماً أن الخطيب والسامع كلاهما مسلم.

هل أنه مزاح يا سيدي؟ ليت لم تكن هناك صورة مسبقة عن الحسين، عن محمد، عن القرآن، عن الإسلام، وأن شعبنا لم يكن له أي تصور ذهني عن الدين، عن الأدب الفارسي، عن التصوف والعرفان، والتاريخ، عن الفلاسفة والحكماء، وعن

---

(١) أبو الفضل العباس بن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، الذي استشهد مع أخيه الحسين عليه السلام في واقعة الطف. المترجم.

فنوننا؛ حتى نتمكن ـ أنا وأمثالي ـ المثقفين في هذا العصر، من أن نعرّف جيلنا بهؤلاء الأناس الجدد، الإمام الحسين، أبي ذر، . . . لا أدري. . . ملا صدرا المفكر العظيم، الإمام محمد الغزالي، وفي مثل هذه الصورة فلن يحدث تداع في الذهن للصورة الخرافية الموهومة المنحطة، وعندها فإن الأذهان ستصغي إلى الكلام بصورة منطقية، دون أن تكون هنالك سابقة ذهنية منحرفة ومنحطة.

وليت مثل هذه الصورة القبيحة عن الماضي، الماسخة المثيرة للكراهية لم تكن، لكي. . . كنا نتمكن من أن نصور ماضينا ببساطة بصورة منطقية وصحيحة للأذهان المغسولة عن الماضي.

ولكن الغربيين، لم ينكروا ماضينا ـ للأسف ـ كما أنكروا ماضي الأفريقيين، بل قالوا: لكم ماض، ولكنه بهذا الشكل، ونحن نظرنا إليه فكرهناه، وهربنا منه نحو الثقافة والماضي والدين والمدرسة والفن الأوروبي، هربنا من هذه الصورة لأنفسنا التي عرضوها علينا.

طريقنا هو أن نحطم هذه الصورة، ونرسم الصورة الواقعية في أذهان جماهيرنا في الشرق، ونستخرج مصادرنا الثقافية العظيمة، لا بالشكل الذي استخرجه الغرب لنا، الذي تنتشر منه العفونة ويوجب الإنزجار؛ بل بصورة واعية مع الشعور

بالمسؤولية والجدارة؛ الشعور بالمسؤولية أمام أُمتنا ومجتمعنا؛ ومن ثم نقوم بتهذيبها، كما هو في العمل الإقتصادي حيث تحول المواد الخام الجامدة إلى طاقة توجد هذه الصناعة وهذا الإنتاج وهذه الحركة العظيمة.

إن مثل هذا العمل مطلوب وضروري في التفكير، في الروح، وفي المعنوية، وفي الحركة الإنسانية وبناء شخصيتنا واستقلالنا الثقافي أيضاً.

والسلام على من اتبع الهدى.

٤ ـ سجون الإنسان الأربعة

أيتها السيدات، أيها السادة، أعزائي الطلاب.

بعد أن أقدم لكم جيمعاً التبريكات بهذه المناسبة، أودّ أن أقول في البداية، أن حديثي لهذه الليلة لم يكن محاضرة في الحقيقة، لأن المحاضرة عبارة عن الملاك والموضوع الذي لدى المحاضر، وأنه قد حقق في الموضوع ومن ثم يعرض نتيجة تحقيقه على الحاضرين.

فالذي أُريد أن أقوله الليلة هو بمثابة اطروحة، خطة، نظرية، دون أن أبادر إلى الاستدلال عليها، ودون أن أوضحها كثيراً، وإنّما أطرح الخطة فقط، وإذا كان هنالك شرح فهو من أجل توضيح الخطة نفسها، بعدها أصل إلى خاتمة كلامي. وبالطبع سأكون في خدمتكم لأجيب عن أي سؤال أو إبهام حول هذه النظرية أو هذه الخطة. ولكني أقول من البداية: أنه لم يكن استدلالاً، ولا شرحاً وتحقيقاً لموضوع ما، بل هو نظرية، وتتمكنون من اعتباره في حد النظرية.

حسن جداً، إني في هاتين المرتين أو الثلاث التي جئت بها إلى «آبادان» وتحدثت هنا، كانت أكثر المواضيع تدور حول حقيقة الإنسان نفسه، ولم يكن هذا من قبيل الصدفة لأن أعظم مشاكل حياة الإنسان اليوم هي هذه.

وفي كل يوم، وبالقدر الذي تتضح فيه حقيقة الحياة أكثر فأكثر، وتتسع سلطة الإنسان على مظاهر الكون وتسخرها لخدمته، ويتم تذليل العقبات أكثر فأكثر، فإن هذه المشكلة تضحى أكثر تعقيداً وأكثر إبهاماً، بل وحتى أنها تظهر بصورة فاجعة؛ هذه المشكلة هي مشكلة الإنسان نفسه.

ورغم أنَّ في كل يوم تتم الإِجابة ـ بواسطة العلم ـ على أسئلة الإنسان الكثيرة، إلاّ أنه يبقى هذا السؤال «ما هو الإنسان؟» مطروحاً أكثر من غيره كما نرى اليوم في الغرب، حيث أنهم وصلوا إلى هذه الأزمة قبلنا وأكثر منا، ويشعرون أكثر منا بفاجعة «لا أدري ما هو الإنسان»، التي أحاط ذيلها بمثقفينا إلى حد ما.

بناء على هذا، فالموضوع الأساسي لإنسان العصر هو الإنسان نفسه، ما هو؟ ومن غير الممكن أن تحلّ أية مسألة، قبل أن نصل إلى تعريف واعٍ ومنطقي وصحيح عن الإنسان.

كنت أتحدث في إحدى الكليات[١] حول التربية والتعليم،

---

(١) المعهد العالي لجيش مكافحة الأمية: (الضوابط الثابتة للتربية والتعليم).

وأن مدارس التربية والتعليم المختلفة التي تطرح اليوم كلها وصلت إلى طريق مسدود، والسبب هو أن جميع الأنظمة التعليمية في العالم، وعلى أساس فلسفاتها المختلفة، لم تتمكن أي منها من النجاح، وقد أبدى كل منها في البداية تحمساً كبيراً ثم ظهر عجز الجميع.

لم يكن ذلك بسبب نقص موجود في مدارس التربية والتعليم هذه، بل السبب هو أن على معلمي عالم اليوم الكبار، ومؤسسي النظم التعليمية التربوية في المستويات المختلفة، أن يجدوا حلاً لمسألة (ما هو الإنسان؟)، قبل أن يبادروا إلى تطوير تكنيك تعليم وتربية الإنسان.

إذا لم نفهم ما هو الإنسان؟ ماذا يجب أن يكون؟ أي إذا لم يكن لدينا اعتقاد واضح متفق عليه حول حقيقة الإنسان، فإن جميع مساعينا لإصلاح الثقافة، لإصلاح التعليم، التربية، الأخلاق والعلاقات الإجتماعية، ستكون كلّها عبثاً وتافهة، ونكون كالفلاح الذي يعرف تكنيك التطعيم والتهزير والزراعة ومعرفة النبات بصورة جيدة، ولكن لم يفكر بنوع الشجرة التي يغرسها ولا يأخذ بنظر الإعتبار أن مجتمعنا يحتاج إلى أيّ نوع من الفاكهة.

والأمر ينطبق تماماً على جميع الذين يريدون اليوم إصلاح الإنسان والمجتمع. من غير الممكن أن يكون لنا نظام للتربية

والتعليم راقياً وناجحاً قبل أن نحلّ مسألة الإنسان؛ ومن غير الممكن أن ينحج أيّ من النظم الإجتماعية في العالم بدءً من الماركسية والإشتراكية وإلى جميع العقائد والأفكار الأخرى، قبل أن يقولوا ويعلنوا أن الإنسان ما هو؟ وقبل أن يصلوا إلى هذا الأصل وهو: ما هي الأهداف النهائية التي يجب على الإنسان أن يبحث عنها وفقاً لنداء الفطرة؟ وفي الواقع يجب أن يحدد أنه أيّ إنسان نريد أن نصنع من المجتمع الراقي، من الحضارة العظيمة ونظم التعليم السياسية أو الإقتصادية المتقدمة جداً.

بناء على هذا، يجب أن تحل مسألة إنسانية الإنسان، وكيفية كون الإنسان، وكيفية صيرورة الإنسان قبل أيّ مسألة أخرى، هذا أساس كل مسألة، سواء أردنا بعد ذلك أن نكون دينيين أم غير دينيين، اشتراكيين أم غير اشتراكيين، تقدميين أم رجعيين، أي شكل نريده نتبعه بعد ذلك، يجب أن تحل هذه المسألة لنا جميعاً قبل كل شيء.

من المؤسف إني آتي إلى هنا مرة واحدة في السنة (وهذا أيضاً غير مسلّم أن أتمكن من المجيء)، وهذا يعني أني أبقى دائماً في نفس المرحلة الأولى، أي ليس هنالك فرصة لما أُريد بناءه بعد ذلك، ويبقى لسنة أُخرى؛ وفي السنة الأخرى يكون الجيل قد تغيَّر، من المؤسف أن أتعابنا ـ نحن المعلمين ـ تجري على الماء، بعكس أولئك الذين يعملون في السوق أو الدائرة،

هؤلاء عندما يعملون عشر سنوات تبقى سوابق أعمالهم محفوظة في محيط عملهم، ولكن أتعابنا تظل على الجريان الدائمي، وزبائننا لا يبقون أكثر من أربع سنوات في الكلية على الأكثر، بعد كل ما نعمله وعندما نريد أن نصل إلى النهاية نرى أن الطلاب قد ذهبوا وجاء جيل جديد، وعلينا أن نبدأ من الصفر مر أخرى.

هذا أحد أسوأ أحوال المعلم، لاسيما في نظام التربية والتعليم الحديث، لأن نظام التربية والتعليم القديم الذي كان الطالب نفسه يذهب ويجلس في الحوزات المختلفة(١)، ويرى أساتذة مختلفين ويختار أحدهم، ثم يرتقي ذلك المعلم بتلميذه على أساس مدرسته درجة درجة ويوصله إلى المراحل النهائية، ويملي عليه آخر تحقيقاته وآخر نظرياته، ويربيه من بداية مدرسته إلى نهايتها ويرشده. ولكن التربية والتعليم في النظام الحديث ليس بهذا الشكل. عندنا درس خاص مع التلميذ ما نكاد نمهد المقدمة لكي نصل إلى النتيجة حتى نرى أن السنة قد انتهت وذهب وجاء عدد أخر، بحيث علينا أن نبدأ من البداية أيضاً؛

(١) لم تكن الحوزات العلمية القديمة بهذه الصورة، كان التلميذ هو الذي يختار معلمه، لا بإبلاغ وزارة التربية والتعليم، أو وزارة التعليم العالي، بحيث يدخل فجأة معلم (غير منتخب) وإبلاغه بيده! حسناً، يجب قبوله. أو المعلم يرى عدداً من الأشكال التي لا يعرفها باسم الطلاب يكلف بهم، حسناً، يجب قبولهم. فالطرفان كل منهما مكلف بالطرف الآخر تكليفاً، ولم يختار أي منهما الآخر. ودائرة الذاتية هي التي اختارت كلاً من الطرفين، ووضعت يد كل منهما بيد الآخر.

هذا هو السبب الذي يجعلنا نراوح دائماً في المقدمة.

كان أحد المعلمين يقول لتلميذه: كسلان ألاّ تخجل أن تبقى سنتين في الفصل الواحد، قال: ألاّ تخجل أنت الباقي خمساً وعشرين سنة في فصل واحد.

إن اضطرار المعلم إلى البقاء في فصل واحد، بحيث يكون فصله ثابتاً من ناحية الغرفة والرقم، إلاّ أنه من حيث الزبائن هو في حال حركة دائمة، هو السبب في أنه كل ما يريد أن يصنع يمرّ بعد مدة ـ مضطراً ـ من تحت يده، وعندها لا تصل مقدماته إلى نتائجها ولم يصل إلى المرحلة التالية.

حديثي اليوم ـ أيضاً ـ يدور حول الإنسان. لأن الإنسان ـ كما قلت ـ مجهولٌ اليوم أكثر من أي وقت مضى.

إن أغلب الفلاسفة والمفكرين وحتى الكتّاب والفنانين، منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين ـ الذي نحن فيه الآن ـ، قد اهتموا كثيراً بموضوع الإنسان، ولكل منهم تأليف أو تحقيق أو نظرية حول الإنسان، ولهذا فإن الإنسان اليوم متزلزل أكثر من كل يوم.

إن أصل بحثي هو أن الإنسان محكوم لأربع، الإنسان حبيس سجون أربعة، وبالطبع فإنه يمكن أن يكون إنساناً عندما يتخلص من أنواع الجبر الأربعة هذه، ويمكنه أن يكون إنساناً بالمعنى الواقعي للإنسان عندما يتحرر من هذه السجون

الأربعة. إن أصل البحث هو أن نعرف أولاً ما هي هذه السجون أو أنواع الجبر الأربعة؟، وثانياً كيف يتمكن الإنسان من التخلّص من سجونه الأربعة، من جبرياته الأربعة؟ وقبل هذا يجب الاهتمام بهذا الموضوع، وهو أنه عندما نقول: إنسان، ما هو مقصودنا؟ لأنه نظراً للتعريف الخاص عن الإنسان، يمكن القول بأن هذا الإنسان حبيس سجون أربعة؛ والتعريف الخاص الذي أقوله هو هذا:

إن أحد أصدقائي الذي كان يحقق حول القرآن، كان يقول: هناك كلمتان حول الإنسان، وعندما يتحدث عن هذا النوع يستخدم الكلمتين، أحداهما بشر، والأخرى إنسان. تارة يستخدم كلمة البشر، يقول: «أنا بشر مثلكم»، وتارة يستخدم كلمة الإنسان: «خلق الإنسان عجولاً» ـ مثلاً ـ أو ضعيفاً.

وإن الاختلاف بين كلمة بشر وكلمة إنسان: هو عندما يقول بشر، فالمقصود هو هذا النوع من الحيوان الذي يمشي على إثنين، والذي جاء إلى الأرض في آخر سلسلة تكامل الموجودات، والذي يعيش الآن، وثلاثة مليارات منه الآن يتحركون على وجه الأرض، وعندما يقول إنسان، المقصود هو الحقيقة السامية غير العادية والشبيهة بالمعمّى، الذي له تعريف خاص، وإن ذلك التعريف لا يسع ظواهر الطبيعة.

إذاً هنالك إنسانان، أحدهما الإنسان الذي يتكلم عنه

البيولوجي، الطبيب يتكلم عنه، الفيزيائي يتحدث عنه، والآخر إنسان يتكلم عنه الشاعر، ويتحدث عنه الفيلسوف، ويتعامل معه الدين.

النوع الأول هو ذلك النوع الخاص الذي له مميزات فيزيولوجية وبيولوجية وسايكولوجية مشتركة بين جميع أفراد هذا النوع، أعم من الأسود والأبيض والأصفر، الشمالي والجنوبي، الشرقي والغربي، الديني واللاديني؛ وعلى أساس هذه القوانين وجد علم الطب، الصيدلة، معرفة الأدوية، وكذلك التشريح، وعلم الأمراض، والباثولوجى، والبيولوجي وعلم النفس.

أما الإنسان بمعناه الثاني فهو عبارة عن حقيقة كونه إنساناً له مميزاته الاستثنائية، التي هي السبب في أن يكون كل فرد من أفراد النوع البشري إنساناً بمقدار معين.

إذاً عندما نقول: إنسان، لم يكن مقصودنا التعرف الشامل لجميع أفراد هذا النوع ـ الذي يعيش منه الآن ثلاثة مليارات على وجه الأرض ـ بصورة مشتركة. جميع أفراد هذا النوع هم بشر بصورة مشتركة، ولكنهم ليسوا أفراداً للإنسان جميعاً، كل منهم يتمكن أن يكون إنساناً إلى حد ما وبمقدار ما.

إذاً نصل ـ بهذا التعريف ـ إلى أن بين أفراد هذا النوع الذين كلّهم بشر، وكل بشر بمقدار الآخرين، يوجد أفراد تمكنوا من

أن يصلوا إلى مرحلة الإنسانية، ويرتقون في مرحلة كينونة الإنسان أو صيرورته درجات عالية أو قليلة، وبهذا فإن نوع البشر في مسير تحوله وتكامله يخطو نحو الإنسانية.

البشر «كينونة»، بينما الإنسان «صيرورة». وفرق الإنسان عن البشر وجميع الظواهر الطبيعية الأخرى من حيوان ونبات وجماد، هو أن ظواهر الطبيعة كل منها كينونة، والإنسان هو الوحيد بذلك المعنى الخاص وهو صيرورة، ما معنى ذلك؟ فلننظر إلى الأَرَضَة، منذ خمسة عشر مليون سنة وجدوا آثاراً في إفريقيا من مساكن الأَرَضَة، بحيث نرى أن تنظيم مساكنها وبنائها في ذلك العصر كتنظيمها وترتيبها الآن تماماً.

بناء على هذا فالأرضة «كينونة»، ما دامت موجودة في كل زمان ومكان، وكل فرد من «الأرضة» له وجود ثابت لا يتغير، دائماً لها تعريف ثابت واحد، كذلك الجبل، النجم، الماء، الحشرات، الفرس، الأسد والطائر، وكذلك البشر أيضاً. فللبشر تعريف ثابت أيضاً: موجود يمشي على رجلين، وتعريفه الثابت، كتبه أحد الكتّاب في كتابه بصورة فنية وهزلية، على لسان عالم كبير ذاهب إلى كرة المريخ. ذهب العالم إلى كرة المريخ ونزل هناك، وتجول في شوارعها (سائحاً ذهب من الأرض إلى المريخ) ورأى أنه قد أُعلن في إحدى الكليات هناك أن ندوة ستعقد ويتحدث فيها أحد علماء المريخ عن آخر سفر له

إلى الأرض، وعن كشف للكائنات الحية هناك.

فيذهب هذا العالم الأرضي أيضاً ليشترك في الندوة: يرى أن أحد علماء المريخ ذهب خلف الميكروفون، وقال: نعم، ثبت أخيراً ما كان يقول العلماء من وجود حياة على الأرض، والتحقيقات قد دلّت في النهاية على وجود موجودات متقدمة كثيراً من ناحية الحياة والذي أحدها يسمى بشراً، طبعاً، أنا لا أتمكن من أن أوضح لكم تماماً أن هذا البشر أي موجود هو، لأنكم تفقدون حتى التصور الذهني عنه، ولكن أقول بصورة موجزة: هو سِقاء له ثقبان وأربع عُرىً، هؤلاء يسمّون بشراً، وهم يثبون على الأرض من هذه الجهة إلى تلك، ولهم سعي عجيب ووحشي جداً بحيث لا يوجد مثلهم في جميع المنظومات، هؤلاء لهم جنون خاص في قتل كل منهم الآخر. وتارة تجتمع أفواج منهم كثيرة جداً من مناطق بعيدة لا علاقة لبعضها مع البعض الآخر، ولا يعرف أحدهما الآخر، يجتمعون وفق خطة مرسومة، ويثورون بهيجان وبأسلحة حديثة جداً وآليات متطورة جداً، يسيرون، يتركون معيشتهم وعملهم وعوائلهم، ويأتون ليصطفوا بجانب بعضهم، ثم يتقاتلون. كنت أُفكر أن هؤلاء محتاجون إلى بعضهم من أجل الطعام، ولكن ـ بعد ذلك ـ كنت أرى أنهم يقتتلون بجهد عجيب ويقتلون، وبعدها يذهبون إلى منازلهم، ثم يتقدمهم واحد ويثير عدداً آخر أيضاً، ثم يقتتلون مع عدّة أخرى. والخلاصة، فإن هذا النوع

الذي اسمه بشر، له تاريخ في الإيذاء والانتحار، وإن جميع آلياتهم تسخّر لقتل بعضهم البعض الآخر، بدون أن يكون هناك حقد بينهم، ثم يجري القتل العام الكثير، وهم لا يأكلون من لحومهم ولا يشربون من دمائهم أبداً حتى يمكن أن يقال أنهم محتاجون إلى قتل بعضهم، بل أن طعامهم يعد من مكان آخر. وبعد الفراغ من القتل وإبادة بعضهم البعض وحرق البيوت، يأخذهم الغرور وينتفخون بحيث لم نفهم أية حالة نفسية هذه. ثم يرددون الأناشيد. أما طعامهم فهو بهذه الصورة بحيث يمشون في الأرض ويجمعون كل ما يجدون بهذه العرى، التي في جوانبهم، بجشع شديد. ولكن هذه الأطعمة اللطيفه جداً، والثمرات المعطرة اللذيذة والورود الجميلة التي تثبت في الأرض، يأخذونها ولا يأكلونها ـ هذه أيضاً من جنون هذا الموجود، الذي لم نعرف له سبب ـ يأخذونها من الطبيعة بجهد، يأخذون الأغذية الصحية، اللحوم والفواكه السالمة إلى البيت، ثم يوقدون النار، ويضعون الأغذية في ظروف خاصة، ويضيفون إليها مقداراً من الفلافل الحادة، رديئة الطعم واللون، ثم يغلونها، ويطهونها ويأكلونها ومن ثم يمرضون ، وبعد ذلك يلتمسون من الطبيب لكي يخرجها من بطونهم بواسطة الآلات التكنيكية. واولئك (الأطباء) أشخاص محترمون ولهم دخل كبير في المجتمع من أجل عملهم هذا. وهذه الأمراض هي أمراض البشر في الكرة الأرضية. ان البشر، بنفس الوقت الذي هو فيه

متقدم جداً ومسيطر على الأرض، مصاب بهذا الجنون الذي لم يتفق لأي حيوان حتى الآن.

هذا تعريف لذلك البشر بالتعابير المستهجنة، ولكن هذا هوا الواقع. عندما تقرؤن تاريخ البشر، تاريخ حماقة البشر، فهو دائماً أكثر من تاريخ شعور البشر، كان أكثر دائماً وهو الآن كذلك أيضاً. هذا البشر طبيعيٌّ دائماً، وثابت دائماً أيضاً، ولم يتغيّر تعريفه منذ أن وجد قردٌ على الأرض قبل خمسين ألف سنة ولحد الآن، تغيّرت أسلحته، تغيّر لباسه، تغيّر طعامه، ولكن نوعه ومميزاته هي تلك التي كانت.

إن «جنگيز» الذي كان يحكم قوماً بدويين وحشيين، أو الملوك العظام الذين كانوا في الماضي يحكمون مجتمعات متمدنة جداً، ليس هناك أي فرق بينهم وبين الذين يتحكمون اليوم في النظم الإقتصادية العظيمة والأنظمة الكبيرة القوية التي تدير حضارة العصر، أبداً.

إن اختلاف جنگيز عن الذين يحكمون البشر اليوم هو أنه لم يمتلك الآليات، أي أنه لم ينشأ مع نظام اليوم، ولهذا فهو يقول بصراحة: إني جئت لأقتل. ولكن متمدن هذا العصر يأتي ويقتل ويقول: جئت لأُقيم السلم. إن أُسلوب الكلام والكذب والتبرير هو الذي قد تكامل، وإلاّ، فالنفاق والكذب وقتل الإنسان، ولذة الإنسان الحاصلة من قتل الآخرين ونهبهم، كل ذلك على

ما كان عليه، بل اشتد بصورة أكثر، فهذا الإنسان بهذا المعنى ثابت دائماً وهو نفس ذلك البشر.

أما الإنسان، بمعنى تلك الحقيقة السامية التي علينا ـ نحن البشر ـ أن نسعى للوصول إليها، نسعى لنجسدها؛ فهو عبارة عن المميزات السامية التي هي بمثابة المميزات النموذجية التي يجب أن نحصل عليها، عبارة عن المميزات التي ليست موجودة ولكن يجب أن تكون. هو أن الإنسان عبارة عن ذلك الموجود الذي لم يكن موجوداً ولكن يجب أن يكون، وبناء على هذا فهدف البشر هو أن يكون إنساناً، وأيضاً، فإن كينونة الإنسان، لم تكن بمرحلة ثابتة بحيث عندما تصل إليها تكون قد وصلت إلى صيرورة، لا فالإنسان دائماً في حال الصيرورة، دائماً في تكامل دائمي وأبدي إلى ما لا نهاية.

«إنا لله وإنا إليه راجعون»، هذه هي فلسفة معرفة الإنسان[1].

«إليه راجعون»، أي إن الإنسان يرجع إلى الله. إن كلمة «إليه» هذه تعطي صورة عن بحثنا، بعكس التصوف الذي يقول:

---

(١) إن عقائد الأصول الفكرية السامية الداعية للحياة، والمنطقية جداً، عندما تكون في متناول مجتمع منحط ذي نظرة منحرفة متعصبة وضيعة، تكون نفسها سبباً للإنحطاط، والشعارات والأقوال السامية جداً، تكون لديه على شكل أوراد مبتذلة واحداها هي هذه.

إن الإنسان يصل إلى الله. (والحلاج وصل إلى الله، يحدد لله محلاً ثابتاً، وأن الإنسان في سعيه عندما يصل إلى هناك يتوقف عند الله). «إليه» أي نحوه، لافيه، لا له، بل نحوه، من هو؟ لله، ونحو الله ماذا يعني؟ فإن الله لم يكن في محل ثابت حتى عندما يصل الإنسان إلى هناك تكون نهاية حركته، ويتوقف هناك. إن الله عبارة عن اللانهاية، عبارة عن الأبدية، عبارة عن المطلق.

بناء على هذا، فإن حركة الإنسان نحو الله بعبارة أخرى ومعنى آخر، هي أن حركة الإنسان بصورة ابدية ودائمية غير قابلة للتوقف، هذا معنى «الصيرورة» ومعنى الإنسان.

هذا هو الإنسان الذي له مميزات ثلاث فقط وفقط. الإنسان الذي يجب أن يصير: أولاً: موجود واع، ثانياً: مختار، ثالثاً: مبدع... أما بقية مميزات الإنسان الأخرى فهي تتفرع من هذه الثلاثة وهي: أن الإنسان واع ومختار ومبدع.

وبالمقدار الذي يصل كل منا إلى مرحلة الوعي، وإلى المرحلة التي نتمكن فيها من الاختيار في الواقع، ثم نصل إلى المرحلة التي نتمكن فيها من إبداع الشيء الذي لم تبدعه الطبيعة ولم تمتلكه، يكون كل منّا إنساناً.

إذاً عندما تتضح المميزات لذلك الإنسان الذي يجب أن

يكون، يتحتم علينا معرفة الأسباب التي تمنع الإنسان عن طريق «صيرورته»، لكي نستمر ـ بأزالتها ـ في حركتنا وهجرتنا الفطرية والذاتية نحو تكامل الإنسان و«صيرورته».

إن أنواع الجبر الأربعة، هي التي تمنع الإنسان من الوعي والاختيار والابداع. إن جملة «ديكارت» هذه معروفة جداً: «أنا أفكر، إذاً أنا موجود»؛ هذا شكل ديكارت، شكّ في كل شيء أولاً، ثم قال: ولكن لا أتمكن من الشك في أني في حال الشك، إذاً أنا الذي أشك إذاً أنا موجود. فعُرِفَ بعد ذلك بجملته هذه (أنا أفكر، إذاً أنا موجود)، وعلى أساس هذه الجملة أثبت مدرسته كلّها.

القول الثاني، قول «جيد»: «أنا أشعر، إذاً أنا موجود».

والقول الثالث قول «البير كامو»: «أنا أتمرد، إذاً أنا موجود»، وهذا أصح.

وملاك «الوجود» في هذه الثلاثة صحيح: ذلك الذي يفكر، إذاً هو موجود بحيث يفكر، وذلك الذي يشعر، إذاً هو موجود بحيث يشعر، والذي يتمرد ويعصى، إذاً هو موجود بحيث يتمرد.

إذاً هنالك ثلاثة «وجودات»، واسمى الوجود الذي يخص الإنسان هو: «أنا أتمرد، إذاً أنا موجوداً.

طالما كان آدم في الجنة ولم يعص فهو لم يكن آدماً بل كان مَلَكاً[١].

ولكن الإنسان في الجنة، وفي حياة الجنة الإستهلاكية، يعصي ويتمرّد، وبعد تناوله تلك الثمرة (ثمرة النظر والتمرّد) يطرد من الجنة ـ والتي كانت جنة التمتع والاستهلاك الحيواني لا الجنة الموعود بها (تلك الجنة الموعود بها عكس الجنة التي طرد منها) ـ ثم يأتي إلى الأرض وواجبه أن يؤمن حياته بالسعي والجهد والمقاومة والتنازع، كما يعقّ الأب والأم أولادهما أو يطردانهما من البيت، يعني أنهما جعلا مسؤولية حياتهم على عاتقهم.

---

(١) إن أحدالأمور التي يقولون أنها في ثواب الغسل هو: أن المغتسل عندما يخرج في خزانة الماء (الحوض) (هذه البركة أيضاً ذهبت من بيننا)، على كل قطرة تقطر من جسمه مَلَك يثنى عليه (يستغفر له)!أُريد أن تعرفوا أن منزلة الملك في الإسلام واطئة مبتذلة إلى أيّ حد، ونحن الذين نرفع النبي والإمام إلى مرحلة اسمى من الملَك بنظرتنا المنحطة، إلى أي حد نستصغر هؤلاء، فقيمتهم في إنسانيتهم لا في كونهم ملائكة. فالإمام الذي يدخل من الباب المغلق حسناً، اشعة «أكس» أيضاً تدخل، أية قيمة لها بالنسبة له، القيم السامية مكنونة في الأنسانية السامية، وهذا هو الإنسان في الإسلام، الذي صار مسجود جميع الملائكة صغاراً وكباراً إلاّ أننا لا زلنا ندرس المواضيع الإسلامية بنظرتنا ما قبل الإسلام القديمة. ومن ثم نأخذ القادة الذين يجب علينا أن نتعلم منهم الحركة والقيادة والبناء، بإطاعتنا وتقليدنا لهم، نضعهم في رفّ ما وراء الطبيعة بحيث لا تصل يد أيّ أحدٍ منا إليهم، ولم يتمكنوا من أن يتركوا أيّ أثر علينا، لأنه لا يمكن تقليدهم أبداً.

هذه هي عين ترجمة قول «سارتر»، باسم «Délaissement»، أصالة الوجود، تماماً. أي أن الإنسان موجود «موكّل إلى نفسه»، أيّ أنه يمتلك مسؤولية حياته في الطبيعة بنفسه، بعكس جميع الحيوانات التي فرضت الطبيعة عليها غرائز وهي التي تديرها، ولم تتمكن من اختيار حياتها بنفسها.

فالإنسان الذي وصل إلى الوعي، ووصل إلى التمرد والعصيان على الجنة، وحتى أنه وصل إلى العصيان على إرادة الله، هو موجود جديد خلق في العالم، وهو نفس الإنسان الذي يتمكن بعد ذلك، بالعبادة والطاعة ـ بالطبع فإن العبادة والطاعة هي تلك التي اختارها هو من النجاة.

إن طاعة إنسان، كان منذ البداية عابداً لعبد غير واعي، ومثل الحيوان الذي لا يتمكن من العصيان، لا قيمة لها، وإنّما الإطاعة المطلوبة هي إطاعة إنسان وصل إلى دور العصيان.

بناء على هذا، فالإنسان عبارة عن موجود في الطبيعة وهو وحده، فقط وفقط، الذي يتمكن من الاختيار، عندما يعصي، فهو دليل على أنه يتمكن من الاختيار.

وهذا هو نفس قول «كامو» من أنّه أنا أفعل «Révolte»، واتمرّد على النظام السائد وعلى نفسي وعلى المجتمع، وأتمكّن من الجحود، واختار بدلاً من ذلك شيئاً آخر، هذا، يعني أن الإنسان صار «موجوداً».

أما قول ديكارت الذي يقول: «أنا أفكر إذاً أنا موجود، أو قول «غيد» الذي يقول: «أنا أشعر إذاً أنا موجود»، فهو قد أثبت كينونة «الوجود»، إلاّ أن الإنسان لما يثبت (الكينونة) حتى الآن.

الأول: الإنسان موجود واع بنفسه، أيّ أنه الموجود الوحيد في الطبيعة الذي وصل إلى وعيه بنفسه، وتعريف الوعي بنفسه عبارة عن: إدراك كيفيته وجبلته، إدراك كيفية بناء العالم وجبلته، كيفية علاقته بالعالم وجبلتها، فالبشر بالقدر الذي يصل إلى الوعي بهذه الأصول الثلاثة، يكون إنساناً.

الثاني: إنه مختار، أيّ أنه الموجود الوحيد الذي يتمكن من التمرد والعصيان على الطبيعة، على النظام الحاكم عليه، على حاجاته البدنية والنفسية الضرورية، على حاجاته الطبيعية ورغباته الجنسية، وأنه يتمكن من اختيار شيء لم تكن لا الطبيعة ولا جسمه وفيزيولوجيته قد اجبراه على هذا الاختيار، وهذه أسمى مراحل «صيرورة» الإنسان.

هذا، نوع من العمل الخاص بالله. والحيوانات الأخرى، هي أجهزة ـ تماماً ـ تتجاذبها الرغبات الغريزية الموجودة والمخلوقة في باطنها إلى هنا وهناك، تماماً كما تظهر الثورة الجنسية في الخروف مرة واحدة في السنة ومن غير الممكن ألاّ تظهر، ومن ثم لا يتمكن من عدم إعمال غريزته الجنسية في ذلك

الفصل، وبعد ذلك عندما تتهافت تلك الثورة الجنسية ينسى موضوع الجنس بصورة عامة. فالحب يظهر في الخروف، ثم يبدو، ثم يتهافت؛ وهذه الميزة جبرية تفرضها الطبيعة على جسم الخروف؛ متى ما أرادت الطبيعة واقتضتها تظهر، ومتى ما اقتضت تهافتها تهافتت.

أمّا الإنسان فهو ليس يتمرد على الطبيعة فحسب بل يتمرد على طبيعته هو أيضا؛ يتمرد على غريزة حبه لذاته، فيقرر الانتحار، يتمرد على غريزته الطبيعية التي تدعوه لصيانة نفسه وحفظ جسمه وحياته فيقوم بالتضحية، فيضحي بنفسه في سبيل فكرته أو من أجل الآخرين، ويتمرد على جميع المميزات الطبيعية التي تدعوه إلى اختيار الرفاه والحياة والغذاء واللباس والاستهلاك، فيتمكن من الإعتراض ويزهد ويتقشف في كل ذلك.

هذه كلّها علائم على أنه هو الموجود الوحيد الذي يتمكن من الاختيار، بالرغم من جميع الأسباب التي تدعوه لاختيار شيء آخر.

الثالث: إن الإنسان موجود مبدع، يبدع من أصغر الأشكال إلى أعظم الصناعات، فالقدرة الإبداعية تتجلى في فطرة الإنسان. الإنسان هو الوحيد الذي يصنع، ولهذا جاءت بعض التعاريف بهذه الصورة: من أن الإنسان حيوان يصنع الآلات، ولكن

الإنسان بنّاء صانع، لا آلات فحسب بل أكثر من الآلات.

خلَّاقية الإنسان بهذا المعنى، هو أنه يشعر أن احتياجاته تكاملت إلى حدٍ بحيث أن الأشياء التي يريدها غير موجودة في الطبيعية، وهذه علامة على أن الإنسان جاء إلى الوجود، فطالما كان الإنسان يرى أن ما حوله يكفيه، فهو حيوان طبيعي يبحث عن الموائد اليومية التي اعدّتها له لطبيعة. ومن هنا ينفصل مقامه عن مقام الحيوان الذي سبقه في سلسلة التكامل، ويصل إلى مرحلة يرى فيها أن احتياجاته ـ بعكس حاجاته الطبيعية ـ تحثه على الحركة والسعي والتفكير في أن ما يسدّ به حاجاته لا توفره له الطبيعة. وهذا يعني أن هذا الإنسان قد تكامل إلى حد أكثر من مجموعة إمكانيات الطبيعة، أيّ إمكاناته وشعوره بالحاجة قد توسعت وتكاملت أكثر من مجموعة القدرات والإبداعات في الطبيعة المادية.

وهنا بالذات، وعلى حد تعبير «هايدجر»: يصل الإنسان إلى الإنفراد، وعندما يصل الإنسان إلى الإنفراد، يشعر بأن جنسه لم يعد بعد من جنس الطبيعة المادية، وعندما يشعر بأنه ليس من أهل هذا المكان، يشعر بأن نوع بنائه الفطري يختلف عن نوع بناء الحيوانات الأخرى، ويشعر بأن أمنيات تجتذبه إلى نفسها، وإن مثل هذه الأُمنيات لا تتوفر في الطبيعة.

إن أحد الأعمال التي يقول بها هو أنه يبادر إلى الإبداع،

ويبدأ من مقدمة صغيرة، يريد أن يصعد إلى سطح الدار، يريد أن يطير، ولكن الطبيعة لم تمنحه الريش؛ يصنع السلم، ويذهب إلى سطح الدار، ومن هنا يبدأ صنع الآلات، السفينة، الطائرة والسفن الفضائية. . . أو أشباه ذلك في الصناعة.

الصناعة: مجموعة ما يبدعه الإنسان الذي يسعى إلى إخضاع الطبيعة إلى إرادته وسيطرته، ويسعى لينجح في السيطرة ـ بواسطة الإمكانيات التي منحها إيّاه إبداعه ـ على ما يتعسر حصوله، رغم وجوده في الطبيعة.

البترول في باطن الأرض، ولكن، لا يتمكن الإستفادة منه بواسطة الإمكانيات التي منحتها الطبيعة إيّاه، أو لا يتمكن بالإمكانيات التي عنده أن يستفيد من النبات بهذا الشكل، وصناعة الحفريات وتصفية البترول أو صناعة الزراعة تمنحه إمكانيات جديدة لم تمنحها له الطبيعة.

الإبداع الثاني، نوع آخر وجنس آخر، هذا الإبداع ابداع فني ، وتعريف «الإنسان حيوان يبدع الآلات» يتوقف هنا، وهذه إحدى تجليات روح الإنسان الإِلهية.

الفن ـ كالصناعة تماماً ـ عبارة عن تجلي قابلية الإنسان الإبداعية في الطبيعة، الصناعة عبارة عن إبداع الإنسان للوصول إلى ما هو موجود في الطبيعة، بينما الفن عبارة عن إبداع

الإنسان من أجل أن يتمتع الإنسان بأشياء يحتاجها ولكنها ليست في الطبيعة.

إذاً فالفن، هو نوع عمل يقوم به الإنسان بعد الصناعة، ليجمّل الطبيعة وفقاً لما يريده بما هو غير موجرد في الطبيعة، وهو يسعى لتلافي النقص الذي يجده في الطبيعة والنقص الذي يشعر به على طول خط تكامل الروح وحاجته في الطبيعة بواسطة الإبداع الفني، ولهذا فإن الفن عبارة عن استمرار عمل الطبيعة ليهب إلى الطبيعة ذلك الشيء الذي يجب أن يحصل عليه الإنسان وهو غير موجود لديه.

إذاً فالبناء والتفنن هو إحدى مميزات الإنسان والذي هو تجلي البعد الثالث للروح الإنسانية (الإبداع).

إذاً وصلنا إلى هذا التعريف، أن ذلك الإنسان الذي نتحدث عنه (ويجب أن نجسده جميعاً، وأن نحصل على تكامل صيرورة الإنسان بأسرع وقت وفي كل يوم بصورة أكثر، وهذا الإتجاه هو الذي يحدد عملنا في التربية والتعليم، في المجتمع، في الحياة الثقافية والعلاقات الإجتماعية)هو عبارة عن موجود ذي ثلاثة أبعاد، موجود ذي قابليات ثلاث. الأول الوعي بالنسبة لنفسه والعالم، وعلاقته بالعالم، (الشعور بالنفس والعالم، معرفة موضوع قدمه في العالم، والإنسان هو الوحيد الذي يمتلك هذا

الوعي)، الثاني، الإختيار، كونه حرّاً، الثالث، الإبداع في الصناعة أو الفن.

إذاً، إن هذا الواعي الحرّ المبدع إنسانٌ. ونرى أن هذه الصفات الثلاث، صفات ثلاث خاصة بالله. الله وجود واعٍ له إرادة بنّاءة أو مبدعة.

كذلك، ذلك الإنسان الذي يتحدثون عنه بأنه شبيه الله ـ ولا أُريد أن أتحدث بهذا الإصلاح المشبّه ليكون شِركاً، الشبيه بهذا المعنى هو أن الإنسان موجود على خلاف الطبيعة، له قابلية أن يغرس في وجوده صفات الله البارزة ويربيها ويعمل على تكاملها «وتخلّقوا بأخلاق الله»، أيّ أن الإنسان خليفة الله في الأرض؛ الإنسان، لا البشر، فالبشر لا يكون خليفة الله بل يكون خليفة القرد، يتّبعه ويتَّبع تكامله.

هذا الإنسان يتمكن على خلاف كل الطبيعة، أن يكون موجوداً يتمكن من العصيان والاختيار، وأن يحصل على الوعي أيضاً، ويبدع بالرغم من الطبيعة، وهذا العمل يفعله الله في الحد المطلق، والإنسان في حده النسبي.

أما الآن فقد جعلت أنواع الجبر الأربعة، السجون الأربعة، هذا الواعي المختار المبدع في أسرها ومنعته من الوعي والاختيار والإبداع، ومع الأسف، فإن كارثة الإنسان

العظيمة في هذا العصر هي، إن الأفكار والمعتقدات بالحد الذي تلبي فيه كثيراً من حاجات الإنسان، تعطيه وعياً نسبياً وتعطي المجتمع البشري تكاملاً وقدرة، فهي تُنسي الإنسان نفسه، وهذه كارثة عظيمة، كيف تنسى العقائد البشر نفسه؟!.

هنالك في أُوروبا يوجد رجل باسم السيد «عبد القادر مالك» وهو من أحفاد «عبد القادر» المجاهد الجزائري المعروف، غير أن هذا شيء مبتذل، لقد ألقى خطاباً في كلية «دوفرانس» في باريس باسم «التعصب الإسلامي»، وكان يتحدث فيه عن احتقار الإنسان في العقيدة الإسلامية وفي مدرسة الإسلام، ويدّعي: أن الإنسان هناك مبتذل وضيع وموجود سافل، الإعتقاد بالمشيئة، بالقضاء والقدر، الاعتقاد بأنه بالعبادة فقط يتمكن الإنسان سن النجاة، والنتيجة هي الذلّة وأمثالها، فقمت هناك واعترضت، وقلت له أن هذا التعصب الإسلامي الذي تقوله يصدق عليك فقط، إنك في الواقع مظهر جميع الصفات التي قلتها أنت وملاكها؛ وإلاّ إذا كان الأمر هو المنطق، فالإنسان في التعريف الذي ذكرته أنا يكون خليفة الله، وفي التعريف الذي ذكرته أنا يحصل على أمر ليتخذ لنفسه صفات الله، وبهذا التعريف يُدعىٰ إلى أنه يتمكن من أن يكون مبدع العالم ومختاره وواعيه. هل يا ترى هنا يحتقر الإنسان أم في المعتقدات الحديثة التي تضحِّي بالإنسان رغم أبعادها المنطقية الراقية.

تعتبر «المادية» جنس الإنسان وذاته من جنس المادة وذاتها؛ وهي في تعريفها الأول هذا تحبس الإنسان في إطار التكامل المحدود في كينونة المادة. إذا كان الإنسان من جنس المادة فقط وفقط، فمن غير الممكن أن يتكامل أكثر مما تستوعبه أبعاد كينونة المادة، وهذا هو تحديد سير الإنسان التكاملي، في الظواهر المادية، في إبعاد كينونة المادة.

المذهب الطبيعي أيضاً هو جزار آخر، والذي انتشر كثيراً في القرن الثامن عشر حتى أوائل التاسع عشر.

المذهب الطبيعي يقول: إنّ الأصالة تتعلق بموجود حيّ باسم الطبيعة إلاّ أنه غير واعٍ؛ والإنسان أيضاً هو أحد أغراس ومغروسات الطبيعة غير الواعية الحيّة وصنيعتها، وبناءً على هذا فالإنسان مصنوع تصنعه الطبيعة كما تريد؛ وبناء على هذا، إن كنت حُرّاً أشعر وأختار وأصنع شيئاً ما، أصنع بالشكل، وأختار بالشكل، وأفهم بالشكل الذي صنعت الطبيعة فهمي واختياري وقدرتي على الصنع.

إذاً حدّدوا الحرية الإنسانية ـ أيضاً ـ في حدود الإمكانيات التي أقرتها الطبيعة في جبلة الإنسان، أيّ أنهم يعتبرون الإنسان دائماً بمثابة الظاهرة التي نبتت في الطبيعة، ولكنه أكثر تكاملاً من الظواهر الأخرى، لا من نوعها، وهذه المحدودية تضحّي

بحريتي «أنا»، باعتباري الموجود الذي أتمكن من التفكير كما أُريد، وأتمكن من الاختيار كما أُريد، وأتمكن من الصنع كما أُريد.

إن وجودية «هايدجر» أو «كي يركه جارد» أو «سارتر»، رغم أن هؤلاء غير إلٰهيين ـ سوى «كي يركه جارد» ـ وإنّهم مخالفون للعقيدة الميتافيزيقية، فلماذا يقول سارتر: إن الإنسان موجود ذو فطرة وبناء مخالف ومغاير لجميع موجودات الطبيعة؟ أنه لعجيب جداً من سارتر الذي لا يعتقد بالله وبما وراء الطبيعة، وبنفس الوقت يعتبر الإنسان موجوداً غير جميع موجودات الطبيعة؛ ليس غير موجودات الطبيعة فحسب، بل يعتبره ضد موجودات الطبيعة، ويقول: إن جميع موجودات الطبيعة كانت ماهيتها مصنوعة أو أنّها كانت أولاً وبعد ذلك وجدت، بعكس الإنسان فإنه وجد أولاً ثم وجدت ماهيته.

لماذا يقول هذا؟ لأنه على حد قوله: «عندما حذفنا الإلٰه أصبحنا مضطرين أن نضع الإنسان في المادة وفي الطبيعة الطبيعية أو الطبيعة المادية، ونجعل له مكاناً فيها»، وبالتالي فقد ضحّينا بالإنسان، ضحينا بكينونة الإنسان. يضطر إلى صنع مثل هذا الشيء وهو أن جميع الموجودات ماهيتها مقدمة على وجودها، بعكس الإنسان الذي وجوده مقدم على ماهيته، وهذا يعني أنه عندما يريد شخص ما أن يصنع كرسياً، لم يكن الكرسي

موجوداً في البداية، أنت تسأل النجار ماذا تريد أن تصنع؟ يقول: كرسياً، تقول: ما هو الكرسي؟ يبين لك، أنه عبارة عن الشيء الفلاني، وله أربع قواعد، ومتكأ، وأن خشبه ولونه هذا أيضاً عندما يقول هذا فهو يتحدث عن ماهية الكرسي في حال أن الكرسي نفسه غير موجود، ثم يبدأ ويصنع الكرسي بالخشب والفاس والمنشار، وفي هذه الحال يعطي الوجود لماهية الكرسي تلك، والكرسي نفسه بعد لم يوجد

أما بالنسبة للإنسان فهو على العكس، فإن وجوده يظهر أولاً، وهو هذا البشر الموجود الآن، ما هو؟ لا شيء! لمّا يعرف بعد! ولكنه موجود، له وجود! كيف؟ تظهر كيفيته بعد ذلك، بأيّ شكل؟ يظهر بعد ذلك، وكيفيته، فهي مربوطة به هو وكيف سيصنع نفسه.

إذاً فالإنسان بعكس الموجودات الأخرى التي تعرف أولاً ماهيتها ثم يظهر وجودها، لا يعرف ما هو، بل يظهر في البدء كوجود، ولكنه ذو إرادة بحيث يعطي الشكل والجنس واللون الذي يريده لعجينته وطينته أي أنه يصنع ماهيته بعد أن يوجد.

إن الله أو الطبيعة، منحنا وجودنا، ولكن ماهيتنا علينا نحن أن نصنعها بإرادتنا، وعلى حد قول سارتر: لو سلبنا الإنسان الإرادة والإختيار، كنا قد سلبنا الإنسان من الإنسان، ومن ثم ينهار كل شيء منه.

إن خوف سارتر كان لهذا السبب، وهو خوف صحيح، بحيث لو أخذنا المادية، أو المذهب الطبيعي معياراً ـ كما هو بالفعل اليوم ـ كنا قد حبسنا الإنسان بصورة تلقائية في حواجز كينونة العجز، وكل من يعتبر التكامل الإنساني متوقفاً إلى حد ما، فقد جنى على كينونة الإنسان.

إن أصحاب «وحدة الوجود» يضحّون بالإنسان أيضاً، في الوقت الذي تعد فيه عقيدتهم بمثابة مثالية موحّدة.

إن الوحدة الوجودية، أو الجبر الإِلٰهي (Providence)، والتي يعتقد بها بعض الجبريين من المسلمين أنفسهم، هي نفس الجبر الموجود في الفلسفة الهندية وبعض فرق التصوف؛ وكذلك في المذهب الكاثوليكي الذي يقول: إن الله خلق كل شخص كما اقتضى وجوده هو، وقد حدد مسبقاً حُسنه وقبحه وإرادته وكيفيته وكتبه على ناصيته، وعندما يولد الإنسان في الدنيا لا يمكن أن يكون ولا يكون شيء سوى ما تعلقت به مشيئته. وهنا أيضاً يضحي بالإنسان لجبر ما قبل الإنسان.

عندما يقول الشاعر حافظ:

چو قسمت ازلى بي حضور ما كردند

گر اندكى نه به وفق رضا است خرده مگير

أي:

عندما قسّموا في الأزل بدون حضورنا

فإن كان قليل من القسمة لا يرضي لا تنتقد

أي: لم يدعوك ـ عندما قسّموا ـ يا سيد كيف تريد، هكذا أم هكذا؟ خلقنا كما يريد هو وبعد ذلك تركنا على الأرض، والآن كيفما كان، كان، لم يستأذنوا منا كيف يكون، ولم يمنحونا الاختيار. وعلى حد تعبير شاعر آخر كان يصحح ذلك الشعر، إذا كانت تلك الفلسفة صحيحة فهذه أصح، وهي: . . .

اگر همش نه به وفق رضا است خرده مگير

فإذا كان كلّه لا يُرضي لا تنتقد

لأنّه جبر، ما الحيلة مقابل الجبر؟ وحتى كون المعترض مخطىء والاعتراض خطأ، فيكون كإعتراض «كامو» الذي يقول: أنا أعترض، يقولون: على مَنْ؟ على الله؟ أو تعترف بالله؟ يقول: لا، يقولون: إذاً على من تعترض؟ إذا كانت هناك طبيعة غير واعية، ونحن خلقنا بصورة غير واعية ونبتنا، فعلى مَنْ تعترض؟ يجب أن يكون الإعتراض على إنسان مسؤول أو واحد مسؤول، وأنت لا تقبل تلك المسؤولية في العالم، تعترض كيفما كان؟!

ثم يقول كلاماً أبرز من هذا، يقول: أنا أعترض، يقولون: على من تعترض ولماذا؟ يقول: لا على أحد، وهذا يشبه من يضرب الهواء لطمة! ثم يقول: إنّما اعترض لأنني لا أتمكن من عدم الإعتراض!.

عندما تكون المشيئة الإلٰهية بدون إرادة الإنسان واختياره،

فالإِنسان غير مسؤول، والإنسان غير المسؤول ليس إنساناً.

كانت هذه الأُمور تختص بالقرن التاسع عشر، والقرن التاسع عشر قرن المادية وقرن المذهب الطبيعي. والقرون الوسطى كانت قرون المشيئة الإِلٰهية، وهذا جبر كانت تدعو له المسيحية. ثم جاء الجبر المادي والجبر الطبيعي، وأزال ذلك الجبر وأحلّ محله جبراً آخر. كما كان يقول القساوسة في القرون الوسطى، إننا كنا قد خلقنا بالشكل الذي يريده الله، ولم تكن لدينا إرادة، والآن في القرن التاسع عشر، هؤلاء أيضاً يقولون نفس القول، إلاّ أنهم أحلّوا الطبيعة والمادة محلّ الله، أيّ أنهم غيروا (أربابنا)، وأنزلوها رتبة، أيّ أنزلنا أربابنا إلى منزلة الطبيعة والمادة، وفي القرن العشرين، شلّت حركة «المذهب المادي»، ولم يتمكن أن يكون موثقاً من الناحية العلمية، وقد اضمحل «المذهب الطبيعي» قبل المذهب المادي، لأنه متعلق بالقرن الثامن عشر.

هناك ثلاث مدارس أُخرى تنكر ـ أيضاً ـ أن يكون الإنسان موجوداً واعياً مختاراً، والمدارس الثلاث هي عبارة عن «المذهب البيولوجي»، أصالة علم الأحياء، والذي هو آخر النظريات؛ وقبله «المذهب السوسيولوجي» المذهب الإجتماعي؛ وقبله المذهب التاريخي أو مذهب أصالة التاريخ[١].

---

(١) History تعني التاريخ ـ و Historism تعني أصالة التاريخ.

المذهب التاريخي هو بمعنى أن الإنسان وجميع أفراد الإنسان، كل شخص، كل «أنا»، هو عبارة عن بضاعة صنعت بواسطة التاريخ. كيف؟ كما اقتضاه تاريخه هو.

إذاً أنا الذي عندي هذه المميزات هو بسبب التاريخ الممتد خلفي إلى البداية. وإن تاريخ إيران والإسلام والتشيع معاً، له نسيج متحد صنع تاريخي الماضي ووصل إلى هذا القرن. وأنا الذي ولدت في نهاية هذا التاريخ، وترعرعت ونموت، لي مميزات أعطانيها تاريخي، وبحيث لو كنت موجوداً في نهاية تاريخ الثورة الفرنسية العظيمة، عصر النهضة، القرون الوسطى، أو في عصر الغرب اليوم، بدلاً من وجودي الآن في نهاية تاريخ إيران والإسلام، لكانت لي لغة أخرى، شعور آخر، أخلاق وأساليب أُخرى.

إذاً ذلك «أنا»، وهذا «أنا»، هما إنسانان، لأن لهما تاريخين. إذاً فمميزاتى وضعت ـ أيضاً ـ بيد إرادة باسم أصالة التاريخ، وليست بيدي، إذاً كيف اختار؟ كما أُريد أنا؟ لا، كما يختار التاريخ في داخلي، والآن عندما أتكلم اللغة الفارسية، وانتم تستمعون لغتي الفارسية باعتبارها لغة محاورتنا، لا أنتم الذين اخترتم اللغة الفارسية، ولا أنا، تاريخنا هو الذي وضع فينا الفارسية، وعندما فتحنا عيوننا قبلنا هذه اللغة باعتبارها جبراً تاريخياً، ونتكلم بها على أساس ذلك، ولم نتمكن من عدم

التكلم بها، والإسلام الذي اعتنقناه لم نختره نحن، اختاره التاريخ لنا، ولم نشترك نحن في ذلك الاختيار، ولدنا ونشأنا وترعرعنا في محيط صنعه التاريخ واصطفاه بمثل ما تمنحنا الطبيعة لون الجلد ولم نختره نحن، كذلك فإن لون روحنا يمنحه التاريخ لنا أيضاً ولم نختره.

والجبر الآخر، هو المذهب الاجتماعي «السوسيولوجيا». والسوسيولوجيا تعني مدرسة أصالة المجتمع أو علم الاجتماع، فالمذهب الإجتماعي يقول: صحيح أن الطبيعة لها أثر فينا ولكنه ليس بالكثير؛ وصحيح أن التاريخ له أثر في الإنسان وبناءه لكن ليس بذلك المقدار، الذي يصنعني في الواقع، هو المحيط الإجتماعي والنظام الإجتماعي الحاكم عليَّ.

فلو كنت سخياً، أو غيوراً جداً، ومتحمساً جداً، فلأني نشأت في محيط إقطاعي؛ وإذا كان عندي أربعة أو ستة قروش فلأني ترعرعت في نظام بورجوازي؛ ولو كنت فارساً متهوراً فلأني عشت في نظام قبلي، وإذا كنت بشكل آخر فلأني كنت في نظام آخر، نظام الملكية وآلات الإنتاج: وبصورة عامة إن العلاقات الطبقية، والقوانين الرسمية السائدة في مجتمعي، والتي تصنع جميع المجتمع، هي العوامل التي تصنعني أنا الفرد الإنساني كما تصمم وتريد هي.

إذاً، عندما أكون أنا شيئاً، فإن المحيط الإجتماعي هو

الذي يخلق فيَّ السوء أو يختاره؛ وعندما أكون صالحاً، المحيط الإجتماعي هو الذي خلق فيَّ الصلاح ودعاني به؛ أنه ليس لي.

ففي المذهب الإجتماعي ليس هنالك وجود للفرد، ولم يتمكن الإنسان من الاختيار باعتباره «أنا»، في المذهب الإجتماعي كل شخص يكون بالصورة التي يريدها له مجتمعه.

إذاً، كل شخص لم يكن إنساناً، لأنه لم يعد يتمكن من الاختيار بنفسه، والإنسان هو الذي يتمكن من أن يقول «أنا»، «نفسي»؛ الإنسان هو الذي يستطيع القول: «أنا اخترت هذا لهذه الأسباب»؛ الذي بإمكانه أن لا يختار، إلاّ أنه يختار، هذه المرحلة، هي مرحلة كينونة الإنسان.

يقول المولوي (الشاعر الفارسي):

أين كه گوئى اين كنم يا آن كنم
آن دليل اختيار است اى صنم
إنّ قولك اعمل هذا أو اعمل ذاك
هو دليل الاختيار يا حبيبي

ولكن المذهب الإجتماعي يقول: إن نفس هذا الترديد أوجده المجتمع فيك أيضاً، وإن بعض عوامل علم الإجتماع والعوامل الإجتماعية هي التي تدعوك إلى اختيار هذا، وبعض عوامل المحيط الأخرى تحرّضك على اختيار شيء آخر ولما

كنت مبتلياً بقسمين من العوامل الإجتماعية حصل عندك الترديد.

هناك الآن مجموعة مترددة بين أن يكونوا متدّينين أو غير متدينين، ما الذي يختارون، الدين أو اللادين؟ يقولون: إن هذا الترديد لم يكن بسبب أنك تتمكن من اختيار الدين أو اللادين، وإنّما هو بفعل عدد من العوامل الإجتماعية تريد أن تجعلك متديّناً، وعدد آخر من العوامل الاجتماعية التي جاءت من الغرب ودخلت تواً في نظام مجتمعنا الإجتماعي ولها وجود فيك أيضاً، تريد أبعادك عن الدين. وبناء على هذا، فأنت الآن لعبة بيد هذه العوامل، فلو اخترت الدين، يتضح انتصار العوامل الإجتماعية الدينية فيك، وإذا اخترت اللادين، يتضح أن العوامل المستوردة فاقت العوامل التقليدية. إذاً أنت لعبة التصميم التي اتخذها فيك نظامك الإجتماعي، إذاً «أنت» لم يكن له وجود، «أنا» لم يكن له وجود.

الجبر الأخير هو الجبر البيولوجي، أيّ أصالة علم الإحياء. يسعى هذا المذهب لأن يسمو بالإنسان إلى حدٍّ ما من إطار المادية الجاف المتحجر؛ وهو دليل على أن علماء القرن العشرين لم يعودوا يتمكنون من أن يفهموا الإنسان من خلال تعريف مادية القرن التاسع عشر والثامن عشر والسابع عشر، الجاف الضيق أو يبرروا ذلك، المذهب البيولوجي ـ أصالة علم الإحياء ـ عبارة عن أصالة مجموعة من مميزات الإنسان

الفيزيولوجية (البدنية) والسيكولوجية (النفسية) التي تصنع الإنسان في نسيج متكامل ومعقد جداً، وكل شخص يعيش على أساس القوانين التي تصنعها البيولوجيا.

صحيح أن مستوى المذهب البيولوجي أرقى من مستوى المادية (المذهب المادي)، والطبيعية (المذهب الطبيعي)، ويعترف للإنسان أسمى من أن يكون ظاهرة مادية أو طبيعية، إلاّ أنه ينكر أيضاً أن يكون الإنسان موجوداً واعياً حراً، عندما أقول «أنا»، أنا لعبة غير واعية وتابعة لمميزاتي البيولوجية؛ إذاً أنا غير موجود.

إنه يقول: الإنسان النحيف مثلاً يكون ذكياً، والإنسان البدين يكون عطوفاً[١]. إذاً يتضح من ذلك أن الذي يبدي ذكاءاً لم يكن الذكاء من عنده وإنّما يرجع لوزن بدنه؛ والذي يبدي العطف والشفقة علينا ألا نشكره لأن عطفه يرجع إلى سمنته وليس لنفسه الإنسانية، شكل بنائه البيولوجي اقتضى ذلك وأنه لا يتمكن أبداً من عدم ابداء المحبة إلينا.

هكذا نرى، أن المذهب البيولوجي، في الوقت الذي يسمو بالإنسان المعاصر إلى مستوى رفيع جداً، بخلاف القرن التاسع عشر، نرى فيه أيضاً أن ذلك الإنسان الشبيه بالإله، والذي كان

---

(١) لم يكن الموضوع هذا جديداً، وإنّما هو عند القدماء من العوام موجود في معتقداتهم وفي ثقافتهم.

هدف الدين وغايته كما قلت في البداية، قد أصبح مجحوداً.

لقد اتضحت الآن السجون الأربعة التي تحدثت عنها، ماهي، وبإمكاننا تلخيص مجموعة هذه المدارس المختلفة في أربعة أنواع من الجبر:

الأول: الإنسان الواعي المبدع ذو الإرادة سجين الجبر الأول، جبر الطبيعة، ذلك الذي يستند عليه المذهب الطبيعي كثيراً، وهو صحيح إلى حد كبير.

الثاني: جبر التاريخ، ذلك الذي تستند عليه فلسفة التاريخ.

سئل «أمرسون» ما التاريخ؟ فقال: أي شيء لم يكن تاريخاً؟ كل ما موجود هو صنيع التاريخ. أصالة التاريخ، عبارة عن أن تأريخي هو صانع كيفيتي وماهيتي أنا الإنسان، ولم يكن تاريخي ملكي؛ إذاً أنا لم أكن ملك نفسي.

الثالث: السوسيولوجيا، أصالة المجتمع. النظرية التي تقول: ليس للفرد وجود، المجتمع هو الذي يصنع الفرد.

في الواقع، أنا لا أُريد أن أنكر المذهب الطبيعي، ولا المذهب الإجتماعي، ولا مذهب التاريخ، أنا أقبل هذه الثلاثة، أقبلها بهذا المعنى، هو أن الإنسان هو الموجود ـ وموضوعي الرئيسي هو هذا ـ يتمكن من الاختيار، إن هذا الموجود، على طول تاريخ تكامله، هو في الراقع ظاهرة طبيعية ومادية، هو في

الواقع ظاهرة من صنع التاريخ، هو في الواقع صنيعة ما صنعه محيطه ومجتمعه.

في مجتمع قَبَلي، إن شكل الحياة القبلية يترك خصائل روحية وفكرية على الأفراد، وأن الذي يعيش بصورة قبلية، لم يكن هو الذي اختار هذا الشكل من الحياة، لم يكن أحد قد اختار هذا وإنما النظام الإجتماعي والانتاجي الخاص هو الذي اضطرهم إلى أن يعيشوا حياة البداوة والصحراء، نظامهم الإنتاجي هو الذي يقتضي ذلك.

وكذلك النظام الطبيعي، فقد صار سبباً في أن يبادر عدد آخر إلى الصيد فيكرنوا صيادين ويعيشوا في الغابات، أو أن تكون للقبائل ميزات أخرى، ومن ثم يدخلون في مرحلة الزراعة، وفي مرحلة الزراعة يجدون الإستقرار، وعندما يسكنون في الريف أو المدينة تختلف بعد ذلك مميزاتهم، علاقاتهم، تقاليدهم وأخلاقهم ومعنوياتهم، وهذه الاختلافات والفروق لم تكن بسبب وجود اختيار في العمل، وإنّما هو بسبب نظام الإنتاج الذي اقتضى أن تكوذ هذه المميزات.

أي أن البشر في الواقع هم بتلك الصورة التي صنعتها الطبيعة، وفي الواقع هم بتلك الصورة التي صنعها التاريخ، وفي الواقع هم تلك الصورة التي صنعها المجتمع، وإذا أنت غيّرتَ المحيط فإن الإنسان سيتغير.

كان أحد فناني طهران، الذي يعمل في تصميم نقوش السجاد، وهو فنان كبير جداً، يقول: دعيت لأذهب إلى السجن وأدرّس المساجين حياكة السجاد، (لاحظوا بدقة قابلية الإنسان واستعداده التربوي وتأثير العامل الخارجي فيه)، يقول: لقد اشترطت على مسؤولي السجن فيما لو علّمت أحداً أن يحوك سجاداً فنياً ظرفياً وأصبح فناناً جيداً، وطلبت له العفو، عليكم أن توافقوا، فوافقوا على شرطي؛ وكان أكثر الذين كنت أعلّمهم من السجناء الجنائيين، الذين كانت الجريمة والعنف ظاهرة في أعينهم، جئنا بهم، وبدأنا بتعليمهم فن حياكة السجاد.

إن حياكة السجاد عمل ظريف تؤديه كل من العين وأطراف الأنامل بتلك الظرافة التي تحاك بها النقوش ولطافة معرفة الألوان، بحيث عليه أن يعرف الألوان جيداً، ويعرف تركيب الألوان وهذا الجمال الموجود في نقش السجاد الفني الظريف؛ كان يتعلّم ثم يحوك، وكان يبدع، كان يؤدي كل هذه الأعمال برقة ولطافة إلى حد بحيث هذا الإنسان الذي ربما كان يلتذ بالقتل والدم، هو نفسه أصبح ـ بعد مدة من عمله بهذا الفن ـ صاحب لطف روحي بحيث عندما كنا نجلس أحياناً مجتمعين وأقرأ لهم الشعر، الشعر العرفاني ـ مثلاً ـ كنت أرى قطرات الدموع تتقاطر بهدوء من مآقي هذا الإنسان.

فالروح العنيفة الصعبة تلك أصبحت لطيفة ورقيقة إلى حد.

فالعامل الخارجي هو الذي كان قد فرض عليه ذلك العنف، وكان نظامه الإجتماعي يختلف؛ والآن عندما تغيّر محيطه أوجد فيه هذه الرقة واللطافة، فلا يجب شكره على هذه الرقة، ولا يجب الحكم عليه في ذلك العنف، هذا هو المذهب الإجتماعي، وهو صحيح أيضاً.

أنا لا أُنكر تأثير المذهب الإجتماعي، أو المذهب المادي، أو المذهب الطبيعي أو المذهب التاريخي، على الأنسان، أُريد أن أُثبت ذلك، أؤيد ذلك، ولكن ما أُريد أن أقوله هو أن الإنسان وعلى طول «صيرورة» تكامله، على طول انتقاله من كينونته البشرية إلى صيرورته إنساناً، يتمكن من التخلص من هذه الأنواع من الجبر والنجاة منها.

مثلاً، إن أصالة الجغرافيا التي كانت لها أهمية كبيرة في علم الإجتماع في القرن التاسع عشر، وحتى أن ابن خلدون كان يقول: إن كل مجتمع يعيش بالشكل الذي تقتضيه جغرافيته الطبيعية ـ وكان صادقاً ـ، ولكن اليوم لم تكن كذلك، فالإنسان اليوم يتخلص من أنواع الجبر هذه بالمقدار الذي يتكامل فيه، في ذلك البعد.

لم أقصد أن هذه الأنواع من الجبر ليست موجودة، أو أنها ليست مؤثرة أساساً، وإن الإنسان كان يعيش دائماً على طول

تاريخه كما كان يريد ويختار ويصنع؛ بل أُريد أن أَقول أن هذا الإنسان الذي هو أسير السوسبولوجيا كالحيوان، أسير المذهب الطبيعي والمذهب التاريخي، عندما يكون في حال صيرورة الإنسان يتحرر من أنواع الجبر هذه بالتدريج.

حسناً، كيف يتخلّص من المذهب الطبيعي؟ يمكن أن نفهم هذا أوضح من البقية، وذلك لأننا الآن في قرن الخلاص من المذهب الطبيعي.

أحد أنواع جبر الطبيعة علينا كان الماء والهواء؛ كنا نعيش في الصحراء القاحلة، وكان ماؤها وهواؤها يضغطنا بين طياته، وعلى ساحل البحر كنا بشكل آخر، في الشرق بشكل وفي الغرب بشكل آخر، والظروف الجبلية كانت تختلف لنا ولتنشئنا بصورة مختلفة، ولكننا اليوم نرى أن الصناعة والحضارة الحديثة، تُحرر الإنسان كل يوم من حتمية وجبر ظواهر الطبيعة وقواها بصورة أكثر.

فالإنسان الذي يعيش اليوم في الصحراء الإفريقية يتمكن ـ بالرغم من الظروف الطبيعية التي فرضت عليه جبراً ـ أن يهيىء لحياته ظروفاً مناسبة، ويصنع لنفسه مدناً حديثة، ويعيش فيها كما يعيش الأمريكي في أمريكا الشمالية، وهذا يدل على أن الإنسان يتمكن من النجاة من جبر الجغرافيا أو الجبر الطبيعي بالمعنى الأعم.

كان أحد أنواع جبر الإنسان جاذبية الأرض التي كانت تلصقه بالأرض دائماً، وكانت جاذبية الأرض طبيعية بالنسبة لنا إلى حد بحيث كنا نعتبرها جزءاً من أجسامنا، وكنا نتصور أننا نحن الذين نلتصق بالأرض بسبب وزننا، وكنا نعتبر الوزن جزءاً منا أيضاً، ولكن اليوم نرى أن هذا الجدار الجبري، الذي كان يحدد تحليقاً إلى ثلاثة أمتار أو أربعة، كيف انكسر ببساطة وكيف يكسرونه في كل لحظة، ولم نعد بعد أسرى جاذبية الأرض. لم نكن اليوم أسرى جبر الإنتاج الزراعي الإقليمي. نرى أن هذه الجدران تنهار الواحد تلو الآخر، وأننا نخرج من أنواع الجبر هذه بالمقدار الذي تتقدم فيه الحضارة والتكامل.

فالإنسان الذي كان يتمكن من العيش في ظروف خاصة على شاطىء النهر والغابة وأمثالها، بحيث تتوفر له فيها المياه والظروف المناسبة، ولو لم تكن هذه الظروف لكان يموت، يتمكن اليوم من أن ينشىء حضارة صناعية عظيمة في قلب الصحراء القاحلة التي يخشى حتى النبات من النبت هناك، هذا هو الخروج من جبر الطبيعة.

بأي واسطة يخرج الإنسان من جبر الطبيعة؟ بواسطة معرفة جبر الطبيعة والقوانين السائدة على الطبيعة، وتأثير القوانين الجبرية الطبيعية على الإنسان؛ معرفة هذه الأمور بالعلم. ومعرفة الطبيعة، أو العلم، منح الإنسان صناعة التكنولوجيا،

عن طريق قابلية الإبداع والمعرفة العلمية التي تهديه وترشده، والتكنولوجيا لها عمل واحد فقط، وهو أن تخلص الإنسان من جبر الطبيعة.

كثيراً ما يهاجم التكنيك والتكنولوجيا بأنه مسخ الإنسان وضحى به ـ وهذا صحيح أيضاً ـ ولكن التكنيك هو الذي يتمكن من نجاة الإنسان.

كان الإنسان مضطراً للعمل ليلاً ونهاراً، عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة، ليؤمن غذاءه وكساءه وبيته، كان عليه أن يعمل جبراً، كان هذا هو الجبر الأول، الجبر الطبيعي.

فالتكنولوجيا رفعت مستوى الإنتاج، وقللت ساعات العمل من اثنتي عشرة ساعة إلى ساعة واحدة، وحررت الإنسان إحدى عشرة ساعة، إلاّ أننا نرى أيضاً أن الإنسان ـ اليوم ـ الذي يستفيد من التكنولوجيا يعمل أكثر من الإنسان الماضي فاقد التكنولوجيا، ولم يكن هذا الأمر بسبب الصناعة، وإنّما هو بسبب البورجوازية، التي فرضت على الإنسان الإستهلاك الذي يفوق انتاج الصناعة، والذي يتزايد باطراد يوماً بعد يوم.

إذاً، التكنيك يدٌ تنجي الإنسان، بمساعدة العلم، من جميع العوامل الكثيرة جداً التي تهدد حرية الإنسان وتأسره في جبر القوانين الجغرافية والقوانين العلمية والقوانين الطبيعية.

كيف يمكن النجاة من جبر التاريخ؟ لو استطاع الإنسان أن يحس ويفهم من أنه في الواقع لعبة بيد قدرة عظيمة باسم التاريخ؛ وإذا تمكن بمساعدة علم التاريخ وفلسفة التاريخ من اكتشاف حركة التاريخ والقوانين السائدة عليها؛ وإذا استطاع أن يكتشف أية عوامل للتاريخ وكيف أنها تؤثر في بنائي ـ «أنا» الإنسان أو نحن الناس ـ الفكري، الإرادي، الشعوري، والأخلاقي، فعندها يتمكن الإنسان من أن يجد طريق نجاته من السجن الثاني الذي هو التاريخ.

ونحن نرى الآن أن الإنسان قد وصل إلى هذه المرحلة إلى حد ما، حيث نعرف الآن في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية مجتمعات قد اجتازت عدة مراحل، بالنسبة لسير الحركة التاريخية، بقفزة واحدة وبدون أن تطوى هذه المراحل، أيّ بلحاظ المراحل التاريخية، يجب على هذا المجتمع أن يصل ـ خلال قرون ـ من المرحلة الأولى إلى الثانية، وبالتالي يجب أن يصل إلى المرحلة الثالثة جبراً، وبعد ذلك يصل جبراً إلى المرحلة الرابعة وهكذا، هذه هي حركة تاريخ المجتمع.

مثلاً هذا المجتمع في أية مرحلة؟ في المرحلة الثالثة، حسن جداً، إذاً فمن الواضح أنه يجب أن يصل إلى المرحلة الرابعة جبراً، ثم إلى الخامسة، وبعد ذلك إلى المرحلة السادسة.

ولكن نفس هذا المجتمع، بالحدّ الذي يحصل فيه على

الوعي التاريخي، وبالحدّ الذي يعرف مثقفوه هذه المرحلة التاريخية الخاصة، أنها كيف تكون، وصنيعة أي جبر تاريخي، يتمكن هذا المجتمع، بقفزة واحد وبدون أن يطوي المرحلتين الرابعة والخامسة، أن يصل إلى المرحلة السادسة. هذا هو الخروج والفرار من سير العليّة والمعلولية الجبرية الحاكمة على حركة التاريخ طيلة حياة المجتمع، وعلى المجتمعات جميعاً طي هذه المراحل ـ جبراً ـ للوصول إلى المرحلة السادسة.

كانت المجتمعات تتحرك بهذا الشكل، وعلى أساس حركة التاريخ هذه، على طول التاريخ دائماًولكن إنسان العصر، وبالقدر الذي يحصل فيه على الوعي التاريخي، يعرف التاريخ، يكتشف حركة التاريخ، ويتمكن أن يتجنب حركة التاريخ الجبرية هذه، ومن ثم يختار إحدى هذه المراحل التاريخية التي يريدها.

ولهذا السبب، نرى أحياناً في دنيانا هذه، بعض المجتمعات التي كانت تعيش في المرحلة البدائية، قبائل تسكن الأخبية الرقّيّة، فجأةً وبثورة على التاريخ، أوصلت نفسها إلى مرحلة متقدمة أعلى من المرحلة البورجوازية.

هذا هو التمرد على التاريخ، هذا هو الإنطلاق، إطلاق المجتمع من جبر التاريخ وبفضل معرفة جبر التاريخ، حركة التاريخ، واكتشاف قوانين التاريخ الجبرية.

الثالث: الجبر السوسيولوجي (الاجتماعي). نشاهد ـ أيضاً ـ في الماضي، أن كل فرد ينشأ بالشكل الذي يقتضيه مجتمعه، ولكن اليوم بالعكس من ذلك، ينشأ بالقدر الذي يتسع فيه علم الاجتماع، بالقدر الذي يكتشف فيه العلاقات الإجتماعية والعلاقات الطبقية؛ بالحدّ الذي يفهم فيه فلسفة السياسة والحكومة، وبالقدر الذي يحصل فيه على الوعي الإجتماعي، وعلى حد قول «ياسبرس»: الاناس صنايع المجتمعات، يتحولون إلى أناس يصنعون المجتمعات.

عندما كنتم تنظرون في الماضي إلى مجتمع قبلي، أو مجتمع إقطاعي، أو مجتمع ريفي متخلف، لم يكن لدى أفراد ذلك المجتمع أقلّ شك حول نظام حكومتهم، نظام دينهم، عقائدهم وتقاليدهم، ومن غير الممكن أن يكون لهم ذلك. كانوا يعتبرون هذه الأمور أبدية لا تتغير سرمدية وجبرية سائدة على كل شيء، كالشمس، كالسماء تماماً من غير الممكن أن يخطر ببالهم أبداً أنه من الممكن أن يكون دينهم خاطئاً، إذاً ليختاروا ديناً آخر، أو أن هذا النظام، أو هذه القوانين التي يجريها رئيس القبيلة أو الآخرون، من الممكن أن تكون غير صحيحة ويمكن التمرد عليه، يمكن إحتلال القصر، ويمكن الحياة بصورة أخرى؛ لأنهم كانوا قد نشأوا بالصورة التي رسمها لهم نظامهم الإجتماعي وهم يفكرون على ضوئها.

أما إنسان اليوم فإنه يتمكن من اختيار دينه بصورة واعية، كما يمكن رفضه بصورة واعية.

الديني هو أحد العوامل والقوى التي يعرضها المجتمع على الفرد أو يفرضها عليه. أما إنسان اليوم، وفيما يخص الدين والنظم الإجتماعية الحاكمة عليه دائماً، فهو مخيّر، يتمكن من الرفض، يتمكن من الاختيار، من الشك فيه.

فالنظم الانتاجية، والنظام الاقتصادي، ونظام الملكية، والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، والعلاقات الطبقية، والقوانين العائلية ومزاياها، والمجاميع الإجتماعية، كلّها لم تعد كما في الماضي أمام إنسان العصر الواعي، على أنها واقعيات أزلية أبدية لا تتغير، وسائدة ومقدسة وسماوية ومنزلة من عالم الغيب؛ لا، بل هي ظواهر بجانب الإنسان يتمكن من التفكير حولها واتخاذ القرار، يختار أو يرفض. ونرى أنّهم يرفضون ويختارون آخر، يغيرون، يصلحون، ويحدثون انقلاباً، يغيرون الزي والقيافة، يغيرون الدين. كل هذه الأمور تدل على أن إنسان العصر قد حصل إلى حد ما على حريته من السجن الثالث الذي هو سجن المجتمع، وكل يوم يمر فهو في طريقه للحصول على المزيد من حريته.

هذا التخلص من قيد النظام الإجتماعي الحاكم حصل عليه

الإنسان بواسطة علم الإجتماع، بواسطة العلوم الإجتماعية، بفعل دراسة ومقايسة النظم الإجتماعية.

وهكذا نرى أن الإنسان يتمكن من التخلص من السجن الثالث أيضاً بواسطة تكنيك المقاومة الإجتماعية، كالتكنولوجيا والماكنة ـ تماماً ـ التي هي وسيلة لمقاومة الطبيعة، لأن الإيديولوجية مثل التكنولوجيا، تقاوم النظم الإجتماعية بواسطة علم الإجتماع وعلى أساسه.

إذاً، حصل الإنسان على وعيه وإرادته وإبداعه بواسطة معرفة الطبيعة، أي العلم، من السجن الأول، سجن الطبيعة. ويحصل على حريته من السجن الثاني، المذهب التاريخي، بواسطة معرفة فلسفة التاريخ واستخدام جبر التاريخ، أي علم التاريخ. وينال الأفراد بالعلم أيضاً حريتهم من السجن الثالث، السوسيولوجيا، سجن النظام الإجتماعي، فيخططون نظامهم الإجتماعي.

السجن الرابع هو أسوأ السجون، والإنسان في مقابله أعجز سجين، ذلك هو سجن «النفس»، نفس الإنسان، ومن الغريب أننا نرى أن الإنسان ـ طيلة التاريخ ـ قد أمّن خلاصه من السجون الثلاثة هذه يوماً بعد آخر، وتحرر أكثر من أي وقت مضى من أنواع الجبر الثلاثة هذه، وسيطر عليها أكثر من أي وقت. إلاّ أنه على العكس من ذلك نرى الإنسان أعجز من أي

وقت مضى مقابل السجن الرابع، أي جبر «النفس»، سجن النفس، حتى أعجز من العصور التي لم يكن الإنسان يمتلك فيها التكنولوجيا ولم يتعرف على العلوم الطبيعية، ولم يعرف علم الإجتماع وفلسفة التاريخ.

وبعد كل هذا، هاهو إنسان العصر، سجين الجبر الرابع، صيّر الخلاص من السجن الأول والثاني والثالث، تفاهة وعبثاً لا فائدة فيه. فالإنسان المتحرر من سجن الطبيعة والتاريخ والمجتمع، يصل اليوم إلى التفاهة، لماذا؟

لأن الإنسان، سجين السجن الرابع، حتى وإن تخلّص من السجون الثلاثة، فهو أول شقائه، لأن ـ وعلى حد تعبير أحد الكتّاب ـ: ليس هناك ألم «ما أدري ماذا أعمل» بالنسبة للإنسان المحكوم بجبر ما، لأنه لا يتمكن من أي عمل. أما إنسان العصر الذي له هذه القدرة أكثر من أي وقت، لا يدري أقل من أي وقت «ماذا عليه أن يعمل». لأن هذا الشخص، الذي يجب عليه أن يتخلص من هذه السجون الثلاثة، فيكون مسيطراً على الطبيعة، مسيطراً على التاريخ وعلى تقرير مصير البشرية وتقدير مستقبلها، أو يكون مسيطراً على مجتمعه، هذا الإنسان عاجز وأسير سجن نفسه.

لماذا لم يتمكن من الخروج من سجن نفسه؟ لأن الخلاص من هذا السجن مشكلٌ، مشكلٌ لأن السجون الثلاثة الأولى لها

أربعة جدران تحيط بوجودي، وأنا عندما كنت سجيناً لها كنت أعي سجني، وكنت أعلم أني لا أتمكن من القفز لقوة الجاذبية، كنت أعي ذلك، حتى عندما كنت بدوياً كان لي هذا الوعي، كنت أعلم أن هذا المكان كالنهر، وعليَّ أن أكون صياداً، وهذا المكان هو غابة فحسب، فأنا مضطر إلى الصيد، كنت في الماضي أشعر بأنواع الجبر هذه.

إلاّ أن الجبر الرابع، لم يكن جداراً حول وجودي، بل هو سجن أحمله معي، لهذا فإن وعي ومعرفة هذا السجن أكثر إشكالاً من الجميع، السجن والسجين هنا واحد، المرض والمريض أصبحا واحداً، ولهذا فإن الشفاء من هذا المرض أمرٌ صعب.

والصعوبة الأخرى هي أن الإنسان يتمكن بالعلم من الخروج من سجن التاريخ، يتمكن بالعلم من الخروج من سجن الطبيعة، ويتمكن بالعلم من الخروج من سجن النظام السائد على الأصول الإجتماعية، ولكن ـ مع الأسف ـ لا يتمكن بالعلم من الخروج من سجن نفسه؛ لأن هذا العالم هو نفسه سجن، ونفس هذا العلم هو علم سجين. ولهذا فإن هذا «النفس» يقول: أنا لا أشعر بأن هناك حرية مدفونة فيَّ، هو يشعر ـ باعتباره نفساً ـ بأنه إنسان مطلق، عليه أن يتخلص من سجن الطبيعة والتاريخ والمجتمع، يتخلص منها، إلا أنه يصل إلى العبث والتفاهة.

أُريد هنا أن أعرض معادلة. هناك قانون يصدق، منذ خلق آدم وعلى طول تاريخ البشر، وحتى الآن، الإنسان في حياته المادية يطوى هذه الطريق، حياته المادية فقط وفقط، وهي: الإنسان محتاج في البداية، ومن ثم يصل إلى الرفاه، ثم ينتهي الرفاه إلى التفاهة، والتفاهة تنتهي إلى التمرد، وبالتالي ينتهي التمرد إلى التمسك بالزهد والتمسك بالذهنيات.

الوجودية وهيبيّة العصر هي هذه، ارستقراطيتنا القديمة التي تمسكت بالتصوف، هي هذه. وفي الهند فإن نبلائية الهند الصينية التي وصلت إلى تلك الصوفية العرفانية المتمكنة من رفض الحياة المادية، هي هذه أيضاً. والبورجوازية الحديثة، التي وصلت اليوم إلى رفض الإستهلاك والحياة المادية لجيل البشرية الجديد، هي هذه أيضاً، ومن غير الممكن أن تكون غير هذا.

وطالما كان الإنسان يثمن امنياته المادية اليومية، والتي لم يحصل عليها وعندما يصل إليها يصل إلى التفاهة والفراغ، فإنه يجب أن تكون أمنية الإنسان سامية بحيث لا تتوقف عند حد ابداً، لأنه إذا حصل وإن توقفت فإن توقفها سيؤدي بها إلى العبث والتفاهة، ومن الطبيعي فإن الإنسان، السجين في جبر نفسه، حتى إذا سيطر على الطبيعة فإنه مسلح عاجز.

يقول «جون ايزوله»: كان أحد الكتّاب يتحدث عن بطل

قصته وهو أحد الأمراء المدجج بالسلاح والذهب ولكنه كان يعاني من ألم داخلي لا دواء له، يقول: إن فرنسا اليوم مثل هذا الأمير، ولكن لا، إن إنسان اليوم هو الذي يشبه هذا الأمير المسلح المكلل بالذهب، والذي هو أعجز من أي وقت.

هناك في وسط ساحة «امستردام» في هولندا، تمثال كبير يلفت النظر منحوت من الصخر، وإن مفاصل هذا التمثال تنحرف عن بعضها، مثلاً، عنقه قد انحرف قليلاً إلى هذه الجهة، ومرافقه صار إلى جانب عضده قليلاً، وكذلك ركبته، معصمه... بحيث عندما ترى هذا التمثال من بعيد، تخشى عليه كأنما إذا هبت ريح خفيفة سينهار على بعضه، في حين أن التمثال قد صنع من الصخر. أراد النحات أن يجسّم الإنسان بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن هذا التجسيم يمثل إنسان العصر، الذي هو أقوى من أي وقت وصار بقوة الصخر، إلاّ أنه يخشى عليه من الإبادة أكثر من أيّ وقت.

لماذا هو هكذا؟ لأن الخلاص من السجون الثلاثة أعطاه هذه القوة العظيمة بحيث لم يكن الإنسان مقتدراً إلى هذا الحد في أي وقت آخر؛ ولكن نفس هذا الإنسان، الذي يتمكن من هنا أن يقصف المريخ، نفس هذا الفنان والعالم الكبير الذي يتمكن من هنا هداية مركبة معقدة إلى القمر أو إلى الفضاء اللامتناهي، أن نفس هذا الإنسان هو موجود ضعيف بحيث لو

أُضيف إلى راتبه الشهري مائة تومان من جهة أُخرى، فإنه سيذهب إلى هناك ويعمل ضد عمله هنا.

سمعت أن الرقية لا زالت موجودة في بعض مناطق أفريقيا، يأخذون بعض أفراد القبائل المنحطة شبه الوحشية من هناك ويبيعونهم في مكان آخر. ولكن الرقية التي رأيتها بأم عيني هي في الغرب نفسه، في جامعة كمبرج وفي جامعة «السوربون» لا في أسواق بيع الرقيق السوداء، وهم أيضاً ليسوا بعدد من الأفراد البدويين الوحشيين، كنت قد رأيت أرقى الأدمغة الإنسانية جاءوا بها إلى السوق ينادون ببيعها، أنت كم تعطي؟ أنا، يا سيدي أعطي خمسة عشر ألف تومان، وذلك يقول: أُضيف سيارة على ذلك، والآخر يقول: أنا أُضيف لذلك سائق السيارة، وهو ينظر إلى هذا السيد وإلى ذلك السيد، في حال الترديد، وبالتالي يختار واحداً منهم، الذي أعطى أكثر من غيره، لماذا؟ لأن هذا الإنسان أسير، هذا الإنسان، هو ذلك الفرد الذي يريدون أن يعطوه مائة ألف تومان، ويلتمسون منه أن يجيء.

الإنسان الذي يتمكن من إخراج المجتمع من سجن الطبيعة هو هذا المنظّر أو العالم الإجتماعي الذي يتمكن من إخراج الإنسان من سجن المجتمع، وهو نفس هذا الفيلسوف الذي يتمكن من إخراج الإنسان من سجن التاريخ، ولكننا نراه هو

نفسه عاجز عن نفسه إلى أي حدّ، بحيث أصبح كالرق، والرق لا يتمكن من أن يمنح الخلاص للإنسان، وهو نفسه لم يتمكن من الخلاص بخلاصه من تلك السجون الثلاثة.

أصل القضية هو أن هذا السجن لما كان جزءً من نفس الإنسان فإن الإنسان لم يتمكن من التمرد على نفسه، ولما كانت تلك السجون الثلاثة خارجة عن سجن نفس الإنسان العالم، لذا فهو يتمكن من الخروج منها.

هكذا نرى، أن الخلاص من هذا السجن لم يعد ممكناً بواسطة العلم.

إذاً ماهي الوسيلة للتحرر من هذا السجن؟ بالحب، ما معنى الحب؟ لا أعني الحب الصوفي والعرفاني وأمثالهما، التي هي أيضاً سجون أخرى، الحب بهذا المعنى، قوة قادرة أسمى من العقل الحاسب المصلحي، يجب أن تكون في ذاتي أنا الإنسان، في داخل فطرتي، تفجرني وتثيرني على نفسي من الداخل، وإلاّ فلا يمكن ذلك بالقوانين الطبيعية، يجب أن يكون التمرد من الداخل، وإلاّ فلا يمكن ذلك بالقوانين الطبيعية. يجب أن يكون التمرد من الداخل، لأن السجن الرابع جزء من باطني، يجب أن أنفجر من الداخل يجب أن ألتهب.

كيف؟ لماذا على صورة التهاب؟ لماذا لم يمكن الخروج

من السجن الرابع بواسطة العقل المنطقي، أذكر هنا عين اصطلاح «بارتو» وأوضح ذلك، يقول «بارتو»: الموضوعات على ثلاث صور، إما أن تكون منطقية (لوجيك)، مثلاً، نفس حياتنا هي منطقية، العمل الذي نقوم به، الأجور التي نتقاضاها، الثياب التي نلبسها، الثياب الخفيفة في الصيف، والسميكة في الشتاء، نتزلف ونتملق، نفكر، ندرس، كل هذه الأعمال منطقية لأننا نصل بها إلى نتيجة أيضاً؛ جميع الأعمال التي نؤديها الآن هي منطقية.

النوع الآخر، أعمال غير منطقية، ضد المنطق (ايلوجيك) كالأعمال الصادرة عن المجنون.

النوع الثالث (آنالوجيك)، الذي هو بين المنطق واللامنطق، لأنه أساساً لم يكن من مقولة المنطق، أقوى من المنطق.

والمنطق هو عبارة عن اكتشاف العلة والمعلول لاستخدامه في حاجتي وطلبتي، ولكن الإنسان يضحي بكل هذا من أجل شيء أسمى، مثلاً يجلس على ركبتيه ويصب البنزين على نفسه ويحرق نفسه بكل هدوء ووعي وإرادة لينقذ مجتمعه من النار، هذا الأمر لم يكن منطقياً، لا يريد أي شيء وأية مكافأة، وهذا هو أصل الأخلاق.

والحب هو عبارة عن القوة التي تدعوني بالرغم من

المصالح والمنافع التي قامت عليها حياتي، إلى أن أضحّي بجميع المنافع، بجميع المصالح، وحتى بحياتي ووجودي من أجل وجود الغير، من أجل وجود الآخرين، ومن أجل الأمنية التي أحبها، حتى وإن لم أبقى. وأنا أعمل بذلك، وأُجيب على تلك الدعوة.

إذا كنت لم أكذب عليك، فهو من أجل ألاّ تكذب عليَّ في السوق، أنا لا أحرر صكاً بلا رصيد لأبقي على سمعتي، ومن ثم أتمكن من تداول صكوكي بصورة أموال في السوق، هذه تقوى مصلحية، معاملة على أساس العقل والمنطق.

أما إذا كنتُ لم أكذب، وأنا أرضى بضرري لئلا أكذب، ثم لا أنتظر على ذلك أيّ مكافأة، بل أنا أصدق في كل وقت ولا أكذب حتى ولو أدى ذلك إلى ابادتي، أقول الصدق ولا أُريد شيئاً إزاء ذلك، بل مستعد أن أفقد كل شيء مقابل ذلك، هنا يظهر «أنا»، يظهر الإنسان، بشارة ظهور الإنسان.

أي إنسان؟ ذلك الإنسان الذي اطلع رأسه من السجن الرابع أيضاً، الذي هو طامورة قذرة مدفونة في النفس، وخطى خطواته نحو صيرورة الإنسان، تحت شمس الإيمان والحب.

«نيتشه» فيلسوف عظيم وعلاّمة نابغة، وأحد مفاخر الفكر البشري العظيمة اليوم، ولكن «نيتشه» الشاب إنسان مغرور، يقول: الحق للقوي، والقوة أصالة، ومن هذا القبيل... وطبعاً

هذا هو غرور الشباب، إلاّ أنه في أواخر عمره أضحى لطيفاً عارفاً بالحب والإنسان، وقام بعمل عجيب أكبر من حب الإنسان، نفس هذا الإنسان الذي كان يقول: من يرحم الآخرين عمله هذا دليل عجزه، الرحمة دليل العجز، يجب إبادة الإنسان العاجز الضعيف، كقبائل الاسكيمو الذين يأخذون شيوخهم العاجزين عن العمل ويتركونهم وسط الثلوج لوحدهم حتى يموتون، لأنهم لم يعودوا قادرين على الإنتاج، فهم يستهلكون فقط، والمنطق يجيز لنا أن نبيدهم، صدقوا، هذا العمل منطقي مائة بالمائة.

ولكن انظروا إلى «نيتشه»، كان يجتاز أحد الأزقة، فيرى عربة قد انكفأت بثقل حمولتها على الحصان الذي سقط في مجرى الماء، يحاول الحوذي ـ الذي يظهر منه أن الحصان ليس له ـ أن يوقف الحصان كيفما كان ليوصل حمولته إلى مكانها، حتى لو أدى ذلك إلى الحاق الضرر بالحصان فليس بمهم، المهم عنده هو أن يحصل على اجرته بأسرع وقت، ولهذا فقد انهال بسوطه على الحصان المسكين يضربه بوحشية، والحصان من شدة الضرب كان يحاول القيام في كل مرة إلاّ أن ثقل الحمل يصرعه مرة ثانية ليعود داخل المجرى بحيث جرحت ساقه وكسرت.

عندما يشاهد «نيتشه» هذه الحالة يتأثر ويغضب بشدة،

ويلتمس من الحوذي ألاّ يقوم بهذا العمل، يقول له يجب أن ترفع الأثقال عنه أولاً وبعد ذلك عليك أن تقيم الحصان، ولكن الحوذي لا يصغي إلى هذه الأقوال ولا يعتني بها، ولما كان نيتشه رجلاً عصبياً حاد المزاج، أخذ بتلابيب الحوذي وقال له: لا أدعك تضربه بالسوط، ويرد عليه الحوذي: بأنك طالما تمنعني من ضربه إذاً لأضربك أنت، فيمسي الشاعر الفيلسوف المسكين مورد ضرب وشتم الحوذي، يرفسه برجله رفسة لم يعرف ماذا جرى له بعدها، والخلاصة أنه يذهب إلى داره ويموت على أثرها . . . هكذا يمسي نيتشيه ضحية، ويباد. وكل من يسمع هذه القصة ـ كما نسمعها نحن الآن ـ يواجه تناقضاً في نفسه.

في «انا» كل فرد منكم، هناك نفران أحدهما قد تهيج من كل هذا الجمال الذي تتحلىٰ به روح نيتشه ومن هذه العظمة الأخلاقية والروحية والعاطفية بحيث يضحي بنفسه من أجل مساعدة حيوان، من أجل أنه لم يتمكن من تحمل رؤية جريمة وفاجعة.

أما الآخر فهو يضحك ويقهقه على هذا الإنسان، وعلى هذه الحادثة الحمقاء البعيدة عن المنطق، بحيث تمت التضحية بنابغة من نوابغ البشر العظماء من أجل بقاء حصان العربة.

ولكنها ليست حماقة، ليست بعيدة عن المنطق، وليست

منطقية أيضاً، هي بين هذا وذاك، اسمى من التحليل المنطقي، وهذا هو كل الأخلاق. والحب هو هذا أيضاً.

إذا قمنا باختيار ما لسد بعض احتياجاتنا، إذا احببنا شخصاً من أجل أن يحبنا هو أيضاً، أو أحببنا شخصاً لسد بعض حوائجنا، أو إذا أحببنا شخصاً وكان حبنا له يوفر لنا بعض الإمكانيات، كنا قد أجرينا معاملة أخذ وعطاء.

الحب هو عبارة عن إعطاء كل شيء من أجل الهدف والغاية دون طلب أية مكافأة، هذا الإختيار اختيار عظيم، أي اختيار؟ أن يختار الموت لنفسه ليعيش شخص آخر، ولتعيش غايته أو تتحقق أُمنيته.

هذه هي المرحلة الرابعة التي يضحي فيها الإنسان بنفسه. الإنسان الذي وصل إلى مرحلة «الإيثار»، الكلمة التي تحمل معنى جماً والتي ليس لها وجود في أية لغة أخرى، الإيثار هو أن يؤثر الإنسان شخصاً آخر على نفسه، هذا هو الإيثار، تفضيل الآخر على النفس، حتى عندما يكون هناك تفاضل بين روحك وروح شخص آخر، فإنك تؤثر روح الشخص الآخر أو الآخرين على روحك، يُبقي عليه ويبيد نفسه.

يتضح هنا أن الإنسان قد اختار من بين موتين موتاً واحداً وهو موته، سواء كانت موت نفسه أو موت فائدته أو موت اسمه

أو موت سعادته أو موت راحته، أيّ منهم كان سواء في ذلك رغيفه أو اسمه.

كل إنسان يتمكن بقوة مثل هذا الحب أن يتخلص من السجن الرابع، الذي هو ثقيل ومرعب جداً وداخلي ولا يمكن تطويعه، هذا الحب هو الذي يتمكن من أن يدعونا ـ خارج العقل والمنطق ـ إلى نكران الذات والتمرد على النفس، ورفض الوجود، من أجل هدف ما أو من أجل الآخرين، وفي مثل هذه المرحلة فقط يوجد الإنسان الحرّ، وهذه هي أسمى مراحل صيرورة الإنسان.

وخلاصة بحثي:

أن ذلك الإنسان المحرّر، المبدع، والمختار الواعي، يتحرّر بالعلم من سجن الطبيعة، وبالعلم يتحرر من سجن التاريخ، وبعلم الإجتماع يتحرر من سجن النظام الإجتماعي؛ ولكنه يتحرر من السجن الرابع بواسطة الحب، وبواسطة الدين.

وهو ما يقوله «رادهاكريشنان»: نحن ـ الناس ـ مدعوون إلى هذا الواجب، إلى مسؤولية الإنسان في هذه الطبيعة، لنقوم بمؤامرة، أيّة مؤامرة؟ المؤامرة التي يقوم بها الإنسان والله والحب، للشروع بخلق آخر وإنسان آخر، هذه مسؤولية الإنسان.

٥ ـ مخروطة علم الإجتماع الثقافي

أيها الاساتذة المحترمون، أيتها السيدات، أيها السادة، أيها الطلاب الإعزاء:

بالطبع، كما تعلمون، أن حديثي لهذه الليلة لم يكن معدّاً من قبل، لأنني لم أكن مدعواً كمحاضر، وإنّما هو إضافة في إطار الحديث الذي تقرر أن أتحدث فيه، وقد عرضت ذلك ليلة أمس أيضاً.

لما كان القرار أن أحضر بعنوان مستمع وليس كمحاضر، وكنا قد اتفقنا أن نجلس ليلة أمس مع الطلاب للمحاورة، لذا فأنا لم أهيىء حديثاً بابعتباره محاضرة لأعرضه عليكم.

على كل حال، فأنا أنتهز فرصة انعقاد مثل هذا المجلس، لأطرح موضوعاً اعتقد أنه سيساعد في معرفة الكثير من المشاكل التي تدور في أذهان الجيل الجديد، فيما يخص الدين، فيما يخص المجتمع، فيما يخص المثقف ودوره في المجتمع؛ كذلك فيما يخص موضوع الشرق لاسيما موضوع المجتمعات

الإسلامية، وعلاقة الشرق والغرب المطروحة على كل حال في هذا العصر، (ونحن أيضاً لنا مثل هذه العلاقة، وعلينا أن نجد لها تبريراً).

الموضوع الذي أُريد أن أتحدث به، هو عبارة عن منهج أو طريقة لتحليل الأحداث التارخية وتبريرها، ودراسة التطورات الفكرية والثقافية في الأدوار المتناوبة لمراحل التاريخ. وكما قلت، هذه طريقة وليست اطروحة، بعكس حديثي ليلة أمس، الذي عنونته باعتباره اطروحة[١].

إن حديثي هو بمثابة طريقة أو قاعدة، فكما أن كل معلِّم يتمكن من وضع منهجاً خاصاً أو طريقة خاصة لتدريس مادته وموضوع درسه، حتى وإن كانت هذه الطريقة خاصة وفردية، وذلك عندما يرى أنه يتمكن من التدريس وحل المسألة بهذه الطريقة بصورة أفضل، تكون هذه الطريقة بالنسبة له طريقة مستحسنة أو منهجاً مفضّلاً.

أنا ـ أيضاً ـ لما كنت معلّماً لتاريخ المدنية، وأدرّس تاريخ الأديان وعلم الإجتماع الثقافي، فقد أعددت طريقة لتبرير التطور الفكري والتاريخي على مر العصور، وتطور مراحل تاريخ ثقافة الإنسان المختلفة، وها أنا ذا أعرضها هنا، عسىٰ أن تكون مورد

---

(١) محاضرة: سجون الإنسان الأربعة.

استفادتكم، لأن كثيراً من الأمور يمكن أن تمرَّ دون أن ننتبه إليها في دراستنا المباشرة للعديد من المواضيع، إلا أننا ومن خلال هذه الطريقة، يمكننا أن ننتبه لها واليوم أُريد أن أتحدث عن هذه المواضيع، التي ننتبه إليها بفضل هذه الطريقة، بمثابة مواضيع جديدة.

خذوا بنظر الاعتبار تاريخ الحضارة هذه، أو تاريخ الثقافات، وتطور الحضارات والثقافات من عصر إلى عصر آخر، وانتقال فترة اجتماعية إلى فترة إجتماعية أخرى. وما أعنيه بالفترة وانتقالها إلى فترة أخرى، هي المجموعة الزمانية الخاصة، والتي تسمى بالدورة التاريخية، التي يكون للإنسان فيها مميزات فكرية ودينية وعلمية وثقافية واجتماعية وحياتية، خاصة ومشتركة، ويتخذ الناس فيها نسقاً واحداً، ونعني بالنسق الواحد هو المميزات التي تتبلور الشخصيات على ضوئها، وتتميز بها تلك الفترة.

وبعد ذلك، فإن عوامل اجتماعية، اقتصادية أو سياسية، أو حوادث تاريخية كالحرب، العلاقات، وأمثال ذلك، تؤدي شيئاً فشيئاً إلى تغيير هذه المميزات، التي هي معالم فترة فكرية، وبعدها يتغير الإنسان الخاص بهذه الفترة وتمحى مميزاته السابقة، ينساها ويتركها، ويحصل على مميزات جديدة.

وبعد عدة سنوات، أو عدة قرون، نواجه إنساناً جديداً،

فكرة جديدة، مشاعر وعواطف ومميزات وعلاقات اجتماعية جديدة، لم تكن موجودة في الفترة السابقة وبهذه الصورة، نعتقد بأن المجتمع في حالة حركة، وأنه قد انتقل من فترة إلى فترة أخرى.

والآن نحن نقف في خضم تضاد (نحن، أخصّ المثقفين والشباب والمتعلمين الذين نحيا على بقعة من الأرض)، نعيش في تضاد حاد وأننا لو أغضضنا الطرف عن هذا التضاد، لو أهملنا اكتشافه، لو أغفلناه ولم نحلله ونفهمه، لو وقفنا أمامه مكتوفي الأيدي ولم نقرر ونفكر في مواجهته، لكنا قد أصبحنا لعبة حوادث الدهر التي يمارسها اللاعبون.

ولكن إذا أحسسنا بأننا في خضم أي تضاد وتناقض قد ولدنا، وعلينا أن نعيش، فإنه يتوجب علينا حل هذا التضاد وأن نقف في مواجهته، ومن ثم أن نختار؛ عندها فقط بإمكاننا ـ باعتبارنا أناساً قرروا بأنفسهم مصيرهم التاريخي ـ أن نسمي أنفسنا ببني الإنسان، ونؤدي دور المثقف المطلوب في زماننا، وإلاّ فسنكون ـ عُمياً غير واعين ـ لعبة تقدير يكتبها كتّاب مصير الإنسان والمجتمعات والأمم، وأن أولئك الكتّاب هم ممن يملك اليوم السلطة والمال في الدنيا.

إن هذا التضاد هو أننا باعتبارنا أُناس ولدنا في هذه اللحظة من التاريخ، وفي هذه البقعة من الأرض، نعيش ونفكر، لنا من

جهة، علاقة وصلة بجماهير شعبنا وتاريخنا وتراثنا الثقافي ودينيا وظروفنا الإجتماعية الخاصة التي نعيشها، وكل هذه الأمور تربطنا بشرق واحد، وبدين واحد بإسم الإسلام، وبتاريخ وتقاليد خاصة وثقافة خاصة[١].

ومن جهة أخرى، فإن نفس جيل الشباب المثقف، ولأنه مثقف ومتنور، ولأن العلوم والدراسات تأتي معلّبة من الغرب، ولأن الأحكام المتنورة كالاطعمة المعلّبة الجاهزة المطبوخة تصل إليه من الإفرنج، فما عليه إلاّ أن يسخنها قليلاً ويفتحها ويتناولها دون أن تكون له يد أو إعمال فكر فيها، وحتى من ناحية النظر والطعم والذوق لا دخل له فيها، وإنّما عليها أن يتناولها.

هذه العوامل، تربطه بما يسمى اليوم بروح القرن العشرين، أو التاسع عشر، أو العصور الحديثة، روح غربية مائة بالمائة، وهي وليدة تاريخ الغرب ومشكلاته وتضاداته وصراع نظامه الطبقي؛ ولما كانت روح الغرب سائدة على تقرير مصير الأرض، فهي اليوم تفرض، وبصورة تلقائية، مميزاتها الفكرية والعقائدية وحتى الذوقية والفنية، على القوميات غير الغربية.

بناء على هذا، فإن لنا ـ من جهة ـ جذور في أعماق شرقنا

---

(١) الرابطة التي تجبر مثقف العصر، وكيفما كان يفكر، أن يعيش في نفس مجتمعه التقليدي الإسلامي الشرقي التاريخي.

وإسلامنا وتاريخنا؛ ومن جهة أخرى، فقد امتدت اغصاننا صوب المطر الذي يأتي من ناحية الغرب، والتي لا توجد أي صلة أو تناسب فيما بينهما. لقد أضحينا بمثابة شجرة، إرتبطنا من الغصون بالغرب، ومن الجذور بالشرق، وفيما بين هذين، أضحى الإختيار مشكلاً لنا؛ ولهذا السبب بالذات، فإن الوعي، وتحليل هذا التضاد اضحى ضرورياً لنا أكثر من أي وقت مضى.

بناء على هذا، علينا، ووفقاً للتضاد والتناقض المبتلين به، أن نتخذ قرارنا. ولما كان المثقف الغربي لم يواجه مثل هذا التناقض أبداً، ولم يكن له رأي فيه، علينا أن نكتشف ونعرض بأنفسنا طريقة الحل.

وهنا تتعين المسؤولية الاستثنائية الخاصة للمثقف المرتبط بالمجتمعات الشرقية لاسيما بالمجتمعات الإسلامية.

هذا هو الحد الفاصل الذي يفصل ما بين المثقف الشرقي ومثقف عالم اليوم، أي المثقف الذي يأخذ قوالب ثقافته من الغرب. وفيما لو كان هناك مثقف شرقي تقولب في القوالب المستورة العالمية، والتي تعرّف باعتبارها نموذجاً للثقافة في العالم، فهو مثقف إلاّ أنه لن يتمكن من أن يلعب أي دور في مجتمعه.

هو متعلم، عالم، ولكنه ليس بذلك الشخص الذي بإمكانه أن يؤدي في مجتمعه ـ باعتباره عضواً واعياً ـ دور النبي في جيله

وعصره ومجتمعه، الذي هو عين دور المثقف. سيكون فرداً عاجزاً أجنبياً ساذجاً غير محنّك، وجاهلاً بالظروف الإجتماعية التي يعيش فيها، والجذور التي يتغذى منها مجتمعه.

هذه هي صلتنا بالشرق من جهة، وهي دينية. ومن جهة فإن صلتنا بالغرب: علمية وبورجوازية مادية، وهي التي تصنع ثقافة العصر؛ وهذا الأمر جعلنا على أعتاب طريق الضرورات الصعبة والتي إحداها المعرفة العلمية الدقيقة للغرب، لا المعرفة السطحية الكاذبة، ولا استهلاك الأحكام المستوردة، كاستهلاكنا للبضائع الصناعية التي أعدّت للاستهلالك.

إنني لا أرفض تقليد الغرب، على خلافالكثير ممن اتفق معهم في الرأي، بل اعتقد أن ما استهلك حتى الآن من الغرب باسم التقليد، هو التقليد الكاذب للغرب، وهو نفس التقليد الذي يريده الغرب لنا، وهو بالطبع غير التقليد الذي نختاره نحن لنصل إلى ما وصل إليه الغرب، ونسير في الطريق الذي سار فيه للوصول إلى ذلك. هناك نوعان من التقليد، أحدهما: تقليد شخص ربيته أنا بحيث يقلدني بشكل أعمى كما أشاء، كتقليد العبد لسيده، ومثل هذا التقليد تقليد اعمى ودقيق، دون قيد أو شرط، ودون لماذا وكيف.

في مثل هذا التقليد، السيد المالك هو الذي يحدد مميزات التقليد ويفرضها عليه، وإن العبد أو الخادم كلما كان مقلداً

ماهراً في تقليده، كلما كان موفقاً في طاعته وخدمته.

ولكن هناك تقليداً آخر وهو الذي أريد طرحه، أنا لا أقول أننا نتمكن من الاستقلال دون الحصول على قدرة الاستقلال العلمية، أو علينا أن نستغني عن الغرب، ونغض الطرف عنه بصورة تامة، وننكر دنيا العصر وحضارة العصر، لا أنا لا أقول هذا، إن مثل هذه الدعوة دعوة رجعية، وهي منكرة للوقائع الموجودة أمامنا والتي فرضها الغرب نفسه علينا.

إنني أدعو لأن نقلده على هذا النحو، وهو أن نرى هذا السيد الذي يسود الآن، بأي طريق وأي عمل، وبأي أُسلوب للتفكير وأية تربية، وأية معنوية، وأية نظرة، وبأية رؤية كونية، وبأي سعي، وبأي ماض، وصل إلى هذه السيادة، وبعدها نأخذ ذلك الطريق، تلك الظروف والعلل التي أوصلته إلى السيادة، نتعرّف عليها ونقلّدها، هذا التقليد هو ضد التقليد الأول.

التقليد الثاني ينجيني من العبودية والضعف والتأثر، ويمنحني الارتقاء إلى درجة السيادة.

إن تقليد التلميذ لمعلمه، تقليد منطقي وراق، فالطرق التي سلكها المعلم لأن يصبح استاذاً على التلميذ أن يسلكها نفسها لكي يصبح استاذاً آخر، هذا التقليد صحيح وبنّاء وضروري، وإذا لم يفعله يبقى جاهلاً دائماً.

أما التقليد الكاذب (كتقليد الخادم)، وعلى حد تعبير «فرانتز

فانون»: فهو كالقرد، ويوجب التهوع. تقليد كلما نؤديه بإتقان نكون مستهلكين غربيين بصورة أكثر متأثرين بالغرب أكثر، عنصر شرقي من الدرجة الثانية، وعنصر محتاج دائمي إلى الغرب، ومن ثم نكون على استعداد لتقبل عنصره بمثابة العنصر الأفضل، وثقافته على أنها الثقافة الفضلى، وحكمه ونظرته وحياته وأخلاقه، بمثابة مميزات فضلى تتفوق علينا.

وعندما يقبل الشرقي، المسلم، البوذي، الهندي، الإيراني ـ ليس هناك فرق ـ، العنصر الغربي باعتباره العنصر الأفضل، وهو يفكر بصورة أفضل، يكون بذلك قد آمن بذلته إلى الأبد. وعندها سيكون كل ما يصدر عن العنصر الأفضل هذا، هو بمثابة الانموذج والقدوة القابلة للاتباع من غير شك أو استفسار، ويضحى ملاك التقييم هو الإنتساب إلى العنصر الأفضل وليس العقل ولا الحق، ولا سد الحاجة والمرض. ومثل هذا ليس بالتعصب الأعمى ولا التقليد الأعمى، بل هو تقليد معدّ ومدروس، كتقليد التلميذ للاستاذ، لا تقليد المريد للمراد.

إلاّ أنه ـ وللأسف ـ أن بعض المثقفين وزعماء الشرق، مثل «تقى زاده»[١]، وبعد رجوعه من الإفرنج كان يقول: يا شعب

(١) السيد حسين تقي زاده، كان معمّماً من رجال الدين في البداية، استاذاً للتاريخ الإسلامي، وتزيًا بالزي الغربي، ثم أصبح رئيس لمجلس الأعيان الإيراني، وتفرنج واستغرب إلى أبعد الحدود. المترجم.

إيران لديكم طريق حل واحد، وهو أن تكونوا إفرنجيين من القرن إلى القدم.

مثل هذه الدعوة، كان يشيعها (تقي زاده(وأمثاله في جميع أنحاء بلدان الشرق، وعلى الأخص البلدان الإسلامية في هذا العصر، وكلها كانت تخرج من حنجرة واحدة (مظهرها تركيا)، تلك الحنجرة التي يعبّر عنها «جون بول سارتر» في مقدمة كتاب (Les Damnés de la terre) (معذبو الأرض) بالقول: كنا في القرن التاسع عشر (عصر الإستعمار الذهبي) نأتي بأشباه المثقفين الأفريقيين والآسيويين والآمريكيين اللاتينيين إلى أوروبا، وكنا نهيىء لهم الفرص للتعرف على لشبونة ولندن وباريس وامستردام، وبعد عدة شهور من انشغالهم بالرقص، والتجميل، والمظاهر الخلابة، والأزياء، والتساؤلات، وديكور العمارة والبيت والحياة الحديثة، واللهجة الإفرنجية إلى حد ما، والأساليب والأخلاق الأوروبية التي كنا قد أعددناها لهم بقصد؛ كنا نرجعهم، وعندما يعود هؤلاء إلى أوطانهم، ولأنهم قاموا بالتشبه بالعنصر الأفضل، كانوا يتنكرون لجنس قومهم ـ الذي هو العنصر الآحقر ـ، وكانو يرون لأنفسهم رسالة تتحدد برسالة آلة اللاقطة والبث.

يقول: كنا نعلن كلمتنا إلى الدنيا من امستردام، من باريس ولندن ونبعثها، فكانت هناك أفواه في أعماق أفريقيا وآسيا

وأمريكا اللاتينية، العالم المستعمر الثالث، تفتح للتقليد بدون وعي، وتكرر تلك الكلمات التي كنا نرسلها من الغرب على شعوبهم، كان هؤلاء أفضل معدّات الاستعمار، وأفضل وسائط الإنتقال للأمور التي كنا نريد أن ننقلها إلى الشعوب الشرقية، فكانوا جسوراً بيننا وبين شعوبهم، وكانت هذه النداءات تتعالى في سائر أنحاء هذه البلدان.

وحتى قبل هذا، كان هناك الكثير من المثقفين ممن ابتلوا بمثل هذا التقليد الأعمى للغرب، والذي له قصة مضحكة جداً. كان بطرس الكبير ـ والذي يمكن أن يكون قد لقب بالكبير لما سأذكره ـ شاباً قد درس الدروس الأوروبية في هولندا، ثم تثقف أيضاً، كان يفكر على الدوام بشعبه (الشعب الروسي) لماذا هو متخلف إلى هذا الحد، حتى أنه اندحر أمام إيران عدة مرات ـ مثلاً ـ؛ بينما تقدم الأوروبيون ومنهم الهولنديون تقدماً كبيراً، وهم الآن يرفلون بالتنعم والرفاه والحضارة. فكّر كثيراً وقام بتحقيقات ودراسات، وتحليل ومقايسة واسعة حتى عرف سبب الشقاء، عرف أن سبب شقاء روسيا هو عكس سبب السعادة في هولندا، وهو أن هؤلاء الهولنديين المترفين إلى هذا الحد، والذين لهم حياة عصرية ومرفهة، ذالك بسبب كونهم يحلقون لحاهم كل صباح، ويتعطرون ويتنظفون، لذا عندما يذهبون إلى أعمالهم اليومية فهم في كامل نشاطهم، فرحين مرتاحين من

رؤية بعضهم البعض، وبالتالي فإن عملهم ذلك قد أوجد فيهم حياة وحركة وتفاؤلاً في الحياة، أما سبب شقاء روسيا فهو هذه اللحى الطويلة.[١].

لقد وجد سبب الشقاء وعاد إلى بلاده، وعندما تسلّم زمام الأمور، أمر بحلق جميع اللحى في يوم واحد، فالبعض ممن كان يرغب في إدامة حياته، كان يقول: «لعنة الله على اللحية، ذهبت إلى حيث ألقت رحلها، ما علاقة اللحية بالحياة». والبعض الآخر ممن تعصب لِلحاه، وكان يعتبرها بمثابة حيثيته وشخصيته، ومظهراً لتدينه ومكانته، جلس في بيته ولم يخرج، حيث بدأ الكر والفر، والضغط والتهديد، والتعذيب، من أجل حلق اللحى. وأخيراً نجح! وحلقت اللحى الشقية، ولكن جذور الشقاء لا زالت باقية. إن مثل هذا التفرنج والتقليد، الذي على حد تعبير (تقي زاده) «نكون إفرنجيين من القرن إلى القدم»، كانت تدعو له جماعة باعتباره سبيلاً لوضع حد لتخلف الشرق. وقد قابلته، كرد فعل، الدعوة السلبية ضد الغرب: علينا أن نترك الغرب، أن نغض الطرف عنه؛ لنبقى في جلودنا ونقيم سوراً حولنا من التعصب ورفض الحياة العصرية، لنستمر في حياتنا التقليدية ونغسل أيدينا من كل المظاهر الغربية.

---

(١) أُنظروا إلى تولستوى. كانت لأغلب الروس لحىً بذلك الشكل بطول متر أو مترين.

كان هذا نوع من رد الفعل على تلك الدعوة بشكل رجعي وانحرافي، وهو يريد إبقاء الشرق على الدوام رافلاً في نظام اقطاعي، وانتاج زراعي، وحياة قديمة يكللها الجهل والحرمان.

بناء على هذا، ورغم أن كلا الشعارين كانا متضادين، إلاّ أن كليهما كانا لصالح الإستعمار الغربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين.

كان الغزاة المخربون المتفرنجون عملاء للاستعمار، إلاّ أن على وجوههم نقاب التجدد والحضارة والعلم والتقدم، وكان المدافعون المحافظون المقاومون عملاءً للرجعية وحراساً للقِدمْ والجمود، ولكن على وجوههم نقاب الدين والتقدس والأخلاق والمعنوية والأصالة!.

لقد وقف الذاهبون إلى الإفرنج والذاهبون إلى النجف وقفوا وجهاً لوجه، وبدأوا حرباً شعواء كانت نتيجتها الوحيدة صرف الأذهان عن الحرب الثورية ضد الاستعمار بدأوا حرباً، أي الفريقين انتصر فيها، يبقى الشعب هو المندحر ـ كما نرى ـ!.

أنا أتحدث هنا عن فريق اجتماعي ذي نسق خاص، عن تجمع خاص، وإن كان قد خرج المثقفون الحقيقيون من بين هؤلاء الذاهبين إلى الإفرنج؛ وظهر زعماء الحركات المناهضة للاستعمار، والحركات الباعثة عن يقظة الشعب وتعبئته من

هؤلاء المتدينين الروحانيين أيضاً؛ خذ من سيد جمال الأسدآبادي وهلّم جراً، وأن «روح الله» قد نفخت في نفس هذا الهيكل ـ الروحانية المتحجر الرسوبي الصلصال كالفخار[١].

(١) أنا لا اعتبر «الروحانيين» و«العلماء الإسلاميين» وجوداً واحداً. بل أراهما متضادين. لم يكن عندنا ـ في الإسلام ـ جهاز طبقي أو نسقي باسم «الروحانية». هذا الإصطلاح جديد جداً، ومصداقه حديث الظهور، عندنا ـ في الإسلام ـ «عالم» في مقابل غير العالم، وليس «روحاني» في مقابل «الجسماني». يتساءل البعض: لماذا أنا أدافع وبشكل حاد ـ في بعض الأحيان ـ عن هذا «المجتمع» ـ أي الجمع ـ وابدي إيماني الراسخ واعتقادي بقدرتهم. وأحياناً أُخرى أحمل عليهم بأشد الحملات قسوة. لماذا هذا التناقض.

إن هذا التناقض والتضاد هو في الواقع موجود ما بين «الروحانيين» و(علماء الإسلام)، وللأسف، فإن لكليهما زياً واحداً غالباً، ولهما قاعدة ظاهرية واحدة في المجتمع الديني، وإن كان دورهما متضاداً. فالذين اصفهم بالروحانيين هم هؤلاء الذين تقتصر صلتهم الوحيدة بالناس بـ«يد للأخذ ويد للتقبيل»! ومثل هؤلاء ـ عادة ـ لا يعرفون شيئاً عن الإسلام (التاريخ، العقائد، القرآن السنة، التشيع، فلسفة الأحكام، الروح والهدف الأصلي لرسالة النبي، مدرسة عليّ، نهضة الحسين، العدل، الإمامة، الانتظار...) لهم دور يشبه تماماً دور الحاخام والرهبان والقسيسين والموبدان (علماء المجوس)... غصن من شجرة الروحانيين لجميع أديان العالم. الشجرة التي قطعها الإسلام، ولكن الطبقة الحاكمة أو الجهاز الحاكم، أوجد مثل هذا الجهاز الرسمي تدريجياً نظراً لحاجته إلى قاعدة من الجماهير، لتبرير الوضع القائم وتخدير الناس، أي تحريف حقائق الدين واستخدامه لصالح السلطة.

كان منذ البداية، لدى السنة، من عصر عثمان حجرها الأول (كعب الأحبار)، ثم في خلافة بني العباس، صنعوا (الروحاني)، بالإعتراف الرسمي بالمدارس الفقهية الأربعة وطرد الإجتهاد ورفض المذهب

الجعفري الذي هو تجسيد لفكر الصادق وفقهه. وعند التشيع، وبعد السلالة الصفوية التي ورثت نظام الملكية والخلافة من الأسلاف ولكن بزي التشيع المقدس. كان على التشيع أن يرحل من بين الناس، لينتقل إلى «مسجد الشاه» بجوار «عالى قاپو» القصر الملكي

لم يقم «العالم» بمثل هذا الدور، صنعوا «الروحاني» ليكون مساعداً وزميلاً للشرطة، حيث يشكل خُفُّه مع الجَزْمَة، زوج حذاء في رجلى «الشاه سلطان سيد حسين»!. ومن الواضح في مثل هذا النظام الذي يكون فيه الجهل والجور متحاكيين، كيف سيتقهقر «العالم الذي يريد العدالة ويعرف الإمامة» ـ أي عالم الشيعة ـ من مسرح الحياة تدريجياً، وبالتالي استحكام سيطرة الروحاني عليه، ولهذا نرى وبعد أربعة قرون من الصفويين، شخصاً مثل (...)، ودون أن يسمع شخص في جميع أنحاء هذه المملكة الشيعية أنه كتب سطراً واحداً حول شيء ما، أو أنه درس كلمة واحدة، أو أنه خلّف تأليف سوى «التوصية» ـ التي هي أكثر من الملاحظات العلمية للبروفسور ماسينيون حول الصديقة فاطمة ـ يصبح «آية الله» ويأمر وينهى، وفخفخة، وجاه ومقام... في الوقت الذي يوجد هناك طود من العلم والتحقيق وبجانبه تل من العمل قابع في زاوية نائية من مدينة شوشتر، ولم يسمع باسمه أحد. لم يكن طلب العلم والتحقيق في الإسلام، وحتى القرآن والسيرة وحياة الأئمة، بالنسبة للروحاني، أمراً مهملاً فحسب، بل هو بمثابة الحظ من مقامه.

إني ذكرت هذا الأمر لئلا يقع سوء فهم، لأن المثقفين اليوم، وحتى الناس البسطاء المتبصرين، يشعرون بهذه الازدواجية تحت هذا الزيّ الواحد والتجميل الواحد. وهم بقدر ما يحترمون ويقدرون العالم الشيعي ويعتقدون به، فإنهم قد قرأوا كفّ الروحاني وعرفوا الجهل المتلبس بلباس العلم.

إن الروحاني، ومن أجل الدناع عن نفسه، يختفي خلف (العالم)، ويتخذ من العالم ـ الذي هو ضحية الروحاني ـ ترساً عسىٰ أن ترتعش أيدي دعاة الحق الحقيقيين، الذين يصوبون سهام كلماتهم، وقذائف آياتهم الماحقة للدفاع عن الإسلام والتشيع، وبالضرورة للدفاع عن العالم الذي يعرف

المجموعة الثالثة: يمثلها المثقفون الذين وصلوا إلى هذا الوعي، وهو أنهم يشعرون بضرورة التغذية من جذور مجتمعهم الشرقي، وأيضاً ضرورة الإختيار في مقابل الغرب وواقعيات حضارة عالم اليوم ونجاحاته.

الإسلام ويفهم التشيع، يصوبونها نحو هؤلاء أعداء الإسلام والتشيع والعلم، نحو هؤلاء المتنقبين بنقاب النفاق الأسود، هؤلاء اوثان التثليث في أرض التوحيد الإبراهيمي؛ يرمونهم بجمرات أرض الشعور عسى أن ترتعش أيديهم وقلوبهم لكيلا تخدش وجه العالم الطاهر، وينجرح وجدان الإيمان القدسي. ولهذا، فلو سكتنا لكنا قد خدمنا تحالف الجهل والجور المشؤوم، ولكنا شاهدنا كل يوم ولادة أبنائهم اللاشرعيين، والذين هم التحريف والجمود والاختلاق والذل والاستكانة والسبات والتخدير... وإذا أردنا أن نهاجمهم لكنا قد صدمنا «الحجج» الحقيقية الموجودين بينهم، وما أكثرهم، حيث ينبذونهم في السلم خلف الجبهة، ووقت الحرب يقدّمونهم أمام الصفوف!.

ألا ترى يا أخي ما أصعب العمل، وهو على قسوته فإلى أيّ حد ظريف.

إن الطريق التي اخترتها أنا في هذا المجال ـ أنا الذي أعقد أعظم أمالي على هذه الحوزات العلمية، وأتطلع بلهفة إلى حجرات الطلبة هذه، وفي الوقت نفسه أتجرّع أقسى آلامي من هذا المكان نفسه ـ هو أن نسكت أمام كل هذا الضجيج والسباب والآثارات والمؤامرات... ونتحمّله، سكوت وتحمل كسكوت عليّ وتحمّله في تلك السنوات الخمسة والعشرين المؤلمة!. علينا أن لا نخوض الحرب والجدال والرد والمناقشة، وفي الوقت نفسه علينا أن نبادر إلى التوضيح والنقد وعرض الإنحرافات والخرافات والتعاليم السيئة التي نشروها باسم الدين.

وفي كلمة واحدة: نسكت أمامهم، ونتكلم مع الناس، لأن أكبر درس تعلمته من أحد العلماء الإسلاميين المتنورين المعاصرين هو أنه: «علينا ألا نسلب هؤلاء من الناس، بل علينا أن نسلب الناس من هؤلاء» فقط!.

لقد استلهموا روح العالم، ووضعوا طريقاً آخر أمام شعوبهم في هذا المجال، وأن هذا الطريق يتمثل في جملة واحدة هي: أن نبقى بأنفسنا واعين في قواعدنا الثقافية، ولكننا نختار أمام الغرب، بوعي واستقلالية ـ وليس بصورة قسرية ـ باعتبارنا شخصاً عارفاً متفهماً لاحتياجاته وهو يختار على ضوئها.

إننا لا نقلد بل ننتخب ونختار، وبذلك نقود الشرق ونرشده إلى نفس الطريق الذي أوصل الغرب إلى هذه المرحلة من السلطة والقوة والسيادة، ونصل به إلى ما وصل إليه الغرب.

إن هذا ليس بتقليد، ولا هو رفض مطلق للتقليد، بل هو تقليد واعٍ مختارٍ راقٍ، حيث أن كل إنسان يقلّد التقدم حتى يتقدم لا لأن يبقى مقلداً دائماً. علينا ألاّ نغض الطرف أمام الغرب المهاجم (وأعني الثقافة والحضارة)؛ وأيضاً علينا أن لا نحدق بالنظر إليه؛ بل يجب «النظر» ولكن بصورة صحيحة. فنحن إذا أقبلنا عليه بعفوية فسوف نقع في شراكه، وإذا نحن ابتعدنا عنه فإننا ليس سنبتلي بالرجعية وحسب، بل سنصبح فريسة للغرب دون أن نعي.

إن موضوع وقوفنا الآن أمام الغرب ـ وهو موجود على كل حال ـ يحتمه علينا هذا السيل العارم للتيارات الفكرية، وأشكال الحياة المادية والمعنوية والفنية والأدبية وحتى الأخلاقية، الذي يفد علينا من الغرب في كل دقيقة وكل ثانية

إذاً علينا أن نعرف الغرب بهذا المعنى، هو أنه كيف سلك هذه المراحل حتى وصل إلى ما هو عليه الآن؟

إن التحليل العلمي الدقيق الصحيح لهذا الموضوع، يساعدنا، نحن المثقفين، للتعرف على أسباب رقي الغرب، ومن ثم، نتمكن من تقييمه بوعي وبصورة منطقية وصحيحة؛ ومثل هذا الوعي سوف يمهّد لنا الطريق لتحقيق وتجسيد مسؤوليتنا الإنسانية. ولهذا الغرض سوف استفيد من المخروط.

نحن الآن عندما نذكر الغرب، بالمعنى الأعم، فإنه يعني: الحياة الصناعية، العلم، الأخلاق، العلاقات الإجتماعية، وشكل الحضارة التي يعرضها على العالم، والتي بمجموعها تصنع الغرب اليوم.

إن نسق إنسان العصر وطرازه، يطرح في العالم باعتباره طبعاً ونسقاً غريباً له مميزاته الغربية الخاصة به. بحيث عندما يراد انتخاب البنت اللائقة، الشاب اللائق، والرجل اللائق، فإن انتخابهم يكون على أساس الضوابط التي حددها الغرب نفسه وتم اشاعتها في العالم، وكل من يختلف مع ذلك ولو قليلاً فهو غير لائق[1].

إن الغرب بهذا الوضع الثقافي، وهذه الفترة الخاصة من

---

(١) وبالطبع فإن كلمة (اللائق) صحيحة. ولكن لأي عمل؟ حسناً، إن الأمر واضح.

التطور التاريخي الذي وصل إليه الأن، هو غرب القرون الثلاثة الأخيرة. أي أن إنسان العصر، باعتباره إنساناً غربياً، ومع كل هذه المميزات الفكرية والروحية والحياة الإجتماعية، التي اكتسبها خلال القرون الثالثة الأخيرة (العصور الحديثة)، قد صنع نوعاً خاصاً من الحضارة، وعرض نوعاً خاصاً من الحياة على العالم. هذه القرون الثلاثة هي بمثابة عصر خاص.

وقبل هذه القرون الثلاثة كان هناك عصر خاص آخر، والذي تمكن الغرب باجتيازه من أن يصل إلى ما نراه عليه اليوم.

والغرب المعاصر، الغرب الذي نعرفه خلال القرنين والثلاثة الأخيرة، هو في حال تطور من شكل تفكيره الحالي، شكل شعوره الحالي، شكل تقديم علم الحياة والحضارة الحالي، إلى شكل نهائي آخر (وقد بدأت فترة الانتقال في القوت الحاضر).

بناء على هذا، ومن أجل مواكبة التطور الذي يحياه الغرب الآن بصورة واعية، والتمكن من تشخيص نقاط قوته وضعفه، نعمد إلى تجزئة التطور التاريخي للمجتمع الغربي وتصنيفه. ومن أجل تحليل الطبقات الثقافية والروح السائدة على هذا المجتمع وعلى هذا النوع من الطباع، وتمييز الجماعات المختلفة، نستخدم المخروط، للوصول إلى هذه المرحلة وهي: أن الغرب في حال تطور من وضعه الحالي إلى الوضع التالي. وأنا أُريد أن

أعرض هذا الوضع بواسطة المخروط السحري، وهذا هو حديثي الرئيسي.

نغطس هذا المخروط في القرون الوسطى، في مجتمع الغرب للقرون الحادي عشر إلى السادس عشر، التي هي ما قبل القرون الثلاثة الاخيرة، فتتبين لنا ثلاث طبقات، ما بين رأس المخروط وقاعدته (اعتذر جداً، لأن لحني لحن معلم وليس لحن محاضر في مجلس عظيم وعام. وذلك لأني تعودّت على المعلّمية، ولا أتمكن من الكلام بشكل آخر[١]، وإذا كان في

---

(١) قبل عشر أو عشرين سنة، كنا قد ذهبنا إلى المجلس الوطني (البرلمان)، للتفرج والإطلاع على هذا المكان. كان الأعضاء حينئذ قد تكالبوا من أجل المصادقة على احدى اللوائح، كانوا يتشاجرون. كان عدد منهم يتجاذب النقاش، وعدد آخر قد أخذه النعاس. وموجز القول كانت الأوضاع عجيبة غريبة. الأجنحة المختلفة والجماعات والطبقات المختلفة في صراخ وضجيج، بعضها للدفاع والبعض الآخر للاعتراض والانتقاد. كان بين هؤلاء سيد لا يتدخل بهذه القضايا، ولم يأخذه النعاس، (كان للبعض نزعة واسعة بعدم التدخل بالأمور الدنيوية). لا هو من المخالفين ولا من الموافقين، ولا من المحايدين، كان لوحده. وقد جلس في ركن من أركان المجلس لا يعبأ بأحد. ولكن عندما كان يعلو الضجيج والضوضاء، كان ينزعج وينطلق للوقوف خلف لاقطة الصوت، ويقول: أيها السادة، هنا مجلس البرلمان، اسكتوا؛ قليلاً من الأدب. كان ينزعج ويدعو الآخرين إلى السكوت، ومن ثم يعود إلى مكانه. وبعد ذلك لم يكن له شغل بأي شخص إلى أن يرتفع الضوضاء والضجيج مرة أُخرى. عندها قال الشخص الذي كان جالساً إلى جانبي: هذا معلم! يريد أن يسكت الصف فقط! حتى وإن كان ممثلاً

هذا اللحن سوء أدب بالنسبة إلى السيدات والسادة، الذين هم ـ في مكانتهم الإجتماعية ـ أعلى من المستوى الطلابي، فأنا أعتذر مقدماً).

تملأ قاعدة المخروط، أي القسم الأكبر من حجم المخروط (مثلاً ٥/ ٤ الارتفاع) جماهير الناس[٢]. ويلي الطبقة التحتانية للمخروطة هذه، قشرة خفيفة، اسمها في كل دورة (انتلكچوال Intellectuel)[٣] وفوق هذه القشرة، تأتي طبقة

للشعب فهو لن يتمكن من التخلي عن كونه معلّماً، يريد أن يبقى إلى آخر عمره ما بين سبورة سوداء وأطفال يجلسون ساكتين! أطفال مجلس البرلمان! هكذا، لا يمكن التخلي عن كون الإنسان معلماً وله طبع حاد، ولا يمكن غسل هذا الطبع بأي صابون معطر أو بماء زمزم.

(٢) هذا هو المخروط الثقافي، وهو ليس مخروط الطبقات الاقتصادية. قد يقول البعض: إننا نقسم النظام الإجتماعي على أساس الطبقات الاقتصادية، والطبقات الإقتصادية نصنّفها على أساس الدور الذي تلعبه في الإنتاج. نعم. أنا أوافق على هذا، إلاّ أنه لدي هنا زخماً ثقافياً أمنحه إلى المجتمع، وهذا لا ينافي الطبقات الاقتصادية.

(٣) يجب أن أوضح كلمة «انتلكچوال»، وقد تعمدت استعمال هذه الكلمة الإفرنجية وذلك بسبب الابهام الذي يكتنف ترجمتها الفارسية.
الناس قسمان: قسم منهم يعمل عملاً جسمياً، والآخر يعمل عملاً فكرياً. فالبعض آلات عمله الطاقة البدنية، والبعض الآخر آلاته الطاقة العقلية. ويمكن ترجمة (انتلكچوال) «Intellectuel» بالطبقة التي آلة عملها العقل. والطلاب الآن هم جزء طبقة (الانتلكچوال) في المجتمع. المترجمون، الكتّاب، الشعراء، الفنانون، المحامون، المعلمون، الأساتذة، السياسيون، الصحفيون، كل هؤلاء ضمن طبقة (الانتلكچوال) في المجتمع، أي أنهم يؤدون عملاً فكرياً. أي أنهم

المتعلمين ما فوق عامة الناس، وهم النجوم. لماذا أقول النجوم؟ لسببين: أحدهما لأن هؤلاء ليسوا بالكثيرين بحيث يشكلون طبقة في المجتمع، وليسوا بالحجم الذي يشكلون فيه فئة في المجتمع[٤]. أي أن هؤلاء الأفراد الذين يرابطون في قمة المخروط هم الأحاد من الناس، آحاد الأفكار، آحاد النوابغ، نجوم تسطع إلاّ أنها لم تظهر بشكل شريط أو قشرة واضحة المعالم.

والأخر هو أن التاريخ قد أثبت أن هؤلاء يفكرون على خلاف تفكير العوام، وبعكس تفكير طبقة ما فوق العوام، طبقة

يؤدون دوراً في مجتمعهم بما يملكونه من قدرة فكرية وعقلية وعلمية. وعلى العموم فإن مثل هذه الجماعات المختلفة بمجموعها تشكل طبقة واحدة وفئة واحدة باسم «انتلكچوال». أي الشخص الذي يقوم بعمل فكري وعقلي ويمكن أن يكون (الانتكچول) قاتم الفكر أو قد يكون عديم الفكر أساساً. والمتنور (المثقف) هو الذي يكون وعيه ودركه بمستو عال جداً، ومن الممكن أن يكون غير متعلم.

(٤) عندما نقول: تشكلت فئة أو طبقة في المجتمع، نعني أننا نشعر بهذه الفئة في جميع أنحاء هيكل المجتمع، ونتحسس وجودها. العمال أصبحوا في أوروبا والمجتمعات الصناعية الكبيرة بشكل طبقة. ولكن في المجتمعات التي لم تصل إلى الدور الصناعي، بل لها صناعة متقدمة هنا وهناك ويدور فيها رأس المال فقط، فإنه يوجد فيها جماعة من العمال الصناعيين، ولم تتشكل منهم طبقة باسم طبقة «البروليتريا». وفيما لو كنا نرى في كل زاوية من المدينة، من المجتمع، من التجمعات، من الكازينوات، ومسارح الرقص، من المساجد والمعابد هذه الأشكال فعندها يتضح لنا أن هذه الجماعة قد تحولت إلى طبقة.

«انتلكچوال» (Intellectuel). وهم يعرضون فكراً جديداً، نمطاً جديداً ونبضاً جديداً في جسد المجتمع؛ يقدمون رؤية جديدة لعصرهم. هؤلاء هم الذين يبدلون المجتمع من الشكل الفعلي إلى الشكل التالي، وينقلون النسق الحاضر للفكر والشعور والأخلاق والثقافة والعلم والحياة الإجتماعية، إلى نسق آخر.

مثل هؤلاء، هم الذين يسطعون كالنجوم، على قمة المخروط وفي نهاية كل دور، ومن ثم، وبفضل أفكارهم وعقائدهم، وطريقة تفكيرهم، والتي هي طراز جديد، يعلنون عن بدء فترة جديدة. هؤلاء وإن كانوا أفراداً غرباء في عصرهم وزمانهم، إلاّ أن نموهم وكفاحهم ورسالتهم، واستمرار اسلوب تفكيرهم، وضرورة المجتمع وحاجته، كل هذا، يجتذب إليه المجتمع شيئاً فشيئاً. ومن ثم نرى ـ في الفترة التالية ـ بعد مائة سنة أو مائتي سنة، أن هؤلاء النجوم الذين كانوا يعرضون أفكارهم في الفترة السابقة على خلاف ما يتمسك به الرأي العام، والروح العامة السائدة على فئة الانتلكچوال، وقد كانوا وحيدين ومهجورين ومحكومين، وحتى أنهم كانوا يذهبون ضحايا، نرىٰ نفس هؤلاء النجوم قد تبدلوا إلى شريط (الانتلكچوال) في المخروط. وهذا مؤشر على أن الفترة قد تغيرت وأن المجتمع دخل فترة انتقالية تالية.

الفترة هي مجموعة من نوع واحد من النزعة والحياة. وفي

هذه الفترة وفي هذا الشكل، يتكامل المخروط الجديد. وعندما يصل إلى انتهاء نموه ونضجه، تلوح مرة ثانية نجوم جديدة في قمة المخروط.

النجوم الجديدة أيضاً تفكر على خلاف فئة الانتلكچوال الحديثة، ومرة أخرى تتخذ فكرة الغد، فترة الغد، وإنسان الغد، ويتم عرضها ثم يظهر تجاذب جديد أيضاً بين تلك النجوم وهذه الطبقة «الانتلكچوال»، ينتهي دائماً بضرر طبقة الانتلكچوال الموجودة، وبصالح النجوم المضيئة التي تخبر عن المستقبل وطلوع الغد وهكذا تطل الفترة التالية، التي تتحول فيها هذه النجوم إلى فئة انتلكچوال، أي تحل محل فئة الانتلكچوال للفترة السابقة. هذه هي صورة موضوع هذا المخروط.

أما الآن فنستفيد من هذا المخروط بالنسبة للقرون الوسطى. نُغطِس هذا المخروط في المجتمع الغربي. تملأ القسم التحتاني للمخروط جماهير المجتمع الغربي، والتي هي جماهير دينية، كاثوليك متعصبون جداً، مستوى تفكيرهم ضحل جداً، أسرى تقاليد موروثة والتي علّموهم إيّاها باسم الدين، متمسكين بالماضي، يعرفون الأداب، مستسلمين للوضع القائم، معتقدين بالسنن والمراسيم الدينية وبتكرار هذه السنن وأصالة هذه العلائم الدينية، متمسكين بالآخرة ومعتقدين بأصالة دينهم وكفر جميع أديان العالم الأخرى؛ معتقدين بأن مجتمعهم

وسنتهم وحياتهم ودينهم (كل هذه الأمور) أزلية أبدية، والحق الوحيد هو هذا وحسب. هذه مميزات جماهير القرون الوسطى في الغرب، أي في القسم التحتاني للمخروط.

أما فيما يلي طبقة (الانتلكچوال) فهم القسيسون، أي جميع الذين يدرسون في الـ«سكول»[١] وهم عقل المخروط الثقافي، حيث أن (الانتلكچوال) هم فترة، وإن هؤلاء هم الذين يصنعون روح المجتمع، ويحددون الفكرة السائدة على قرن كامل.

وفي القرون الوسطى كان (الاسكوليون) من المتعلمين والخريجين وطلاب العلوم الدينية، مرتبطين بالكنيسة، وكما هو واضح فإن كيفية تفكير (الانتلكچوال) في القرون الوسطى انطبعت بطابع الروحانيين. أي أنهم كانوا يعتقدون بأن جزء من

(١) «school سكول» يعني المدرسة، ولكن نقصد بها المدرسة الخاصة، كما هو عندنا باللغة الفارسية عندما نقول مدرسة أو مدارس نقصد بها المدارس القديمة، أما بالنسبة للمدارس الحديثة فإننا نقول: كلية، جامعة، ثانوية وغير ذلك. وفي اوروبا كان المقصود من (الـ سكول) هو المدارس العلمية المرتبطة بالكنيسة، وكانت «كمبرج» و«السوربون» من هذه (الـ سكول). وأن الدروس التي تدرّس في هذه (الـ سكولات) كانت كلها تحت إشراف الكنيسة. كانت الكنيسة هي التي تحدد مواد التربية والتعليم وفلسفتها والهدف من ذلك؛ ليس الدين وحده، بل العلم، الحياة، وحتى العلاقات الاجتماعية، وحتى التجميل، كل ذلك كان منحصراً في جهاز الكنيسة وعن طريقها يتم تبليغه إلى المجتمع.

ذات (Saint Esprit) (روح القدس) قد حلّ في بعض الأدميين، فأضحوا روحانيين؛ والبقية التي لم تحل فيها هذه الروح فهم جسمانيون.

وبناء على هذا، هناك عنصران في المجتمع، أحدهما العنصر الروحاني الذي تجلّت فيه (روح القدس)، والآخر العنصر الجسماني فاقد هذه الروح والذي يتحتم عليه، ومن أجل خلاص نفسه وتقربه من السيد المسيح، أن يضع يده بيد الروحاني لاكتساب القدسية، وإلاّ فإنه سيبقى كما كان ملوّثاً وضالاً.

إن امتلاك طبقة (الانتلكچوال) في القرون الوسطى لهذه الروح القدسية، أي الطبقة الروحانية، أوجد لها حقوقاً اجتماعية، وبالتالي سلطات وامتيازات سياسية واقتصادية واجتماعية ساعدتها على فرض سيادتها على تقرير مصير البشر، وفي كل الأبعاد.

كان هؤلاء يدرسون الفلسفة ولكن بالشكل الذي تحدده الكنيسة؛ كانوا ينتجون، ولكن انتاجهم ودورهم الاقتصادي أيضاً كان حسب اختيار الكنيسة وتحديدها. والنظام الاقطاعي، مع أنه نظام انتاجي، كان يوجّه عن طريق الكنيسة. حتى الفن والأدب، وحتى النظريات العلمية، عليها أن تكون وتعرض وفقاً لنماذج الكنيسة. وأنهم قد أحرقوا الرجل الذي اكتشف الدورة الدموية، لأنه تفوّه بهذا الكلام التافه!

إن تلك المميزات قد منحت (الانتلكچوال) في القرون الوسطى، امتيازات يمكن وصفها بكلمة واحدة وهي: (روحانية المميزات والأطباع)، أي نواب الله في الأرض، حاملو روح القدس، خلفاء المسيح، وهم يجسدون وجهة المسيح الروحانية على الأرض، ومسؤولون عن استقرار السلطنة الإلٰهية على الأرض كما هي في السماء، والآخرون، هم «عوام كالأنعام»، عليهم أن يكونوا تحت رعاية هؤلاء الروحانيين، ويقدّمون لهم الضريبة. الأنعام يعني الأغنام، وقد كانوا يسمّون الناس أنعاماً، وتعني أن أصوافه وألبانها لنا.

وفي نهاية فترة القرون الوسطى تسطع نجوم من على قمة المخروط. هذه النجوم تفكر خلافاً للروح السائدة على مجتمع القرون الوسطى وقد عرضت طرحاً جديداً، وهي تدل بوجودها على إطلالة إنسان جديد وفترة تاريخية جديدة.

إن هؤلاء يعتقدون بضرورة تحرر العلم من سلطة جهاز الروحانية، يعتقدون بالبحث العلمي ومسؤولية العلم على تأمين حياة الإنسان المادية.

بينما تعتقد (الانتلكچوال) الحاكمة، أي هؤلاء الروحانيين، بأن العلم يجب ألاّ يتدخل في شؤون حياة الناس المادية، وأنه عليه أن يكرس جهوده للبحث عن الحقيقة وإثبات أحقية الدين.

إن هؤلاء كانوا يعتقدون، بأن البحث عما وراء الطبيعة طالما كان غير ممكن، فيتحتم تركه والاستعاضة عنه بالبحث عن الحياة والطبيعة، لأنه ممكن ومفيد أيضاً. في حين أن (الانتلكچوال) الحاكمة ـ على خلاف ذلك ـ أناطت مهمة البحث والكشف عن أسرار الخليقة، إثبات أحقية المسيح، إثبات ألوهية المسيح، إثبات مشكلة «إن الله ثلاثة، وهو واحد، أناطت كل ذلك بالعلم.

لقد كتب «سان اوجن»، رجل على شبه كبير بابن سينا، وهو انبغ عالم ينتمي إلى هذه الفئة في القرون الوسطى، كتب رسالة كبيرة أثبت فيها أن ملايين الملائكة يسعهم رأس إبرة دون أن يتسع رأس الإبرة أو تضغط الملائكة؛ لقد حدد حتى عددهم بدقة.

في حين كان نجوم أوج هذه القمة، يعتقدون بترك هذه التحقيقات والتوجه للتفكير بحياة الإنسان، والاستفادة من هذا النبوغ لتحقيق حياة الإنسان الفضلى على وجه الأرض، لا أن نكتشف هذه المعضلات التي لا يقدم اكتشافها ولا يؤخر.

كان هؤلاء النجوم يعتقدون، بأن اللغة العالمية الواحدة تضرّ بالتربية والتعليم، لأن كل طفل يتمكن من فهم لغته الأم واستيعابها أفضل من غيرها. وكانت الكنيسة تعتقد بأنه يجب التحدث بلغة الله، ومع أن لغة الله كانت عبرية (لأن التوراة

والإنجيل كليهما باللغة العبرية)، إلاّ أنها في زمن الروم كانت قد ترجمت إلى اللاتينية؛ وكانت الكاثوليكية، والتي هي اطروحة شبه مسيحية، سمة لنظام الإمبراطورية الرومية، لهذا فإن اللغة اللاتينية التي كانت لغة الروم ضد المسيح، قد أصبحت لغة الله.

ومن ثم اعتقدوا بضرورة أن يكون نظام التربية والتعليم في جميع مدارس أوروبا باللغة اللاتينية، حتى نظام التربية والتعليم العادي، وليس الديني فقط.

في الوقت الذي كان هؤلاء يعتقدون بأن التربية والتعليم يجب أن تتم بواسطة مدارس «لائيك» (Laique) القومية واللغة المحلية. كان أولئك يعتقدون بأن الإنجيل يجب أن يقرأ في جميع أنحاء الدنيا باللغة اللاتينية، أما هؤلاء فقد كانوا يعتقدون بضرورة ترجمة الإنجيل إلى اللغة القومية.

اولئك، أي (الإنتلكچوال) الحكمة، كانوا يعتقدون بأن المسيح لوحده يتمكن من السيادة على العالم، ولما كنا نمثل المسيح فإنا نسود ونحكم العالم بدلاً منه. أما هؤلاء فقد كانوا يعتقدون بأن كل قومية عليها أن تبني حكومتها الداخلية على أساس تقاليدها وسنتها القومية؛ وأن عليها أن تكون تابعة لهم من الناحية الدينية فقط، دون الناحية السياسية والعسكرية.

اولئك كانوا يعتقدون بأن الإقطاع، باعتباره قاعدة بناء

الحياة الارستقراطية والدينية، يجب أن يكون أساساً للحياة، لأن المسيحية كانت ترتزق منه، وكانت تأخذ من الاقطاعيين الجنود والمجاهدين للحروب الصليبية. ولكن هؤلاء كانوا يعتقدون بضرورة إيجاد مركزية سياسية، سلطة حكومة مركزية في مقابل المسلمين، بدلاً من الاقطاع الذي أوجد التجزئة والتفرقة في المجتمع الأوروبي.

إن هذه الاختلافات التي ظهرت بين (الانتلكچوال) السائدة على القرون الوسطى، واولئك النجوم الذين كانوا قد تربعوا على قمة المخروط في نهاية القرون الوسطى، كانت تمثل صراع عصر النهضة من القرون الوسطى.

أيّ أشخاص كانوا أولئك النجوم؟ أشخاص تعرفونهم جيداً: جور دانو، كيبلر، غاليلو، ديكارت، كونت، فرانسيس بيكون، روجرز بيكر وامثالهم. زعماء اطاحوا بالقرون الوسطى، واسقطوا الحكومة الروحانية الدينية لجهاز الكنيسة، وقطعوا يد البابوية المعتدية، عن حياة مجتمع الغرب الفكرية والعقلية والعاطفية والأخلاقية والاجتماعية، واوقفوا نشاطها على الكنائس والمعابد، وتركوا المجتمع، وتحرروا.

العلم غيّر اتجاهه، الفن غيّر اتجاهه، والأدب غير اتجاهه. الفن كان في السابق عبارة عن أداة لتجسيم صور

القديسين، أو تكرار صور مريم والمسيح. وكان إبداع الفنان محدداً بالقوالب والقيم التي يحددها القسيس، وهي تقتصر على الظواهر والعقائد الموجودة في الإنجيل والتوراة، وليس لأحد الحق في أن يصنع شيئاً آخر. وإذا تقرأون كتابي «حماسة الحياة»، و«الألم والنشوة»، ستجدون أن فنانين كباراً مثل «مايكل آنجتا» إلى أي حد كانوا في أسّر تحكمات القسيسين الأقوياء المعروفين بالتعصب واللاوعي وضيق الأفق. وليس هناك أعظم من هذه الكارثة، وهي أن يقع الفنان في مخالب عديمي الفن.

ثم تحرر الفنانون، وكانت حريتهم قد وصلت إلى حد بحيث أن جميع التماثيل التي نحتت بعد عصر النهضة كانت تماثيل عارية، وكان هذا بمثابة تعبير عن انطلاقة الفن من الحصار الذي فرضته عليه المسيحية طيلة أربعة آلاف سنة.

وأما الآن فإن الفنان بإمكانه أن يصنع ما يريد، ينحت، يرسم، وبهذا يعود إلى فترة الفن الرومي، إلى تحرير الفن، تحرير العلم، وتغيير سير الحياة العلمية، من اكتشاف الأسرار الميتافيزيقية إلى اكتشاف قوانين الطبيعة المادية، لتسخيرها في الحياة الاقتصادية والاستهلاكية.

هؤلاء النجوم الذين يرابطون في القمة، بما أنهم كانوا

يفكرون بخلاف الروح السائدة في عصرهم، ويقدمون رؤية أخرى بخلاف طبقة (الانتلكچوال)؛ ولما كانت السلطة بيد طبقة (الانتلكچوال)، فقد أدّت بهم إلى أن يساقوا إلى المحاكمة، أن يحرقوا، أن يقتلوا قتلاً عاماً؛ بل وطُلب من أطفالهم ونسائهم أن يبصقوا على أجسادهم بعد حرقها. إلاّ أن كل ذلك لم يثبط من عزائمهم بل واصلوا طريقهم. وإن هؤلاء هم الذين يوجدون طبقة (الانتلكچوال) بعد عصر النهضة.

لقد اعتزلت طبقة (الانتلكچوال) السابقة بصورة كلية، وحصرت وجودها في أحد زوايا الكنيسة، وابتعدت عن المجتمع ومنبع الحياة والحركة والتاريخ؛ وحلّت محلّها طبقة (الانتلكچوال) الجديدة، والتي هي نفس نجوم قمة المخروط الثقافي في القرون الوسطى، ومن ثم ظهرت للوجود أوروبا المعاصرة والتي هي الآن موجودة أيضاً.

ومرة أخرى نغطس المخروط في أوروبا ما بعد عهد النهضة والقرون الوسطى. نرى العوام أيضاً يمثلون قاعدة المخروط؛ نفس جماهير القرون الوسطى الدينية، لم يختلفوا أبداً. وبإمكانكم اليوم لو ذهبتم إلى «سن بى يير» في روما، لرأيتم أن حشداً كبيراً يزيد على الثلاثمائة والأربعمائة أو الخمسمائة ألف شخص، ليس أشخاصاً مثلنا، كالحاج فلان، أو الطبقة المتأخرة جداً اجتماعياً، بل هم أشخاص محترمون، متحضرون

ذوو شخصية[١]، قد أتوا منذ ليلة ليتخذوا لهم مكاناً، واقفين تحت المطر أو الشمس، ينتظرون ليروا بأعينهم واقعة تاريخية عظيمة ستحدث في ذلك اليوم، وتلك الواقعة هي أن البابا سيُخرج للناس جزء من كتفه عبر شباك بيته، ثم يلوّح لهم بيده من هناك، ثم يقرأ دعاء لم يسمعه أحد، وبعدها يذهب.

وهؤلاء الذين يرون هذا المشهد، تمتلىء عيونهم بالدموع، وتحمرَّ وجوههم من قدسية المنظر والحماس الديني، ومن ثم يفيض وجدانهم بالتوفيق حيث أنّ كلاّ منهم كان يعد نفسه ظرفاً فارغاً وقد امتلأ الآن بالثواب؛ وبعدها يذهبون إلى بيوتهم ويتغذون من هذا الثواب إلى السنة القادمة!.

إن مثل هؤلاء الناس قد كانوا في القرون الوسطى، وحتى أنهم كانوا كذلك قبل أن يكونوا مسيحيين.

إن ما أُريد أن أقوله هو أن هذه الجماهير الواعية، حتى

---

(١) في إيران ـ أيضاً ـ مثل هذه الطبقة في طور التكوين والظهور. في يوم ما كنت أهم بالدخول إلى المطار، رأيت سيداً وسيدة، وبقدر ما كانا عليه من حسن الملبس والوقار والإحترام، فإن كل من يراهم يحاول تلقائياً أن يفسح لهم طريق مرورهم. ثم رأيت همهمة وازدحاماً، سألت عن ذلك فقالوا أن هذين، السيد والسيدة، واقفان هذه الوقفة منذ الليلة الماضية وهما في انتظار «رومينا باور»، الذي يريد أن يمرّ من هنا، ويمكث نصف ساعة هنا، عسى أن ينجحا في محاولة للحصول على توقيعه! مظهر بكل هذه الهيبة، وامنية بهذه الحجم. (جسم البعير وحلم العصافير).

عندما تغيّر دينها، فإن شعورها ووعيها الديني لم يتغير ولم يختلف، وعليه فإن أفضلية دين على آخر لا فائدة لها في بحث الكتاب ولا معنى، بل يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار بالنسبة لأي دين، مدى ومستوى نفوذه في أذهان أتباعه.

إن مجتمعاً وضيعاً غير واع حتى وإن كان له دين متطور راقٍ، فإنه لن يتمكن من الرقي، بل يحط من مستوى دينه الراقي، ويضغطه في قلوبهم الملوثة الضيقة ويمسخه.

وبالعكس إذا كان المجتمع واعياً متحضراً، فإنه يسمو بالدين السالب المنحط، بفضل ذهنيته المتقدمة السامية، ويبدّله إلى دين سامٍ وراقٍ.

انظروا إلى المسيح، أيّ دور لعبه في التاريخ وما هي جهته. المسيح الموجود الآن في العالم ـ لأننا نحن لا نعرف المسيح الحقيقي ـ، مسيح صنيعة الامبراطورية الرومانية لتبرير ذلّة الأرقاء الشرقيين وحكومة الأباطرة الرومانيين، الذي يقول: إذا ضربك أحد على خدك الأيمن، أيها الإنسان، وهذا ليس بالشيء المهم، فادر له خدك الأيسر! . إذا سلبوك عباءتك، قدّم لهم رداءك أيضاً، لأن على الإنسان أن يشيع المحبة في الحياة، ويصفح عن المذنب بل وحتى عن العدو.

إن مثل هذه الدعوة وبهذه الصورة، حتى بالنسبة للشعوب

سواء كانت أسيرة الأمبراطورية العثمانية أو أسيرة الاستعمار الغربي، تتحول بفضل المثقفين الواعين الأوروبيين، إلى صورة مجسدة وكأنما هي مصدر الجهاد والحركة والمقاومة؛ تتحول إلى مسيحي يبث الوعي والحركة والعزة، تتحول إلى قيادة تلهم الجماهير العدالة والحرية والخلاص من قيد الاستعمار والاستبداد.

ولكن نفس هذه الشخصيات العظيمة، التي أمضت حياتها في الهام الحرية والدفاع عنها ومقاومة الظلم والاستشهاد في هذا الطريق نفس هذه الدماء المتدفقة، وفي مجتمع ملوث منحط، تتبدل إلى بتروكيماويات حمقاء تحول الدم إلى هيروئين، كما ترون.

والدين الذي قضى كل تاريخه في السعي من أجل الجماهير، ومن أجل حرية اتباعه وعزتهم، هذه الحقائق، هذه العقائد، وهذه الشخصيات، تتحول في ذهنية المجتمع المنحطة وذهنية أتباعه، إلى عوامل سلبية.

ولهذا، وعندما خطب السيد جمال الدين في فرنسا في «كالج دوفرانس» وتحدث عن الإسلام وبالمستوى السامي الذي كان يفهمه هو، تعجب «ارنست رينان»[١]، الشخص المحكوم

(١) عالم كبير من علماء القرن التاسع عشر، مخالف للدين.

الملعون من قِبَل الكنيسة، تعجب من معنى الدين بشكل عجيب، ثم جاء واعترف اعترافه المشهور: الإسلام دين الإنسان، وإني قد فهمت الآن أن قيمة كل دين ترتبط بقيمة شعور وإدراك أتباع ذلك الدين.

ننتقل إلى الفترة التالية، أي لو أغطسنا الآن المخروط، نرى أن الجماهير نفسها السابقة، جماهير العصور الجديدة هي نفسها كما كانت في القرون الوسطى. وهم في القرون الوسطى ظلوا مسيحيين ونحن الآن مسلمون. إننا نحن الآن مسلمون كما كنا، وإن المسلمين في الأماكن الأخرى هم فرقة أخرى، والمسلمون العوام مسلمون بالقدر الذي عليه عوام الهند الذين هم بؤذيون أو ويدائيون مرئيون. إن كل دين عندما نفرغه من الذهنيّة العاميّة يظهر بصورة واحدة.

بناء على هذا نرى هنا أيضاً في قاعدة المخروط، العوام الدينيين المنحطين غير الواعين في نفس أوروبا(١).

---

(١) كان أحد أصدقائي يريد أن يتزوج من فنانة اسبانية، لقد عشق كل منهما الآخر، ولكنهما ابتليا ببلاء عجيب. كانت السيدة راقصة متجولة وقد وصلت إلى اوروبا ومن ثم إلى فرنسا خلال تجوالها وسياحتها، وعندما التقاها صديقي أحس أن كلاً منهما يتفهم الآخر! وبعدها قرر الزواج. كان ابتلاؤهما دينياً! ابتلاء ديني! السيدة كانت تقول عليَّ أن أكسب رضى قسيسي لزواجي! وأنت التي أسمى من المثقف إلى هذا الحد، ألك قسيس أيضاً؟ نعم. أنا كاثوليكي (وقسيس مثل هذه السيدة معروف

في فرنسا التي مرّ الآن على ثورتها الكبرى قرنان من الزمن، في فرنسا التي هي مركز عصر النهضة والتجديد وقد سبقت الجميع، وقد اضمحلت فيها التعصبات الدينية، وأضحت في الطليعة بالنسبة للديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان؛ لازال هناك عوام، والذين يتولونهم يفكرون بمستوى أولئك العوام في القرون الوسطى.

إننا نرى مثل هذا في القرن العشرين، نرى أن روما لا تجيز للمسلمين ـ المسلمون الذين كانوا يعتبرون الأقليات اليهودية والمسيحية في بلادهم وعلى طول تاريخهم بمثابة ضيوفهم ويمنحونهم الحرية(٢) ـ ببناء مسجد لهم هناك.

أي قسيس هو). ذهبت السيدة وسألت. كانت فتوى روحاني كنيسة كبيرة في باريس القرن العشرين كما يلي: أن أتباع السيد المسيح ـ بعكس بعض الأديان التي لا تجيز الزواج ـ يتمكنون الزواج من أي شخص، مهما كان دينه، لأن الجميع عباد الله، إلاّ الأسود والمسلم! وعندما سمعت السيدة هذا الكلام، قالت: إنني إن لم أتمكن من تحمل حبك فسوف انتحر، وإذا استطعت فإني لن أكون زوجتك، لأنك على خلاف ديني! كانت هذه مشكلتهما. أنا قلت: يا سيدي، غيّر روحانيها، أنا أعرف شخصاً آخر أتمكن من أن آخذ منه فتوى لصالحك. وأخيراً وجد قسيس مثقف يقول لا مانع. وعندها انتفت المشكلة.

(٢) حتى أنه يوجد في أحكام الفقه الشيعي، تخصيص مبلغ من الزكاة الإسلامية لصالح هذه الأقليات، بل أن هناك في تاريخ الإسلام توجد موقوفات أوقفها المسلمون لغير المسلمين، وحتى أن هناك ميزانية في بيت مال المسلمين تخصص لتعمير المعابد والكنائس المسيحية واليهودية والخاصة بأهل الكتاب.

ونرى في نفس هذا القرن، أن الإيطاليين التقدميين ـ وعلى الرغم من وجود الكثير من الأحزاب التقدمية، وكفاح الطبقة المثقفة ـ عرضوا حديثاً، مع ألف قيد وشرط، موضوع الطلاق وهم على وجل من ذلك؛ ومع أن مثل هذا الطلاق ليس بنفع أحد، إلاّ أننا نراه قد حورب بشدة وأن الكنيسة لا يمكنها قبوله وهي تحكمه بشده.

في مثل هذه الظروف نرى أن قاعدة المخروط هي نفسها لم تتغير. جاء عصر النهضة وذهب، وجاء كيپلر وغاليلو وأمثالهما، ونما وعيهم وسادوا، وتغيّرت في العالم طبقة (الانتلكچوال)، ولكن القاعدة ظلت هي هي كما كانت.

أما طبقة (الانتلكچوال) فقد تغيّرت بصورة عامة. أي كما كانت طبقة الروحانيين تمثل، في القرون الوسطى، طبقة (الانتلكچوال) السائدة على العصر، فإن طبقة الانتلكچوال) الحالية تشكلت وفقاً للنظرة التي عرضها نجوم أواخر القرون الوسطى أولئك، واولئك هم هؤلاء (الانتلكچوال) الموجودين الآن في العالم، الذين نريد أن نقلِّدهم. إن لهذه (الانتلكچوال) ومن وجهة نظر علم الاجتماع الثقافي، الخصائص التالية: أنها تخالف الاعتقاد بما وراء الطبيعة، تخالف العقيدة الغيبية والشعور الديني، تخالف التفكير الفلسفي بالمعنى القديم، تخالف سعى الفكر الحثيث لاكتشاف الحقائق، تخالف حكومة

الدين العالمية، أو حكومة الأقلية الدينية على المجتمع، تعتقد بأصالة العلم في مقابل أصالة الإيمان وأصالة الشعور؛ تعتقد بصحة النتائج التي يتوصل إليها العقل المنطقي والتحليلي، وخطأ كل ما لم يستوعبه العقل المنطقي التحليلي.

تعتقد بأنه ما دام الدين والأخلاق وكثير من الضوابط العقلية (الديكارتية) (Cartesian Rationel) غير قابلة للتحليل والتبرير، إذاً فهي غير قابلة للقبول، تعتقد بأنه علينا أن نسخر العلم لاكتشاف القوانين والقوى الطبيعية والاستفادة منها، على عكس ما كان في الماضي حيث كنا نسخره لمعرفة حقيقة العالم.

تعتقد بأنه يجب ألاّ يكون العلم، كالماضي، حاملاً لرسالة هداية البشر، بل عليه أن يحكم سيطرة الإنسان المعاصر على الطبيعة، تعتقد بأن الواقعية على صورة كليشة، سواء كانت بالصورة المادية أو بالصورة الطبيعية أو الراديكالية (والواقعية تعني أصالة كل ما موجود)؛ بصورة غرائزنا، وفي إمكانيات المادة والطبيعة والحياة المادية التي هي في متناول أيدينا، وكل ما هو محسوس للإنسان ومفيد له. والأصالة في كل هذه الأمور تجدد الحياة البشرية وتميزها، وأكثر من هذا، السقوط في الأمنية الذهنية وانحطاط البشر.

وعلى كل حال، فإن هذه الطبقة تعتقد بأنه علينا أن نحل

العلم محلّ الدين، ليحقق الجنة للبشر في حياتهم هذه وعلى هذه الأرض، بعكس الدين الذي يعد الإنسان بالجنة بعد موته.

بناء على هذا، وبكلمة واحدة ينقلها «فرانسيس بيكون» [وهي توضح، بصورة تامة، تغيير (انتلكچوال) القرون الوسطى إلى (انتلكچوال) القرون الحديثة، وهي بمثابة شعار القرون الحديثة] وهي: «يتوجب على العلم أن يتخلى عن حلم اكتشاف الحقيقة ـ الحلم الذي عطّل العلم نفسه بسببه آلاف السنين وبعدها لم يكتشف الحقيقة ـ ويتوجه لاكتشاف السلطة والفوز بها». أي أن عبادة السلطة حلّت محل عبادة الحقيقة لدى طبقة (الانتلكچوال) الجديدة.

لقد كان الإنسان في الماضي يعرف بأنه موجود يشبه إلٰه ماوراء المادة، وها هو الآن قد تحول إلى إنسان مادي يعبد الاستهلاك كما هو البورجوازي. كذلك، وخلافاً للماضي، حيث كان الدين يطرح الله باعتباره أسمىٰ ملاك للقيم في العالم، وكان يدعو الإنسان إلى تحقيق تكامله بالتقرّب إليه، فإن الانتلكچوال الجديدة أضحت معتقدة بوجوب الاعتراف للإنسان ـ الإنسان بصورته الحاضرة ـ بالإصالة وقبول هذه الأصالة، لأنه لما لم يكن هناك إله، وفيما لو كان فلم يكن له أثر في حياتنا المادية، لذا يتوجب العودة إلى (أصالة الإنسان) كما هي، وإعطاء الإنسان كل ما يريده الآن.

بناء على هذا، فإن انكار الدين، سواء كان عن طريق تجاهله وحياد (الانتلكچوال) له، أو بصورة المخالفة الشديدة له وذلك باسم العلم والحقيقة والواقع، وإن الدين لم يكن علمياً ولم يكن واقعياً؛ إن هذا الإنكار قد أوجد الحد الفاصل ما بين خصوصيات القرون الحديثة وخصوصيات القرون الماضية.

وبالتالي، لو أغطسنا المخروط في المجتمع المعاصر، فإننا نرى أن فئة (الانتلكچوال) هي نفسها فئة القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر واوائل القرن العشرين، التي سبق أن أوضحت مُميزاتها والتي وصلت إلى أوجها في القرن التاسع عشر. أصالة العلم، أصالة الحياة الإستهلاكية، الرفاه، ثم الرفاه، ثم الرفاه. هذه هي فلسفة الحياة.

ولكن هناك نجوماً متفردة لاحت فوق شريط (الانتلكچوال) الحاكمة الحالية. هذه النجوم المتفردة لها نفس ذلك الدور الذي كان للنجوم المتفردة في أواخر فترة القرون الوسطى.

هؤلاء يفكرون بخلاف طبقة (الانتلكچوال) السائدة على عالم اليوم؛ وأن نظرتهم، اطروحتهم، تمسكهم بالمستقبل، شعورهم، عقيدتهم العلمية التي يؤمنون بها، انطباعاتهم عن حياة الإنسان، والمدنية، هي تماماً بعكس ما تفكر به اليوم (الانتلكچوال) المتعلمة الشائعة في العالم وما تعتقد به.

لاحت هذه النجوم تواً، لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى حد قول «برشت»: «العلم أيضاً أعلن اندحاره بظهور الفاشية واسناد الحرب».

إن سبب اندحار العلم هذا، باعتبار الأصالة التي كانت له لكل مثقفي العصور الجديدة، هو الحوادث التي جرت أواخر العصور الجديدة، أي النصف الأول من القرن العشرين، والذي نشبت فيه وخلال مدة قصيرة حربان عظيمتان، ومن ثم وفي أوج قدرة العلم حيث لم يكن وجود للدين، وكان العلم هو لوحده الهادي والمرشد، أطلَّ الاستعمار إلى الوجود، وتمت إبادة نصف البشرية، وقسّم العالم إلى خمسمائة مليون إنسان، ومليارد وخمسمائة مليون محلّي (ليس بإنسان).

لقد ظهرت إلى الوجود مسؤولية إبادة جميع العناصر غير الأوروبية باعتبارها رسالة أوروبية.

لقد عادت العنصرية البدوية الجاهلية الممقوتة، التي كان الإنسان قد ابتعد عنها قروناً، من جديد باسم العلم؛ وعاد إلى الوجود التضاد الطبقي الذي أوجد الاستثمار الفاحش أكثر من أي شيء؛ عادت إلى الوجود المعتقدات الكاذبة، التي تمسخ الناس أكثر من الأديان المنحرفة المنحطة وتدعوهم إلى الكذب والانحراف.

وظهر إلى الوجود فلاسفة عظماء ممن كانوا يبررون

الديكتاتوريات الكبيرة[1]، ومن ثم، فقد باتت الجماهير ضحية أصالة العلم، ضحية الحضارة الكبرى، وجماهير الشعوب المتخلفة، غير الأوروبية، أضحت أكثر من غيرها ضحية الوحشية المسلحة والمجهزة بالعلم، والأسوأ من كل ذلك هو أن أصبح العلم خادم الثروة.

في السابق كان العلم والمال يعيشان منفصلين عن بعضهما، وطبعاً كانت هذه كارثة، كان أصحاب المال لوحدهم، والعلماء لوحدهم. وعلى حد قول الشاعر الذي يقول:

العلم والمال نرجس وورود لا يتفتحان معا

من عنده علم لا مال له ومن عنده مال لا علم له

بناء على هذا، كان بإمكان الإنسان أن يختار، فإذا كان يريد المال، فإنه يتوجب عليه أن يذهب وراء كسب المال وطريقه واضح: العمل التجاري. وإذا كان يريد العلم، فإن طريقه واضح أيضاً: زاوية من زوايا البيت، وحوله عدد من الأفراد والجوع والفقر والشقاء والحرمان، ولكن على كل حال، مع شرف العلم وقداسة الفكر والتفكير.

---

(١) جمع موسوليني عدداً من الفلاسفة، حوالي خمسة عشر أو ستة عشر في غرفة واحدة، بعدها دخل الغرفة وقال: ليس لي وقت كثير، أنتم فلاسفتنا وأفضل فلاسفة إيطاليا. بعد خمسة عشر يوماً ستكون الإنتخابات أوجدوا فلسفة للشعب الإيطالي حتى يعد نفسه للانتخابات. ثم أغلق الباب وذهب مسرعاً! والآن من يتجرأ على ألاّ يصنع الفلسفة؟!.

أما الآن فقد تزاوج هذين الإثنين، زواج على الطراز القديم وليس بالزواج العصري. والأمر واضح في مثل هذه الزيجة، من هو الزوج ومن هي الزوجة، وبهذه الصورة بات المال متحكماً تماماً بالعلم؛ لأن العلم كان قد حدد هدفه بتحقيق السلطة وليس اكتشاف الحقيقة؛ ولأجل أن تتحقق السلطة فإن العلم والعالم بحاجة إلى المال، وأن تغيير النزعة هذا ألقى العلم ـ بصورة تلقائية ـ في أحضان الرأسمالية والبورجوازية، وبشكل عام أصبح آلة بيد الرأسمالية. إن هذا الذي كان، هو الذي مكّن العلم ـ الذي ارتبط بالمال والقوة ـ من المحافظة على استقلاله في العالم، أو على الأقل لجماعة خاصة.

وما هو موجود اليوم، أن حتى ذلك الطفل الذي يريد أن يبتدىء بالدراسة، يكون من اللحظة الأولى تحت اختيار الرأسمالية، كالطفل اليتيم الذي لا والي له تماماً، تقدم له غذاءه ومعيشته، لأجل أن تتمكن من استخدامه والاستفادة منه كما تريد. وأن أي محقق ليس بإمكانه أن يتدخل في أي علم، وإنّما عليه أن يؤدي العمل الذي يكلف به، يكتشف ويحقق ما يراد منه وحسب، كما هو حال فلاسفة موسوليني تماماً[1].

إن إنسان اليوم، (الانتلكچوال) اليوم، الذي يظهر بهذه

---

(١) راجع الهامش السابق.

الصورة، الذي يعي متأخراً، الذي يفكر عن طراز تفكير القرون الثلاثة الأخيرة، يلمح فوق رأسه عدداً من النجوم المتفردة يتنازعون مع العلم بالصورة التي هو عليها من الرقيَّة السائدة على العالم، يتنازعون مع أصالة الإنسان، أصالة الإنسان بالمعنى الذي حبست الإنسان في إطار ماديتها(١)؛ يتنازعون مع «السيانتيسم»، بمعنى حياد العلم وتبديله إلى آلة بيد السلطة، وعدم التزامه في مقابل تقرير مصير الإنسان وهدايته ووعيه؛ يتنازعون مع أصالة العنصرية (التمييز العنصري)، أي أصالة المنطق العقلي باعتباره الملاك الوحيد لفهم حقائق العالم؛ ويتنازعون مع هذه العقيدة وهي أن ما يدركه عقل الإنسان العلمي له واقعية قطعية ومطلقة. وبالنتيجة فإن مبادىء (الانتلكچوال) الحالية، لم تتلاش من القرن إلى القدم، بل تزلزلت بحيث أن النجوم المتفردة، أمثال كيپلر وغاليلو زماننا، لهم نفس المصير الذي كان لأولئك الذين كانوا في قمة المخروط في القرون الوسطى، أي مقاومة النظام الحاكم على (الانتلكچوال) الحالية في عالم اليوم، والتي ستهيء روح عالم اليوم لإيجاد وتحقيق غد الإنسان الجديد والشهادة عليه.

أيّ أشخاص هؤلاء؟ سأذكرهم فرداً فرداً على قدر ما تسعفني الذاكرة، وأرجو منكم أن تسجّلوا ذلك باعتباره واجباً

---

(١) راجع المحاضرة السابقة، سجون الإنسان الأربعة.

للتعرف على أعمق حادثة حدثت في تفكير عالم اليوم؛ إن معرفة هؤلاء، باعتبارها من أولويات مسائل عصرنا لها أهمية خاصة بالنسبة إلينا، وأنا سأذكرهم بصورة مختلطة لأنني لا أتمكن في هذا الوقت من التصنيف، علماً أن كلاً من هؤلاء الذين سأذكرهم ليس معناه أني أقبلهم على علاتهم، وإنّما هم أشخاص يفكرون من على قمة ما وراء الطبقة الحاكمة الحالية:

الأول، «اوجون يونسكو»، ولحسن الحظ، فقد تُرجم له إلى الفارسية «الكركدن»، وهو شخص فنان، وكاتب في العلوم الاجتماعية يفكر بصورة اخرى، يفكر بشكل جديد، ويريد أن يعرض إنساناً جديداً.

«رينه غنون»، له كتابان أساسيان أحدهما باسم «أزمة الوجدان الأوروبي» وهو الآن في حال الترجمة، وهو من الكتب الجيدة جداً، واحد التمردات العظيمة على الغرب الحالي.

«الكسيس كارل»، فسلولوجي عظيم، وقد حاز على جائزة نوبل مرتين خلال تحقيقاته، ومثل هذا قد يكون نادراً. تحقيقاته تدور في مجال علم الفسلجة وعلم الإنسان. تُرجمَتْ له ثلاثة كتب، أحدها «الإنسان ذلك المجهول»، والآخر «أُسلوب وطريقة الحياة» الذي عنون فيه اسلوب تفكيره الفلسفي وعرضه

على أساس تحقيقاته العلمية الجديدية، والتي هي على خلاف علم اليوم. والثالث رسالة صغيرة باسم «الدعاة». وله رسالة أصغر منها أيضاً باسم «تأملاتي في سفر لورد»[١] التي كتب فيها تأملاته الفكرية والفلسفية والعاطفية وهي متممة لمدرسته. وحسب قول أحد الكتّاب الكبار: لم يكن لأحد ـ خلال السنوات العشرين الماضية ـ من النفوذ في تفكير الجيل الجديد، بقدر ما كان لألكسيس كارل.

وفي القضايا الاجتماعية (بمختلف الأبعاد) «فرانتز فانون». ولأجل التعرّف عليه انقل لكم جملة قالها سارتر: «لم يكتشف أحد بعد (انجلز) زوايا الاجتماع الخفية بمثل ما اكتشفها (فرانتز فانون) بدقة».

بالطبع هذا حكمه. كذلك نفس السيد سارتر خطب في كازينو «موزل مان»، وقال: يا أوروبا، إن كتاب «معذبو الأرض»[٢] ـ والذي هو نحن ـ قنبلة صنعها إنسان من العالم الثالث، إنسان العالم الثالث الذي لم يكن له حق التكلم قبل أن نسمح له، لم يكن له الحق غير ترديد صوتنا وشعارنا؛ ولكن نحن الآن ساكتون وهو يتكلم، وأي كلام! يثير علينا مواطنيه في جميع أنحاء العالم الثالث. هو صنع هذه القنبلة، وأنا أخذتها

---

(١) Ma contemplation sur Lord.

(٢) Les Damnes dela terre

منه لأفجرها في قلب القرن المعاصر البليد الملوث، الفجيع الجاني، الذي هو باريس، ليتمكن العالم، بتحطيم هذا القلب، من الحصول على حريته، ويحقق الإنسان كينونة إنسانية.

هذا أحد كتبه، وكتابه الآخر هو «انقلاب افريقيا» الذي يضم مقالاته، وكلاهما قد ترجما. على كل حال، تتمكنون من قراءة مؤلفاته بالانجليزية والفرنسية.

البروفسور «شاندل»، إنسان له أبعاد مختلفة، فهو من جهة حصل على درجة الاجتهاد من مدارس المغرب وشمال أفريقيا الإسلامية، ومن جهة أخرى هو أحد كتَّاب ومفكري القرن الحاضر البارزين ومن رفقاء «البيركامو» وسارتر وأمثالهم.

هذا الرجل ولأنه ذو لغة مزدوجة، فإنه بنفس المقدار الذي كلامه مجهول وغير مفهوم لدى الغرب، فهو بالنسبة للشرق التقليدي يعتبر كلاماً جديداً إلى حد أنه أصبح مجهولاً أيضاً، في حين هو بالنسبة إلى المجموعة التي تفكر وفقاً لثقافتين في عالم اليوم، يعتبر إنساناً عظيماً جديداً ومفكراً إيجابياً جداً وأنه صاحب اطروحة جديدة.

من كتب البروفسور شاندل؛ كتاب «علم الاجتماع التقليدي»، كتاب «خشية الكينونة»، الذي له شبه بعض الشيء بكلام الوجوديين، إلاّ أنه وجودية شرقية، كتاب «أين مستندنا»، والآخر «أصل عدم القطعية في الحياة»، وأصل عدم

القطعية[١] لم يكن موجوداً في فكر (الانتلكچوال) الحاكمة على القرون الجديدة، لأن كل شيء كان قطعياً بالنسبة له وتتضح قطعيته بصورة أكثر بواسطة العلم، ولكن اليوم اكتشف أن أصلاً باسم أصل عدم القطعية، له وجود في الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية، وهذا الأصل هو نفسه الذي كان قد أنزل ضربة قاصمة بهيكل «السيانتيسم»[٢] (حياد العلم).

نجم آخر من هذه النجوم هو «عمر مولود» المفكر الجزائري الكبير.

والآخر «اينشتاين». وآخر أعمق من اينشتاين باعترافه هو، وهو «ماكس بلانك». واحد آخر هو «جوزويه دوكاسترو» الذي نعرفه إلى حدٍّ ما، ولكن قيمته أقل مما نعرفه نحن، وبالطبع فإنه معرفته لها قيمة.

أحدهم ـ أيضاً ـ «كاتب ياسين». أحدهم «اليت» وهو أديب وكاتب، ويعتبر ـ حتى من قبل أعدائه ـ أكثر نبوغ في الكتابة والتأليف الأدبي، والنقد.

---

(١) undetermination.

(٢) من العوامل التي كانت سبب فناء السيانتيسم ـ حياد العلم ـ عدا أصل عدم القطعية، أحدها نسبية اينشتاين، ثانيها البيولوجية، ثالثها اطروحة ضد المادة، الرابع فشل رسالة العلم بالمعنى الأعم، التي جعلت الناس متشائمين أكثر وأسرع من غيرها. وبالتالي عدم تكافؤ حاجة الإنسان بواسطة المدينة التي هي صنيعة العلم، وتمرد الإنسان علينا.

الآخر «عمر اوزغان» أو «عمر اوزقان»[١] وهو من المفكرين الإجتماعيين.

نجم آخر من هؤلاء، بعكس ما يتبادر إلى الذهن، هو «سارتر». وبالطبع ليس باعتباره جزءً كاملاً من هؤلاء النجوم، بل باعتباره الشخص الذي في طبقته الحاكمة، في طبقته (الانتلكچوال)، قام بتمرد وعصيان وانكار (الانتلكچوال).

والأهم من سارتر هو «هايدجر»، والذي هو أعمق من سارتر، وأهم من هايدجر هذا، قياساً بحداثة أفكاره وليس باعتباره فرداً حديثاً يعنون فترة جديدة، هو «ياسپرس» المعاصر. ومن المؤسف، ولضيق الوقت، أترك البقية إلى وقت آخر.

وأذكر عدداً من الكتب أيضاً: كتاب «العطش والجوع» وهو مهم جداً، ومن حسن الحظ فقد ترجم إلى الفارسية. الكتاب الآخر «مصير البشر»، الذي ترجم بواسطة السيد انتظام وترجمته رديئة، إلاّ أن الكتاب جيد جداً. ويمكن ذكر كتاب «المسيح يصلب من جديد» إلى حد ما.

إنني أذكر هذا لأني أعتقد أن المثقف ليس بالشخص الذي

---

(١) لو فكّرتم، خلال ذلك، بهذه الاسماء ترون أن كثيراً منها أسماء شرقية، وهذا يدل على أن عالم الغد هو عالم نتدخل فيه نحن الشرقيين، بخلاف العصر الجديد الذي كنا فيه دائماً اسرى واجانب وعنصراً ثانوياً، وكان الآخرون يتحكمون بنا. وفي طلوع الغد ستكون الأفكار الإفريقية والاسيوية هي التي تبادر بالعمل، بنفس القدر الذي عليه أوروبا.

ينتظر في مجتمعه، ما يترجم له وما تصدره دور النشر وما تعرضه معارض المكتبات، ليقرأها ويكوّن عقيدته، إذا كان هكذا إذاً فالمثقف رجل ليس له تكليف، يكون حيثما هم يريدون، هو يكون بنفسه، وما هو موجود الآن هو هذا.

في حين أن المثقف هو الذي يكسر الجدران التي حددت وعينت لمحيطه الفكري، ويبحث عن طعمته بحرية في كل مكان، بمعرفة اللغة، بالتحقيق والفكر. إننا نرى كثيراً من هؤلاء لم يُعرفوا أصلاً، ولكن علينا أن نعرّفهم، أن هؤلاء هم من الأبعاد الأساسية لعالم اليوم.

ومن الخصوصيات التي توجد عند مجموعة هؤلاء، فمن الناحية الإنسانية أن رأي جميع هؤلاء، بخلاف المادية والطبيعية في القرن التاسع عشر، تتجلى فيه العظمة الإلٰهية وميتافيزيقية الإنسان، ورغم أن بين هؤلاء من لا يعتقد حتى بالله وبما وراء الطبيعة، إلاّ أنهم يعتقدون بهذه العقيدة ـ حتى سارتر ـ وهي أن الإنسان موجود ما وراء الطبيعة وما وراء المادة.

عقيدة أُخرى من العقائد المشتركة لهؤلاء، هي أن رسالة العلم في صياغة الإنسان النموذجي الذي يجب أن يكون قد فشلت، وإن هذا الذي صنعه اليوم العلم أو البورجوازية أو الفلسفة المادية في الدنيا، هو شيء وإن كان الإنسان يتمتع فيه، ولكنه يعمل على مسخه.

والشي الآخر هو إنكار النظام السائد على الحياة وفلسفة وجود الإنسان، وفلسفة حياة الإنسان، والرسالة والمسؤولية التي وضعها حياد العلم على عاتق العلم، وإنكار أصالة المنطق العقلي، أي الثورة على «ديكارت» و«كنت»، وهما نبيا القرون الثلاثة الأخيرة ومؤسسا اسلوب تفكير العصور الحديثة، و«فرانسيس بيكون» و«روجرز بيكو» مؤسساً منطق العلم التحقيقي الحديث. وكذلك رجوع العلم من حب السلطة الإنحصارية إلى البحث عن الحقيقة والهداية الإنسانية، أيّ القيام بدور النبوة بواسطة العلم.

أما وجه الاشتراك الآخر لهؤلاء فهو أنهم غيّروا شعار (الانتلكچوال) الحاكمة على العصور الجديدة وهو، بدل أن نصنع إنساناً مقتدراً يجب أن لا ننسى بأن نصنع إنساناً جيداً.

الإشتراك الآخر هو أن حياة الإنسان تقوم على أساس قواعد ثلاث: «الواقعية»، «الجمال» و«الخير». الواقعية بواسطة العلم؛ الخير قاعدة الأخلاق؛ والجمال أساس الفن، في حين يرينا العلم، بشكله الحالي، «الواقعية» فحسب.

ومن وجهة نظر فيزياء العلوم الحديثة، أكرر كلام «ماكس بلانك[1] باعتباره الشخص الوحيد الذي بإمكانه التحدث عن

---

(١) إن ماكس بلانك، شخص يقول عنه اينشتاين: جاءني سيد وطلب مني أن أكتب مقدمة لكتاب «إلى أين يذهب العلم» لماكس بلانك، إلاّ أني ضحكت لذلك، فكأنما يريد أن أدل الناس على الشمس بنور شمعة.

الفيزياء المعاصرة أكثر من غيره، إلاّ أنه قبل ذكر كلامه انقل لكم قولين من أقوال اينشتاين أحدهما يقول: كل من لا يواجه الحيرة العرفانية في العالم لم يتوفق أبداً لاكتشاف الحقيقة في عالم الفيزياء. وفي مكان آخر يقول: أجد ما بين الأصليين الفيزيائيين: «المادة: اللبنة الأولى لبناء العالم»، و«الطاقة: اللبنة الأولى»، حقيقة ـ لا أعرف ما هي ـ هاربة من يد الفيزياء، باعتبارها وجوداً مجهولاً، تتجلى تارة بصورة المادة واخرى بصورة الطاقة، ولكنها تبقى مجهولة دائماً بالنسبة للفيزياء، وأحب أن أسميها الله.

أما ماكس بلانك فهو يقول: إن «كيبلر» خالق علم الفيزياء ـ ويذكر اسم شخص آخر أيضاً[١]، كان أذكى وأعرف بالفيزياء من «كيبلر» ـ كان يؤمن بأن العالم صنيعة إرادة واعية لها عقل وشعور حاكمة على جميع الوجود، وعالم الفيزياء عالم حيّ له شعور وله إرادة. أما الآخر الذي كان فيزيائياً أيضاً، كان عالماً أيضاً، وكان أعلم من كيبلر أيضاً، لم يكن له مثل هذا الإيمان بالعالم، ويرى أن العالم عبارة عن ذرات منتظمة من العناصر. ولهذا السبب بالذات انحسرت اكتشافات هذا السيد، الذي لم يكن له إيمان، بعدّة اكتشافات جزئية في الفيزياء، مثل تأثير اشعة اكس على ذنب الفار مثلاً، أمّا كيبلر، الذي كان أقل منه

---

(١) «إلى أين يذهب العلم». ترجمة آرام.

ذكاء فقد أصبح خالق علم الفيزياء الحديث.

ثم يورد ماكس بلانك الجملة التالية: «مكتوب على واجهة باب معبد العلم: من ليس له إيمان، لا يدخل هنا».

وأنا أُريد أن أصل إلى هذه النتيجة وهي أن هذه الأقوال والكلمات، كان يمكن أن توجد في هذه السنوات العشرين الأخيرة فقط، وإن كانت تتبادل بين العلماء والروحانيين دائماً، ولكن في القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يتمكن عالم كبير من أن يتكلم بمثل هذا الكلام.

ولهذا أقول: إن هؤلاء يتكلمون خلافاً (للانتلكچوال) المحايدة علمياً الحاكمة على العالم في العصور الجديدة.

عندما اكتشف «كلود برنارد»، عالم القرن التاسع عشر الكبير السمن لأول مرة قال: «وجدت الله، وجدت الروح، وجدت جميع حقائق الإنسان وذلك في السمن»، وهو يعرض للبشرية، بتحقيق حديث حول السمن والحصول على معادلته، «ما هو سرّ الإنسان». وعندما رأيت صورته، رأيت له الحق، لأنه مكوّن من السمن واقعاً!. وقد قال بعد ذلك، بتبختر وغرور: «إذاً لم أجد الروح والله تحت مبضع الجراحة، فلن أعتقد بهما». هكذا تتكلم (انتلكچوال) العصور الجديدة.

أما «الكسيس كارل»، عالم الفسلجة، الذي حصل على

جائزتي نوبل بفضل إنجازه في ربط العروق وتطعيمها، والمحافظة على قلب فراخ دجاجة خارج البدن لمدة خمس وثلاثين سنة، فهو يقول: إن الدعاء، الحب، والعبادة، حاجات أساسية تنبع من أعماق فطرة الإنسان، كالغذاء. العبادة والحب والدعاء، تسمو بالروح دائماً، في حركة تكاملية للإنجذاب من الأرض نحو ذلك المركز المعنوي المرموز للعالم، إن الدعاء يؤمن تحليق الروح من ليل العقل المظلم نحو أبدية الحب السامية.

ولهذا فإن هذا المخروط هو الآن بهذه الصورة: قاعدة المخروط دينية، الدين ما دون العلم؛ والفئة التي تليها، (الانتلكچوال) المتعلمة المثقفة، ليس لها دين. وما يلي ذلك، هذه النجوم المتفردة العالية التي تتكلم عن الغد؛ وهؤلاء أيضاً لهم شعور ديني، ولكن، وكما يشير هذا المخروط، فإن الحد الفاصل بين دين النجوم المتفردة العليا وبين دين الجماهير العامة في قاعدة المخروط، أكثر من الحد الفاصل بين دين تلك النجوم وكفر هذه (الانتلكچوال).

٦ ـ الأيديولوجية

أيها الحضّار المحترمون، أيتها السيدات، أيها السادة، أصدقائي الطلاب.

كان لِلُّطف الذي أحاطوني به في هذه الكلية، والوعي الخاص وجو الإخلاص الموجود بين الطلاب، دافع قوي لأن أُحاضر هنا ـ استثناءً ـ أكثر من سائر كليات المحافظات، وقد قدّمت حتى الآن أربعة أو خمسة أبحاث: الأول الإنسان والإسلام، الثاني الرؤية الكونية، الثالث سجون الإنسان الأربعة، وبحثين آخرين لا أتذكرهما الآن[١]. وعلى كل حال، فهي أرضية مناسبة ـ خلافاً للكليات الأخرى والأجواء الأخرى، التي اضطر أن أتحدّث فيها من البداية واستعرض المواضيع بشكل إجمالي، ومن المسلّم به أن الاستعراض الإجمالي لم يكن مجزياً وإن كان ضرورياً ـ للتطرق شيئاً فشيئاً إلى جزئيات وموضوعات خاصة، وذلك لأن السيدات والسادة الحضّار على إطلاع باسلوب تفكيري ولغتي الفكرية إلى حدٍّ ما.

(١) استخراج المصادر الثقافية وتهذيبها، ومخروط علم الإجتماع الثقافي.

إن ما أُريد أن أعرضه اليوم هو عبارة عن: الأيديولوجية، الكلمة التي هي ـ على حد تعبير أحد كتّاب فرنسا ـ كلمة سحرية تبعث بين الناس، لاسيما الشباب وبالأخص الشباب المتعلم، وسوسة الحياة والتفكير وتدعوهم حتى إلى إبادة أنفسهم.

الأيديولوجية، لقد وردت هذه الكلمة في اللغة الفارسية أيضاً، ونرى أنها تستخدم ـ بكثرة ـ في لغة المحاورة والنقاش لدى الجيل الناهض، وبالأخص المثقفين. أما التعريف العلمي الدقيق لهذه الكلمة أو لهذا الموضوع بالأحرى فلم أره في اللغة الفارسية، وعلى كل حال أرى من الضروري أن نتحدث عنها باعتبارها بحثاً مستقلاً.

إن لفظ الأيديولوجية في الأساس له صلة مباشرة بلفظة أُخرى هي، المثقف أو (الانتلكچوال)، وإن هذين الإثنين متلازمان. بناء على هذا، فإن المثقف أو (الانتلكچوال) مضطر ـ نظراً لأن الأيديولوجية تجسد نزعته الفكرية ـ لأن يكون لديه تصور دقيق عن الأيديولوجية.

ولما كنا في عصر، على أي حال، يجب فيه على جيلنا الواعي المسؤول أن يختار أيديولوجية ما، يجب أن يختار، لأن المسؤولية والوعي تعني اختيار أيديولوجية ما، وإن الذي لم تكن له أيديولوجية هو إنسان يعيش دون أن يفكر، ومثل هذا واضح إلى أي حد هو إنسان؛ لذا تجب دراسة الإيديولوجية

باعتبارها موضوعاً علمياً مستقلاً. وبالطبع فإن جلسة واحدة ومحاضرة واحدة لا تؤدي حق الموضوع، ولكن على كل حال سنستعرض أبعاد الموضوع.

إن كلمة الإيديولوجية كما ترون تتكون من كلمتين «أيده» بمعنى الفكر، الخيال، الهدف، الصورة الذهنية، والعقيدة. ولوجى[١]، التي لها جذور لاتينية، بمعنى المنطق والمعرفة. بناء على هذا، فالأيديولوجية تعني معرفة العقيدة. وفي كلمة واحدة الأيديولوجية تعني: العقيدة، نفس الكلمة التي نفهمها في لغتنا باسم العقيدة. وعليه فالايديولوجي يعني صاحب عقيدة خاصة؛ والايديولوجية هي العقيدة الخاصة لجماعة، لطبقة، لفئة، لشعب ما أو عنصر ما[٢].

---

(١) نفس كلمة logos لوجوس بمعنى المسيح، والشخصية الثانية للتثليث، وأصل اسلوب تفكير المسيحية.

(٢) إن بعض المثقفين المعتقدين بالماركسية (بالطبع إن أكثر المثقفين الذين يعتقدون بالماركسية لا يعرفون ماركس! كالمؤمنين الذين يعتقدون بالإسلام ولكنهم لم يعرفوا الإسلام، كلاهما متشابهان جداً)، يتصور أنه عندما يدور الكلام حول الأيديولوجية يجب أن تكون له جذور طبقية حتماً. أي يجب أن تكون الأيديولوجية خاصة بطبقة. في حين أن ماركس نفسه له كتاب مفصلّ كتب فيه أكثر الموضوعات الخاصة بأيديولوجيته، اسم الكتاب «الايديولوجية الألمانية». إن الكلمة نفسها تدل على أن الايديولوجية لم تكن خاصة بطبقة، بل يمكن أن تكون الأيديولوجية قومية، ومن الممكن أن تكون طبقية، ومن الممكن أن تكون دينية، وحتى من الممكن أن تكون بشرية ومن هنا كان بالإمكان تقسيم الإيديولوجية على أساس الملاكات التي عرضتها.

والآن بإمكاننا أن نتصور حدود الأيديولوجية بصورة واضحة قياساً مع مفاهيم جيرانها. ما هو الاختلاف بين الأيديولوجية والعلم؟

العلم عبارة عن وعي العالم للواقع الخارجي. العلم عبارة عن صورة ذهنية للواقع العيني. العلم عبارة عن استكشاف صلة ما، أصل ما، صفة ما، أو ميّزة ما، في الإنسان، في الطبيعة وفي الموجودات. بناء على هذا فإن صلة العلم بالمعلوم، والتي اسمها العلم، هي صلة المرآة بالأشياء، أو المنظر الذي أمامها. إذاً فالعلم ـ أساساً ـ ظاهرة سلبية، ظاهرة انفعالية؟ (Passive). فالعالِم لا يؤثر في المعلوم، كما هو الفيزيائي مثلاً يعلم أن مقدار جاذبية أي جرم يسقط إلى الأرض يقاس وفقاً لتربيع حاصل ضرب سرعته بالمسافة $(mv)^2$. فهذا يمثل قانون سقوط هذا الشيء في الطبيعة.

فالعالم الذي له هذا العلم لا يؤثر هذا السقوط على أُسلوب تفكيره، بل الشخص هو الذي عليه أن يكون تابعاً ـ حتماً ـ للواقع الخارجي، وفيما لوأراد أن يتدخل في الواقع الخارجي الواضع لديه، فإنه سيفسر العلم ويحوله إلى جهل.

إذاً، فإن أعلم الناس هم أولئك الذين يتبعون ـ من الناحية الفكرية ـ الواقع الخارجي دون كيف ولماذا. وهذا، هو الوعي.

إذاً فالذهن هو بمثابة مرآة أمام القوانين الخارجية الصفات الخارجية، الظواهر الخارجية، يعكس الواقع في نفسه. وهذه الانعكاسات هي عبارة عن العلم الذي ينقسم بعد ذلك إلى الفيزياء، الكيمياء، الاقتصاد وإلى علم الاجتماع.

أما الإيديولوجية، فهي عبارة عن نوع من إعتقاد المفكر بالنسبة إلى أهمية الواقع الخارجي وتقييمه، وكذلك الإعتقاد بما لهذا الواقع من صعوبات وإمكانية تغييرها، وكيف يمكنها أن تكون نموذجية.

هناك إصطلاحان في العلم وفي الطريقة العلمية نخلط بينهما عادة. أحدهما «جوجمان دوفت (Jugement de Faite)»، والآخر «جوجمان دي ڤالير» (Jugement de Valeur). الأول بمعنى تقييم ودراسة الواقع الخارجي. الواقع الخارجي هو «فت Faite»، هو «عين»، هو «هذا»، «هكذا». أنا عندما أكون في المرحلة الأولى، في مرحلة «جوجمان دوفت»، فإن عملي سينحصر في استكشاف خصوصيات هذا الـ«فت Faite»، هذا الواقع، هذه الظاهرة الخارجية فقط وفقط؛ ادرسها بدقة وأعلن: هي «هكذا».

المرحلة الثانية مرحلة «جوجمان دي ڤالير»، وهي بهذا المعنى الذي أقوله: إن الخصوصيات التي تملكها هذه الظاهرة ـ سيّئة، مضرة، محرفة وفاسدة ـ يجب تغييرها بهذا الاسلوب، يجب

تبديل هذه الخصوصيات السلبية بخصوصيات إيجابية، يجب تكميلها وإصلاحها بهذه الصورة، يجب إبادتها بهذه الصورة. وهنا أنا أصنع (جوجمان دي ڤالير) أي: أحكم بالنسبة للقيم.

يجب فصل هاتين المرحلتين عن بعضهما، مثلاً عندما أتكلم عن الإسلام في إيران، ففي مرحلة «جوجمان دوفت» أقول: إن الإسلام دخل إلى إيران وقام بهذه الفتوحات وأوجد هذه التغييرات في مجتمع إيران، في نهج إيران، في أدب إيران، في علاقات إيران الطبقية، في سياسة إيران، في دين إيران، هنا، ليس لنا الحق أن نحدد حكماً؛ ليس لنا الحق سواء كنا مسلمين أو غير مسلمين. علينا أن نكون هنا حياديين ونشهد الوقائع، نسعى لأن نرى ما مضى كما مضى، والسلام. ولو أردنا أن نبدي وجهة نظرنا الشخصية ـ بأي حجم كانت ـ كنا قد أفسدنا العلم ولم يكن عملنا علمياً.

بعد أن تنتهي مرحلة دراسة الواقع الخارجي، علينا أن نبادر إلى التقييم. نجري مقايسة ونرى أن هذا العامل كان سلبياً أو إيجابياً، أضحى سبباً في رقي إيران أو انحطاطها وانحرافها، أبدع قيماً إنسانية جديدة أو أنه أباد القيم الإنسانية القديمة، أباد القومية أو دعا إليها، منح طبقات الجماهير نور الحرية أو حافظ على شكلها القديم. هنا نحن في حالة التقييم، وقد دخلنا مرحلة الدراسة والتقييم وتحسين أو تقبيح الواقع الخارجي.

في المرحلة الأولى، مرحلة (جوجمان دوفت) تمت دراسة الواقعيات الخارجية بدقة، حيث نحن في مرحلة الإطلاع، وفي المرحلة الثانية نصنف القيم وفقاً لحسنها وقبحها، نقترح، ننتقد، نشير إلى طريقة الحل، نبدي وجهة نظرنا، وعقيدتنا. لقد دخلنا مرحلة الأيديولوجية.

بناء على هذا، تكون قد اتضحت علاقة الأيديولوجية بالعلم. وننتقل الآن إلى الفلسفة والأيديولوجية.

إن الفلسفة والأيديولوجية في رأي الكثير من المفكرين متقاربة، حتى أنّها تتصور مترادفة؛ في حين أن علاقة الفلسفة بالايديولوجية بعيدة كبعد العلم عن الإيديولوجية.

تعرّف الفلسفة بأنها: عبارة عن التفكير بكليات ومجهولات لا يصل إليها العلم، وهي خارج عهدته. مثلاً التفكير حول مصير الإنسان، معنى الوجود، فلسفة الحياة البشرية، غاية خلقة الإنسان، موضع ومكانة البشر في العالم، هذه أُمور فلسفية. لماذا؟ لأن العلم لم يكن له طريقة حل لهذه المسائل، لا يتكلم أبداً، لأنها لم تكن في مسيرة المسؤوليات العملية. العلم يبحث في الجزئيات والعلاقات بين الـ «فنومن» (Les Phénomenes). بينما تبحث الفلسفة عن الحقائق والجواهر والأمور الأساسية.

بناء على هذا فإن علاقة الفلسفة بالأيديولوجية هي نفس

علاقة العلم بالأيديولوجية، بمعنى أن الفلسفة كالعلم أيضاً تبحث عن اكتشاف المجهول.

إذاً فالفلسفة علم، إلاّ أنه علم ما وراء العلم، أي إنه يتطلع للمجاهيل والواقعيات، يعقّب «جوجمان دوفت»، وهذه الـ «فت» ـ أسمى من الـ «فت» ـ والواقعيات التي يبحث عنها العلم في المختبرات. بناء على هذا، فالفلسفة نفس العلم إلاّ أنه في مرحلة اسمى وهي بالنسبة للمسائل أهم وأعم.

أما الأيديولوجية، فهي عبارة عن العقيدة، والعقيدة عبارة عن:

أولاً: نوع التصور والفهم الذي نحمله عن العالم، عن الحياة، وعن الإنسان. **ثانياً**: نوع الانطباع والتقييم الخاص والذي وفقاً له تتحدد نظرتنا للأمور التي نحن على صلة معها والتي تكوّن نطاقنا الاجتماعي، والفكري، المرحلة الثانية هي الأيديولوجية. والمرحلة الثالثة هي عبارة عن الاقتراحات، طرق الحل، وكذلك عرض النماذج المثالية من أجل أن نغيِّر، طبقاً لذلك، كل ما هو غير نموذجي والذي لا نقبله الآن.

إذاً، فالايديولوجية تتكون من ثلاث مراحل. الأولى رؤية كونية الثانية: نوع من التقييم الانتقادي للمحيط والقضايا. الثالثة: الاقتراحات وطرق الحل بصورة نموذجية وبعنوان أهداف. ولما كانت كل أيديولوجية عليها أن تعطي، في المرحلة الثالثة، نماذج عملية، مثاليات وخطط نموذجية فإن

لكل صاحب أيديولوجية التزام ومسؤولية تجاه هذه المثاليات التي يعتقد بها، ويجب عليه تغيير الوضع الموجود وفقاً لذلك.

كما ترون أن موضوع الالتزام يأتي إلى المثقف من هنا، وهو جبري بالنسبة لصاحب أيديولوجية. إذاً هناك مرحلة انتقادية لكل أيديولوجية بالنسبة للوضع الموجود (Statu Quo)، أي ما موجود الآن سواء كان معنوياً أو مادياً أو سياسياً أو طبقياً أو اقتصادياً أو ثقافياً أو أخلاقياً وإنسانياً، لا فرق في ذلك. ما هو موجود ـ بالنسبة لهذا ـ إن الأيديولوجية حالة انتقادية. ولما كانت الحالة الانتقادية حالة سلبية لذا فهي تأخذ لنفسها حالة مقترحة، أي يجب ألاّ تكون هكذا، يجب أن تكون هكذا، ويجب أن تكون في مرحلة كهذه، الامنيات هي التي تطرح، الأهداف هي التي تطرح، ويجب ألاّ تكون هكذا، يظهر الوجوب، وجوب التعهد والالتزام والمسؤولية الإنسانية، وتجعل الفرد يمارس العمل والمقاومة والتضحية وهذه أكثر نقاط الايديولوجية المتميزة حساسية.

ولكن الفلسفة لا تقوم بمثل هذا العمل، والعلم أيضاً لا يقوم بمثل هذا العمل. العلم يقول أن هذا الشيء يسقط هكذا، والقوة الجاذبة هكذا، حتى وإن كان الناس كلهم لا يعتقدون بذلك، لا يعتقدون فإلى جهنم، إن العالم غير ملزم بأن يفرض هذه العقيدة على الجميع، هو يبدي رأيه بأن الواقع هكذا،

وليس بمسؤول عن أن الجميع عليهم أن يقبلوا هذا الواقع حتماً؛ على الذين لم يقبلوا هذه العقيدة أن يقفوا في الجهة المقابلة لتبدأ المعركة.

ولهذا نرى في التاريخ أن العلم لم يثر صراعاً أبداً، وكذلك الفلسفة لم توجد الصراع ابداً، وإن كان الاختلاف ما بين العلم والفلسفة كثيراً ولا يزال، ولكن الأيديولوجيين هم فقط الذين أوجدوا الحروب، التضحيات، وكذلك الجهاد العظيم في تاريخ البشرية. هذه هي طبيعة الأيديولوجية واقتضاؤها: الإيمان، المسؤولية، الصراع، والتضحية.

س ـ يجب الأخذ بنظر الاعتبار أن الأيديولوجية لا توجد عبثاً، بل يلزم أن تكون هناك فلسفة حتى توجدها.

ج ـ نعم. إن ما قلتموه أقبل نصفه، وهو أن الأيديولوجية لا تأتي عبثاً. أقبل هذا. ولكن لا أقبل إنّها تأتي من الفلسفة حتماً. أي إن الذي لا يأتي من الفلسفة ليس بعبث. وأقول هذا احتراماً لكم، وإلاّ لكنت أقول: إذا كانت الأيديولوجية عبثاً، فيجب أن تنبع من الفلسفة. بإشارة واحدة ستنتبهون إلى أن الأيديولوجية لو كان يجب أن تنبع من الفلسفة لكان على قادة الإيمان أن يكونوا فلاسفة، والمجاهدون في سبيل الحقيقة فلاسفة، في حين أن الفلاسفة هم وجوه التاريخ الكسالى. الجماهير هي التي بدأت الصراع في التاريخ، باعتبارها أفضل

جنود الأيديولوجية. بذلوا أرواحهم ويبذلون.

بناء على هذا نرى، أن الفلاسفة لم يكونوا ممن يصنعون الأيديولوجية، الناس هم الذين يوجدون الإيديولوجية، ولهذا فإن أبرز قادة الأيديولوجية وصانعيها ومخططيها وحاملي رسالتها، هم الأنبياء، الذين نهضوا ـ بنص القرآن وتأييد التاريخ ـ من بين الجماهير. وفي اعتقادي، أن صفة «الأمّي» لنبي الإسلام هي بهذا المعنى، هو شخص من «الأُمّة» من «الأميين»، لا من الحكماء والعلماء والشعراء والأمراء و. . . لا، من «الأمة».

توجد في القرن التاسع عشر علاقة أُخرى أيضاً، وهي علاقة الأيديولوجية والدين ـ وهذا الموضوع حساس جداً بالنسبة لنا نحن الذين نعيش في مجتمع ديني ـ.

ما الفرق بين الأيديولوجية والدين؟

الدين نوعان: أحدهما ضد الآخر. حيث أنه لا يوجد شخص يحقد على الدين بقدر ما أحقد عليه أنا؛ كذلك لا يوجد شخص يؤمن بالدين بقدر ما أؤمن به أنا، ولا يأمل فيه بقدر ما آمل فيه في القرن العشرين. وإن حالة التناقض هذه التي غالباً ما ترونها في أحاديثي ـ ولهذا السبب بالذات تناقضت أحكامهم عليَّ ـ هي لهذا السبب هو أن الدين لم يكن واحداً، حتى نفس الإسلام ـ ليس لأنه مثلاً الإسلام دين إيجابي والمسيحية سلبية، لا ـ هناك إسلام منحط، إسلام يجني، إسلام يوجد الرجعية

والتخدير، إسلام ينحر الحرية، إسلام يبرر الوضع القائم في التاريخ دائماً. وهناك إسلام كافح هذا الإسلام بعنف وراح ضحيته. المسيحية أيضاً هكذا، دين زرادشت أيضاً هكذا.

الإسلام له رؤية واقعية غير إنسانية قد تحققت في التاريخ. وله رؤية حقيقية إنسانية وما وراء الإنسانية، حيث تعتبر أول أمنية وأول فلسفة وأول روح لهذه النهضة، وقد تم إبادتها في التاريخ بعد ذلك باسم الإسلام نفسه. مثلما نرى الآن كيف يتم التضحية بالحقائق الإسلامية في المناطق الإسلامية.

يكون الدين تارة، وبلحاظ أحد الوجوه، بمثابة أيديولوجية. وتارة أُخرى، وبلحاظ وجه آخر، يكون بمثابة تقاليد اجتماعية. وبمثل هذا يعرف «دوركهايم» الدين[١]. وهو تعريف صحيح.

---

(١) يقول دوركهايم: الدين عبارة عن ظهور العقل الجمعي. يظهر العقل الجمعي في عَلَم (لواء)، يظهر في وسام، يظهر في احتفال؛ ولكن من الواضح أن هذا الشعب، هذه الطبقة، هؤلاء الناس، هذه المدينة ـ مثلاً ـ، يشيرون إلى أنفسهم هنا وليس لهم ظهور خارجي. تعريف دوركهايم هذا هو لجميع الأديان، وبالطبع أقبله أنا للدين التقليدي لا الدين الأيديولوجي. للدين الأيديولوجي تعريف ضد هذا التعريف تماماً ـ لا غير هذا ضد هذا ـ وهنا يكون موضوع الإختيار للمثقف صعباً. إذا كان المثقف لم يرد أن يكون ملتزماً أعمى، أو متمرداً آخر موديل (موضة)، يكون اختياره للدين صعباً جداً بالنسبة له. وحتى رفضه للدين من المفروض أن يكون صعباً جداً بالنسبة له.

الدين باعتباره تقاليد، هو عبارة عن مجموعة عقائد موروثة، عواطف تلقينية؛ كما هو التقليد من الموضات والعلاقات والشعائر الإجتماعية المرسومة، والأحكام العملية الخاصة غير الواعية. مجموع هذه الأمور يشكل الدين، حيث أنه قبل أن يكون له أساس إنساني وأساس واعٍ، يكون له أساس تقليدي غريزي أعمى وراثي أو اجتماعي، وفي الغالب يجسد العقل الجمعي لجماعة ما.

في طهران الآن يتجسد تعريف دوركهايم عن الدين بوضوح. فالنازحون من المدن والقرى إلى طهران كثيرون جداً، بحيث أرى في طهران بعض الريفيين الذين أعرفهم قد جاءوا من ضواحي مدن المحافظات. مثلاً يعيش في طهران أربعة آلاف شخص من قرية ذات سبعمائة شخص! (هذا نوع من تطور مدننا، وهكذا تتطور!) خمس قرى أو ست كانت تعيش في احدى الأرياف معاً، أما الآن فهي تقيم في ثلاثة أو أربعة شوارع في احدى المناطق من طهران، وكل نشاط هؤلاء وسعيهم ـ مع العلم بأن أكثرهم فقراء، وإن من تحسنت أحواله منهم مثلاً وأظهروا لياقة خاصة وتمكنوا أن يكوّنوا أنفسهم في طهران فقد استطاعوا أن يمتلكوا سيارة أو غيرها ـ نفس هذا الإنسان الجائع، الذي يهدد الفقر والجوع والمرض عائلته في طهران، كل امنيته وسعيه هو أن يشتري فانوساً مخرّماً وعدداً من

السلاسل (زنجيل) وصنجاً وعدداً من الثياب السود، ليتمكن موكب عزاء قرية «محمد آباد» من إثبات وجوده يوم عاشوراء في مقابل موكب عزاء قرية «بهمن آباد» مثلاً.

وعندما يرى البهمن آباديون هؤلاء هكذا، يزيدون من جهودهم ويبذلون أموالاً أكثر. ثم تأتي القرية الأخرى وهكذا، وفجأة يدخلون ظاهرة جديدة في الموكب، بحيث يندهش لها جميع المواكب الأخرى مثلاً يأتون بناقة، أو بنعش.

والشخص الخارجي عندما يرى ذلك، يتصور أن هذا يؤدي طقوساً دينية، في حين هو عمل اجتماعي. هذه القرية تظهر نفسها في مثل ذلك اليوم، تظهر استقلالها، وجودها الخارجي والعيني، تجسد عقلها الجمعي في هذا الموكب، ولهذا عندما كنت تذهب إلى مفارق الطرق ترى أن المواكب تتنافس على التقدم في الإجتياز، وقد تسفك الدماء لأجل ذلك. ومن المحتم أن سفك الدماء هذا لم يكن جهاداً في سبيل الله، بل جهاد في سبيل قرية «محمد آباد».

بهذه الصورة يكون الدين التقليدي تجسيداً للعقل الجمعي لمجتمع ما. الدين التقليدي عبارة عن صلة تحقق الاستمرار القومي لمجتمع ما خلال عدة أجيال أو قرون أو عدة فترات.

إن العمل العظيم الذي قام به الصفويّون هم أنهم كوّنوا خليطاً كيماوياً واحداً من ثلاثة مخلوطات خاصة أو ثلاث عناصر

خاصة. والعناصر الثلاثة هي: السلطنة، والقومية، والتصوف؛ ركّبوها مع بعضها وخلطوها وأسدلوا عليها ستاراً باسم التشيع وسلّموها بيدنا، وها نحن الآن مشغولون باجترارها.

هذا التشيع، الذي هو تشيع صفوي، عبارة عن لون علم إيران ـ الذي اختير منذ عصر الصفويين في مقابل العثمانيين، في مقابل الروس، في مقابل الترك، في مقابل العرب، وفي مقابل الآخرين ـ اسمه: الدين، الطائفة، التشيع.

ولهذا السبب، فإننا نرى في زمن الشاه عباس، وحيث اتفق أن تطابق يوم عاشوراء مع يوم نيروز ـ بينما كان الدين السائد خليطاً من القومية والدين وهما متشاركان على حد سواء ـ نشأت لهم مشكلة بسبب ذلك. وأخيراً صدر أمر بأن يكون اليوم يوم عزاء وعاشوراء، ومن ثم في اليوم التالي يصدر أمر آخر بالإحتفال بالنيروز[1]. حيث كان الناس يوم العاشر من محرم (عاشوراء) يقيمون العزاء وتلتهب عواطفهم ويسود البكاء والعويل والعزاء؛ وبعد ذلك في اليوم الحادي عشر من محرم صدر أمر السرور والتبريك لتبدأ أفراح الإحتفال بالنيروز.

---

(١) كانت الأمور في ذلك العصر تجري كلها حسب الأوامر، وفي عصر «بهرام جور»، كان يصدر أمراً بإقامة الأفراح والسرور العام للناس الجياع الأشقياء مرة في العام. وكان أفراد الشرطة يهرعون إلى الشوارع ويضربون بالسياط كل من يرونه مغموماً أو ظهرت عليه آثار الحزن، لأنه لم يرقص. سرور عام!

يختلط عنصر القومية مع عنصر الدين، ثم يتكون منهما خليطاً باسم التشيع الصفوي. هذه، قومية تظهر بسماتها الثقافية الخاصة بها، بسماتها التاريخية الخاصة بها، بأدبها وعناصرها الذهنية ونتائجها المعنوية الخاصة بها، تتركب، وتظهر لها روح واحدة باسم الدين. هذا الدين هو القومية، العقل الجمعي، تبلور وظهور السلطة هذا كان قد ظهر في إيران، مثلاً، باسم الصفوية.

المسيحية أيضاً كذلك. المسيحية أعلنت في بداية الأمر، باعتبارها نهضة المسيح المستقلة ـ حيث لم يمثل أي جهة ـ للبشرية، ولكننا نرى في القرن الخامس يتم الإعتراف بها من قبل امبراطور الروم باعتبارها ديناً، ثم يتشكل جهاز الكنيسة، ويظهر البابا، ومن ثم تلك القصور، وتلك التيجان، وخزائن الذهب والألبسة العجيبة الغريبة[١]؛ ثم يصدر بعد ذلك أمر بالقتل العام الذي ليس له نظير في التاريخ، حتى أن الأشوريين

---

(١) توجد في أوروبا مجلات مثل (امرأة اليوم) وأمثالها يقال لها مجلات «مارجو» (مأخوذه من Marguerite)، أي مجلات الخالة المرأة، مظاهر هذه المجلات بالدرجة الأولى أحداها السيدة «موناكو»، أحداها «برجيت باردو»، وأحداها «البابا» أيضاً. وهذه المظاهر هي الموضة من ناحية الألبسة. مثلاً، أن قباء السيد هذا عمل شخصان أو ثلاثة أشخاص لمدة سبعة عشر عاماً فيه حتى عميا إلى أن خاطوا حواشيه هذه! هذا هو نفسه الذي أضحى خليفة عيسى المسيح مظهر الفقر والبساطة والزهد والحب.

لم يتمكنوا من أن يتصوروا في مخيلتهم مثل هذه الجريمة. ثم نرى بعد ذلك أن مظهر المسيح في أوروبا، أضحى مظهراً للعقل الجماعي الغربي، ليس له علاقة بالمسيح أبداً، فالعقل الأوروبي يظهر بصورة المسيحية.

من أين فهمنا هذا،؟ منه، من سيّدته مريم، من سيّده عيسى. إن مريم امرأة فلسطينية يهودية. انظروا أنتم إلى مريم الغرب: شقراء، عيونها شهلاء، وهندامها يشبه السيدة الفرنسية. امرأة فلسطينية إذاً كيف أصبحت الآن فرنسية؟. وعيسى نفسه من العنصر الإسرائيلي حسناً، الشكل الإسرائيلي معلوم كيف هو، والآن نرى أن شكل عيسى ـ الذي هو إله الغرب ـ من حيث العنصر يكون أوروبياً، عيناه خضراوان، شعر اشقر، هيكله وشكله أبيض البشرة، وأنه «الن ديلون» تماماً.

لماذا يتغيّر عنصر المسيح؟ لأن المسيحية لا ترتبط بعد بفلسطين، لا ترتبط بعيسى، المسيحية باعتبارها مظهر قوم عيسى، إلٰههم، مظهرهم. فكما أن شكل «أهورامزدا» شكل إيراني، وكما أن شكل «زيوس» شكل يوناني، فإن إله الغرب ـ الذي هو المسيح ـ شكل أوروبي. ولهذا يقول «جوموكينياتا»: في أفريقيا يصنعون عيسى بالصورة التي موجودة في الغرب، في الكنائس، يصنعونه من الخشب والقطن باسم إله الغرب، بذريعة أن عيسى جاء إلى افريقيا، يدورون حوله فجأة ويحرقونه.

من هو عيسى القادم إلى أفريقيا؟ أوروبي، استعمار. إن نموذجه هذا لا علاقة له بإلٰه السماء، هو إلٰه الأرض الذي أخذوه إلى السماء.

وضمن هذا السياق، فإني رأيت عند أحد الطلبة في أوروبا، وكان من الفرقة الدرزية، صورة شخص اسود شاربه أطول من شارب الشاه عباس مرتين. فقلت: هذه صورة مَنْ؟ قال: صورة الإمام علي عليه السلام!. لاحظوا أنتم، الصورة التي يرسمها الإيرانيون عن النبي محمد والإمام علي، كلاهما يتشابهان، وكلاهما إيرانيان، والنبي محمد تماماً كزرادشت قصّر شعره، وتغيّرت ملابسه، وظهر بشكل جديد

هذه الأمور، تدل على أن القومية والعقل الجمعي لقوم ما تظهر بصورة نماذج دينية، تقاليد دينية وشعائر دينية، وهذا هو ما يقوله «دوركهايم».

ولكن هناك ديناً آخر أيضاً، ألاَ وهو الأيديولوجية. الدين الذي يختاره الشخص أو الطبقة أو الشعب بصورة واعية. في الدين التقليدي الشخص لا يختار، ولكن الابوين هما اللذين يصنعان قائل لا إلٰه إلاّ الله، ولا يتدخل في ذلك أحد، الجيل السابق هو الذي يصنع الجيل اللاحق، على أساس «لا إله إلاّ الله»، أو أيّ شيء آخر.

أما الدين باعتباره أيديولوجية، عقيدة منتخبة بصورة واعية

وفقاً للاحتياجات واللاملائمات الموجودة والعينية، ومن أجل تحقيق الأمنيات التي يتعشقها هذا الفرد، أو هذه الطبقة، أو هذه الجماعة، ويسعون إليها.

بناء على هذا، فإن الفرد يشعر بوضعه الطبقي، يشعر بوضعه الزماني، بوضعه السياسي، بوضعه الاقتصادي والاجتماعي، ساخط، متألم، واعٍ للعوامل غير الملائمة، منتقد للوضع القائم، يتمنى التطور والتغيير. وبعد ذلك تُعرَض الأيديولوجية، تعترض مسيرته، يرى فيها قدرتها على إزالة اللاملائمات الموجودة، يشعر أنّها طريق حل لتغيير الوضع القائم الذي ينتقده، يرى أن شعارات تلك الأيديولوجية تطابق ما عنده من الامنيات، ومن ثم يختار الأيديولوجية. إن هذا الدين، في هذه الحالة، يساوي الأيديولوجية بدون نقص.

إذاً هكذا نرى، أننا نواجه في التاريخ دينين أو مرحلتين: دين أو مرحلة تاريخية يعرض فيها الدين بصورة أيديولوجية؛ ومرحلة يكون فيها الدين بصورة تقليد محلّي، أو تقليد قومي، أو تقليد اجتماعي، أو مظهراً لعقل جمعي.

وبهذه الصورة كان جميع الأنبياء العظام الذين نهضوا في البداية، وأوجدوا نهضة هداية وتوعية، واعلنوا شعارات معينة طبقية وجماعية وانسانية ومن ثم التحق بهم الأفراد.

إن هؤلاء الذين التحقوا بهذا الدين ـ سواء كان رقّاً أو

عالماً لا فرق بينهم ـ التحقوا بوعي. ولكن في المراحل التالية ينتقل هذا الدين من صورة الحركة إلى صورة معهد «انستيتوسيون» (Institution)، يظهر بصورة منظمة، يظهر بصورة مؤسسة اجتماعية، تتبدل الحركة إلى مؤسسة يظهر الدين في صورة اجتماعية خاصة ومشخصة كمؤسسة اجتماعية، كمديرية.

وفي هذه الحالة، كل من يعتقد بهذا الدين، يخرج من بطن أمه مؤمناً، هكذا؟ المسلم، البوذي، أو حتى المادي والاشتراكي الجغرافي، وراثي وجيني، وأيديولوجية في هذه المرحلة، سواء كانت دينية أو غير دينية، لم تعد أيديولوجية وإنّما تقاليد اجتماعية ثقافية، ولم يتم اختيارها بوعي.

نرى في صدر الإسلام أن الشعب الإيراني في نفس القرن الأول، التحق بالإسلام فجأة وبشكل جماعي(١)؛ بحيث أن أبا مسلم يزحف في سنة ١٢٠ هـ إلى ١٣٠هـ بستمائة ألف مسلم من خراسان، ويطيح بالخلافة الإسلامية، وشعاره نفس شعار الحكومة الإسلامية وحكومة آل النبي؛ بينما كان جميع الذين بيدهم السيوف من الإيرانيين، في حين أن ما وراء النهر قد احتلت وفتحت سنة سبعين إلى ثمانين، أي بعد ثلاثين إلى أربعين سنة. لقد أسلم هؤلاء وكانوا على درجة كبيرة من الاعتقاد والالتزام بحيث أزالوا خلافة العرب ولم يعودوا إلى

---

(١) أقول هذا القول على أساس مئات النماذج التاريخية.

الإيرانية والزرادشتية، بل كانوا يهتفون بحكومة آل بيت النبي. وهذا يدل على أن الإلتحاق كان بصورة جماعية[١].

لقد أضحى الدين الزرادشتي والإيرانية شيئاً واحداً. كان «اهورامزدا» ايرانيا. انظروا في «اوستا»، كان «اهورامزدا» في صراع دائم مع «انيران». من هم «انيران»؟ غير الإيرانيين. أيُّ إلٰه هذا الذي يحارب غير الإيرانيين! إذاً يتضح أن الدين إيراني. كما كان «زيوس» يحارب «تروا» لأنه يوناني. هنا يظهر الدين والنماذج الدينية بمظهر ولواء العقل الجمعي. ولكننا نرى هناك أن الإيراني، رغم أن دينه التقليدي الإجتماعي دين زرادشت، إلاّ أنه يتركه ويترك تقاليده وعقله الجمعي وينضم تحت لواء نماذج غير نماذج قوميته ويقبلها بصورة واعية ويعتقد بها، في حين أنها لا علاقة لها أبداً بقوميته وعقله الجمعي.

أي عامل كان هنا سبباً في تمسك الجماهير الإيرانية بهذه الإيديولوجية؟ ولماذا يقوم الإيراني بعمل ثوري؟.

لسببين، لحاجتين اختار الإيديولوجية:

كان يتألم من الظلم وعدم المساواة في الطبقية، بينما يهتف الإسلام بشعار العدل وهو أول شعاره.

كان يتألم من الحكومة الإستبدادية والارستقراطية

---

(١) بخلاف رأي المحققين في العصر الحاضر الذين يدلون بآرائهم وفق الموضة والعادة.

والانحصارية، وشعار الإسلام الإمامة على أساس اللياقة والكفاءة. ولهذا فقد وجد أمنيته في هذه الشعارات، ونهاية لآلامه ومأساته لهذا فهو يختارها.

الآن أيضاً الإسلام في أفريقيا بمثابة أيديولوجية، هناك في أفريقيا توجد ـ في الجانب الفكري ـ ثلاث جبهات حرب: أحداها المذهب الكاثوليكي، أموال طائلة، مليارات الدولارات والباونات تصرفها الكنيسة هناك لأجل جبهة الكاثوليك المتفتحة، وهناك جبهة ماركسية، وجبهة إسلامية.

ولما لم يكن كل من هذه الأديان الثلاثة، العقائد الثلاث، بمثابة عقيدة تقليدية ووراثية بالنسبة لهم، فقد أصبح كل منها بصورة أيديولوجية.

وهذه الجبهات الثلاث هي في حالة حرب مستمرة. وعلى حد قول «ونسان مونتى»: أن الذين يغيرون دينهم في أفريقيا فإن أكثر من أربعة أشخاص من كل خمسة أشخاص منهم يعتنقون الإسلام، وأقل من نصف شخص يذهب إلى المسيحية علماً أن أولئك الذين يتمسكون بالمسيحية هم موظفو الشركات وسفارات البلدان الأوروبية، الذين لهم رؤوس أموال ودوائر هناك، وطالما كان هؤلاء يعملون هناك وضمن كادرهم، فمن الواضح أنهم يؤمنون بهم، في حين أن الذين يشيعون الإسلام هناك هم الفقراء البائسون، ولم يكن هناك تبليغ ولا يوجد الآن

قرآن بلغتنا الفارسية ـ نحن الذين كنا ومنذ البداية، وقبل العرب، نفهم الإسلام ـ بحيث نتمكن من قراءته. بينما الإنجيل نراه قد ترجم إلى جميع اللغات الأفريقية وطبع، حتى اللهجة القبلية التي لا يتكلم بها إلاّ بيوتات معدودة في الغابات. ومع ذلك فهو بهذه الصورة.

لماذا نرى الإسلام، دون أن تكون هناك جهود بهذا المجال، دون أن يكون تبليغ لهذا الدين أو يكون له صاحب، في حال انتشار في أفريقيا وأمريكا بين السود إلى هذا الحد؟

ذلك لأن الإسلام بالنسبة للسود بمثابة أيديولوجية، أيّ أيديولوجية؟ على أساس حاجته، أي حاجة؟ تألمه من التمييز العنصري وحبه للمساواة الإنسانية. الإسلام هو الوحيد من بين الأديان التي تعرض عليه، الذي آمن بالمساواة العنصرية وعمل لها أيضاً.

اليهودية كما نرى اليوم إنّها قد ظهرت بصورة صهيونية، أي تصنع لنفسها أسوأ من الفاشية التي هي نموذج العنصرية والوحشية. نرى أن نفس هؤلاء اليهود في فترة تسلط الإسلام وقدرته، في أسواق نفس إيران هذه، التي هي مركز الدين والتعصب الديني، كان اليهودي كالحاج المقدس تماماً له إمكانية العمل، ولا زال كذلك. يعيش ويعاشر، ولا يتألم من أي نقص باعتباره من عنصر آخر ومن دين آخر أبداً.

س ـ كيف كان التبليغ الإسلامي في أفريقيا، وأي عامل صار سبباً في تقدم الفكر الإسلامي؟

ج ـ الآن أقول (ولكن من المؤسف لا يمكن القول بصورة تامة)، إن العامل العظيم في تقدم الفكر الإسلامي في أفريقيا بين الفئات والجماعات السود، هو أن الإسلام هناك لم يكن له مبلّغ رسمي مصلحي نفعي، فقط وفقط.

س ـ كيف يمكن ذلك؟

ج ـ أن سبب إبعاد جيلنا الشاب وابتعاده عن الإسلام في مجتمعنا هو أن بعض النفعيين هنا زجوا بأنفسهم باسم المبلغين في سلك مروجي الإسلام الواقعيين.

كان لي صديق من تنزانيا، وكان من الشيعة الاثني عشرية، كان قد أتى إلى هنا لدراسة أحد الإختصاصات، كان تلميذي. السيد ساشادين هذا كان من علماء وكتّاب تنزانيا، وكان شخصية لنفسه، وهو يقول:

إن لنا وضعاً خاصاً هناك، نحن أقلية صغيرة (الشيعة في تنزانيا)، ولكن هذه الأقلية الشيعية الصغيرة هي أكثر تقدماً ـ بالنسبة للنظم الإجتماعية ـ من حكومة السيد (نيريره) المترقية، وذلك لأننا نحن هناك لوحدنا، مسلمون هواة، ولم يكن فينا مسلم محترف. جلسنا فيما بيننا وقلنا علينا أن نعطي هذا

المقدار من الزكاة، وهذا المقدار من سهم الإمام، حسناً، لِمَنْ نعطي؟ لا أحد. (لم تكن هناك تشكيلات رسمية لهذا الأمر لحد الآن). علينا أنفسنا أن نجد حلاً، وبعد استطلاعنا لموارد صرف الزكاة في الإسلام، أسّسنا صندوقاً وجعلنا الأموال فيه، وأخذنا ننفقها في الأمور الاجتماعية تحت إشراف هيئة. ثم طرح موضوع الخمس، حسناً، الجميع هنا من السود، ليس فيهم سيد (وإن كان قد وجدوا في الآونة الأخيرة، وربما ذهبوا إليها من البلدان المجاورة). قلنا ما نصنع بهذا؟ أوجدنا مؤسسة التأمين، وأمَّنا على جميع الشيعة هناك، تأمين العمر، وتأمين الأموال التي تضاف إلى رأس المال. ومن ثم جئنا فأسسنا مصرفاً للقرض الحسن، لنعطي رأس مال للجميع بدون أي ربح وبصورة يضاف إلى رأسماله على الدوام، ومثل هذا طريق حل اقتصادي لا وجود له لا في النظام الاشتراكي ولا في النظام الرأسمالي.

الموضوع الآخر، هو أن هؤلاء لما كانوا قد أخذوا تشيعهم من الهنود، والهنود من الإيرانيين، كان عندما يحل شهر المحرم وعاشوراء، كان يحدث نفس الشيء من الأعلام والتكتلات والإطعام وأمثالها، (فكانوايملؤون بطونهم في يوم العزاء! هذه سنة إيرانية). فجلسنا وقلنا: ما هذا العمل؟ يصرف في كل سنة خمسمائة إلى ستمائة ألف تومان، وفي بعض الأحيان مليون

تومان، للأكل، ما هي فائدة هذا العمل، ساعات وينتهي كل شيء، دعنا نصرف هذا المبلغ في مورد ذي فائدة. فقلنا: لما كانت هذه الأموال وهذه النفقات خاصة للإمام الحسين، فبدلاً من أن نحول هذا المقدار من الأموال إلى أسمدة إنسانية، نضعها في صندون باسم صندوق ميزانية الإمام الحسين لطلب العلم. قررنا ونفذنا هذا العمل، لأنه لم يكن هناك من يتضرر من هذا القرار حتى يعترض على تبديل نفقات الإطعام إلى صندوق طلب العلم[١].

كان يقول: لقد أودعوا في السنة الأولى ما يقارب الأربعمائة إلى الخمسمائة ألف تومان ـ حسب عملتنا ـ في الصندوق. في ذلك الوقت الذي كان يتحدث فيه (قبل أربع سنوات) كان هناك سبعون طالباً ونيفاً يطلبون العلم في جميع أنحاء العالم بدء من أمريكا الشمالية حتى مدينة مشهد (التي كان

(١) كانوا قد أشاعوا عني في طهران، بأني لا أوافق أهل البيت. لقد تعجبت من ذلك، لأن كل حبي وإيماني هم أهل بيت النبي، إني أحب أهل هذا البيت أكثر من أي شيعي مغال. هكذا كنت منذ بداية عمري، أعشق عائلة اسم الأب فيها عليّ، والام فاطمة، والأبناء حسن وحسين، والبنت زينب، إن نفس هذا الأمر هو أصالة بشرية، قيمة نموذجية. وقد عرفت بعد ذلك أن هؤلاء يعنون أهل بيتهم. حسناً، فليتألموا، عندما تكون الأموال هكذا، عندما يقال: الكتاب بدل من الطبخ، المدرسة بدل من التكية فإن البعض سوف يتضرر، من أين سيأكل أهل بيته. ولكن هناك لم يوجد أهل بيت، فلذا أمكن من إيجاد ميزانية الإمام الحسين لطلب العلم.

فيها هذا الطالب) وفي الفروع المختلفة من الأدب الفارسي إلى فيزياء الغلاف الجوي للكرة الأرضية، يأخذون نفقاتهم من ميزانية الإمام الحسين. الميزانية التي كانت قد أعدت من شعب تنزانيا الفقير، لا من حكومتها، لا من جامعتها، لا من الشرق الأقصى والأدنى وبلدان الشرق الأوسط. في حين كان عدد طلاب حكومة السيد نيريره، والتي هي حكومة اشتراكية مترقية، المبعوثين إلى الخارج لطلب العلم لا يتجاوز الثلاثين طالباً ونيفاً، وهذه الأقلية الصغيرة الفقيرة ترسل أكثر من سبعين طالباً للدراسة لا في الفرع الإسلامي بل في كل فرع. لقد أدى هذا الأمر إلى أن تتضاعف هذه الميزانية بحيث نتمكن من إرسال كل طالب من تنزانيا إلى الخارج، ذلك لأن العديد من الأشخاص الواعين ممن كانوا لا ينفقون على مثل هذه الموائد وأمثالها، عندما رأوا أن مورد الإنفاق قد تغيّر وأصبح بصورة مورد إنساني ومترق، أخذوا الآن يقدمون الأموال في هذا السبيل أكثر بكثير من ميزانية الغذاء والإطعام التي كانت تصرف في كل عام. أيّ أن تشيع البطن قد تحول إلى تشيع العقل.

هذان نموذجان من التشيع: التشيع الصفوي والتشيع العلوي.

س ـ ألا يذهب الشيعة من البلدان الأخرى إلى هناك؟

ج ـ كلا (بالطبع تتمكن أنت من الذهاب إلى هناك باعتبارك مبلّغاً أو سيداً، لأن عندهم نقص في السادة ولهذا فهم يتألمون لذلك!).

بالطبع أن هؤلاء الشيعة ليسوا كلهم سود، بل أن أغلبهم من الهنود الشيعة الذين ذهبوا إلى هناك. ولكن لما كان هؤلاء جماعة صغيرة قد جاءت إلى العمل واستثمار رؤوس الأموال، فإنه لم يكن عندها من التقاليد الدينية القديمة، لم يكن عندها جماعات محترفة. جماعة مثلنا ذهبوا إلى بلد ما للإستثمار رؤوس أموالهم، وشرعوا بالحياة هناك.

لم تكن هناك عقبات التقاليد الموروثة، ولم يكن هناك أشخاص محترفون ينظرون إلى كل الأمور بمنظار واحد، هم أنفسهم يجلسون، يتخذون قراراتهم، يقيّمون، يقترحون، ومن ثم يقدمون. التغيير في المجتمعات التقليدية محال، يستوحشون من أدنى تغيير. لم يكن التشيع هناك سنة اجتماعية، بل أيديولوجية ثورية.

جاءني أحد السادة وأخذ يثني عليَّ كثيراً متلطفاً وممتناً وما أشبه هذا الكلام، كان يقول: أن لعملك عيباً واحداً وهو أنّهم يصفقون لك في النهاية، قلت ليس هذا عيبي، المستمعون يصفقون لا أنا، قال: كلا. عليك أن تعمل على ما يمنعهم من التصفيق. قلت: ماذا أعمل؟ قال: لما كنتم تنهون كلامكم في أوجه وتأخذون النتيجة في جملة كاملة جميلة، فهم يصفقون؛ عليك عندما تنتهي من حديثك أن تقرأ أحد الأدعية لكيلا يثار المستمعون، وعندها لا يصفقون!. يريد أن أحطم كلامي ويزول

تأثيره، لماذا لأنه يستوحش من التصفيق.

لماذا لا تبدأ بهذه الصورة، لماذا لا تختم بهذه الصورة، هذه كلها أمور تقليدية أصبحت جزء من الدين. بعض التجميلات لما كانت تقليدية، فهي مرتبطة بالتقليد الاجتماعي، أصبحت جزء من الدين، وكل من ينتقدها فكأنما انتقد الدين.

بناء على هذا، فإن الدين يكون بصورة أيديولوجية عندما تقوم جماعة، أو طبقة، أو شعب ـ ففي السعودية هي على شكل طبقة، وفي إيران على شكل شعب جمهور المحرومين والأرقّاء ـ بقبول الإيديولوجية الإسلامية. ففي السعودية تقبلها طبقة واحدة، وعلىٰ شكل أفراد في بعض الجماعات (الانتلكچوال). وهناك، سواء كانوا أفراداً قد اعتنقوا الإسلام أو شعوباً أو طبقة واحدة، على كل حال، فقد قبلوا الدين بصورة واعية؛ أي أنهم اختاروا، والاختيار ـ الذي هو عمل يختص بالإنسان ـ على أساس الوعي العقائدي هو عبارة عن الأيديولوجية.

س ـ على الإنسان أن يحدد في البدء حاجاته ومن ثم يختار على أساسها، ولكن الإنسان الذي لا يتمكن من هذا لأن عمره لا يكفي، ماذا يجب عليه أن يعمل؟

ج ـ إن هذا الموضوع الذي طرحتموه موجود في أذهان الجميع، وهو سؤال طريف جداً، عندما نقول: اختيار، أي أننا نستقرئ جميع الأيديولوجيات واحدة واحدة، نستقرئ جميع

الأديان، ننقد، ومن ثم وعندما ما نصل إلى دين ما ونرى أنه يفوق في استدلاله الجميع، نختاره.

ولكن مثل هذا العمل هو طريقة الاختيار الجامعي، طريقة التحقيق والاختيار العلمي، وأن طريقة تحقيق واختيار الايديولوجية منفصلة عن هذا. أي كما أن الأيديولوجية تختلف عن العلم، كذلك فإن طريقة اختيارها تختلف عن طريقة الاختيار العلمي.

إذا كنت أنا، باعتباري عالماً، أُريد دراسة عدد من نظريات الجينات ـ مثلاً ـ واختار واحدة منها لأدرّسها هنا، عليَّ أن أدرس جميع النظريات معاً، واحدة واحدة، واحقق في مختلف جزئياتها، وأقرأ جميع الانتقادات الواردة ضدها، ثم اختار التي يكون استدلالها أقوى من الجميع باعتبارها النظرية التي لاقت قبولي.

ولكن الأيديولوجية لا تنتخب هكذا. الإيمان أو الايديولوجية يتعلق بها الإنسان كالعشق. لم يأتِ أحد ليقيِّم، ليجري بعض المحاسبات ويميز بين الجيد والرديء، ليعمل مقايسات، ومن ثم وبعد كل هذه المقايسات يمسي محبّاً؛ الإيمان كالعشق تماماً، ينجذب الإنسان أمامه ثم يستوعب كل وجوده. ولم يكن هذا بمعنى التسليم اللاواعي للايديولوجية، بل هو تسليم واع يستوعب الإيمان كل شعوره وكل معرفته،

وعندها يختار دون أن يبادر إلى طريقة التحقيق الجامعي.

موضوع القرن التاسع عشر الآخر هو القرون الوسطى، فترة تسلط الدين التقليدي، دين الكنيسة، دين الاقطاعية القيصري، الدين الأوروبي. المسيحية هي دين التقليد الأوروبي. كما ترون، أيّ دماء سُفكت نتيجة لقول المثقفين: ترجموا الأنجيل إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية، كان البابا يقول: بما أن لغة الله لاتينية، في حين أن لغة الله ـ الذي هو السيد المسيح ـ كانت عبرية، علماً أن السيد المسيح نفسه لم يتمكن من قراءة سطر لاتيني واحد.

إذاً فلماذا أصبحت اللغة اللاتينية لغة الله والمسيح، في القرون الوسطى؟ لأن اللاتينية اللغة الأوروبية الأم، اللغة الأوروبية التاريخية، والمسيحية دين الأوروبي وليس دين السيد عيسى المسيح الفلسطيني. بناء على هذا، فإن اللغة الدينية لم تكن ـ تلقائياً ـ عبرية، بل لغة لاتينية، وقد أمر البابا بالقتل العام من أجل أن تكون اللاتينية لغة العالم باعتبارها لغة الله[١].

---

(١) لقد اختلقوا حديثاً يقول أن لغة أهل الجنة العربية، ولغة أهل البرزخ الفارسية الدرية، ولغة أهل الجحيم (جهنم) التركية. ينقلون هذا الحديث على لسان النبي. وواضح أن مثل هذا التقسيم اللغوي تقسيم ديني، ولكن الدين القومي. ويتضح أيضاً أن أحد المؤمنين الإيرانيين هو الذي وضع هذا الحديث، فقد أعطى العربية خاوة من أجل القرآن، وجعل الفارسية ثانية من أجل قوميته، حيث جاء بنا إلى داخل البرزخ.

بناء على هذا، فالقرون الوسطى هي فترة حكومة الدين التقليدي، الذي هو ضد الأيديولوجية، والقرنان الخامس عشر والسادس عشر، عصر النهضة، هما عصر وعي أوروبا ـ (الوعي هو بداية ابتعاد جيل ما عن التقليد إلى الوعي، إلى الأيديولوجية، وما نراه الآن من أن مثقفينا يتجنبون الدين، لم يكن هذا بمعنى التخلي عن الدين، بل هو اجتناب الدين التقليدي. وفي الواقع لو كان هذا الاجتناب يُوَجَّه فهو أفضل وسيلة، وهو المرحلة الجبرية الوحيدة لهذا الجيل التي يجب تجاوزها للوصول إلى دين واعٍ. يجب أن يتحرر العقل من أسر التقليد المتحجر هذا حتى يتمكن من قبول الإسلام بصورته السامية، وبصورة أيديولوجية واعية، وإلاّ فلن يتمكن من ذلك، ولهذا ـ وقد جربت ذلك ـ فإن ما أتحدث به أو أكتبه حول الدين يفهمه الطلاب أو المثقفون غير المتدينين أو الذين لهم أيديولوجية خاصة، أفضل من أصحاب الأدمغة التقليدية والمتعصبين الدينيين الذين لم أتمكن أبداً من إفهامهم. وهذا يدل على أن التحول يمكن أن يكون باهراً عندما يوجه بصورة جيدة) ـ حيث انتفضوا مرة واحدة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أيّ عصر النهضة، على الدين التقليدي السائد على القرون الوسطى.

يسمى القرن السابع عشر قرن المثقفين، قرن

(الانتلكچوال)؛ أي أن طبقة المثقفين لم تعد خاضعة للتقاليد الدينية المتحجرة الأوروبية، لقد تحررت ووصلت إلى مرحلة الوعي، وهي الآن تتمكن من التفكير. ومن سمة (الانتلكچوال) هي أنها تحلل وتعلل، في حين أن الإنسان التقليدي لا يتمكن من التحليل والتعليل، لأنهم يقولون له: الأمر هكذا، فيجب أن يكون هكذا، وما عليه سوى أن يعمل. أما (الانتلكچوال) فإنّها تحلل المسائل بصورة انتقادية، بشكل اختيار أو اقتراح.

في القرن الثامن عشر، قرن الحرية، قرن الثورات التحررية، قرن مناصرة الإنسان، نرى أن (الانتلكچوال) في أوروبا أصبح بإمكانها أن تحلل وتعلل، أصبح لها عقل ولم تعد عاطفة غريزية عمياء، عادت إلى مناصرة الإنسان، عادت إلى عشق الحرية، عادت إلى الديمقراطية، عادت إلى الثورة الفرنسية الكبرى.

ويسمى القرن التاسع عشر، قرن الأيديولوجية، وكما ترون، كيف أن التحول قد تم بصورة منطقية إلى أيّ حد. اجتازت أوروبا، كأيّ فرد، هذه المراحل. كانت في بداية الأمر متعصباً مقلّداً أعمىٰ، ثم وصلت إلى الوعي شيئاً فشيئاً، تمردت على التعصب، ثم تمكنت من التحليل والتعليل، تثقفت، ثم حصلت على عقيدة دقيقة ومتميزة وأصبحت ذات أيديولوجية خاصة.

القرن التاسع عشر قرن الأيديولوجيات. كل الأيديولوجيات الكبيرة، حتى الوجودية التي عليها علاقة القرن العشرين، هي أيضاً ترجع إلى القرن التاسع عشر «هيجل» ينتمي إلى هذه الفترة، «نيتشه»من هذه الفترة، «شيللر» من هذه الفترة. الفاشية من هذه الفترة، الإشتراكية من هذه الفترة، الماركسية من هذه الفترة، «السانتيمونيانيون» من هذه الفترة، كلهم ينتمون إلى القرن التاسع عشر.

القرن العشرون، قرن الإنحطاط العظيم، القرن الذي قامت فيه قوى المال والسلطة، بذكاء ودهاء، بتحريض الأفكار العلمية والنبوغ العلمي لتتمكن وبهذا الأُسلوب من التفكير والنظر الذي يفيد تلك القوى ويؤمّن مصالحها، من إبقاء العلم والعالم محايداً.

هذه أعظم فواجع القرن العشرين، يجب أن يكون العلم محايداً، ما معنى محايداً؟ أيّ أن يتعصب العلم للواقع الخارجي، ومعرفة «ما هو»، وفي الوقت الذي يدرك فيه ما هو الواقع ينتهي عمل العلم. وإذا سألت: «كيف يجب أن يكون» فليس من مسؤولية العلم أن يجيب عن ذلك، فالأمر يتعلق بالأيديولوجية، وبماذا تجيب الأيديولوجية؟ الأيديولوجية فارغة، هذا كلام القرن العشرين.

ولهذا فإن علماء القرن العشرين يتجهون إلى عدم مسؤولية

العلم بالنسبة إلى الأمنيات البشرية باسم «Désintéressement»[١] التقوى العلمية، الحيادة، عدم التحيز عدم الرأي العلمي.

وبهذا العنوان أبعدوا العلم عن خدمة طريق الامنيات البشرية والهداية البشرية، وحبسوه في المختبرات، في الجامعات والمؤسسات والمعامل والرساميل.

ومن المسلّم به، فإن العالم والكاتب والشاعر والفنان والفيلسوف إذا لم يكن ملتزماً التزاماً شعبياً، ويريد أن يكون محايداً، فإنه غير ممكن من الناحية العلمية، بل أنه يمسي في خدمة جماعة بيدها تقرير مصير المجتمع والزمان.

إننا نرى الآن أكثر من أي وقت آخر، أن العلم قد أصبح أجيراً وعميلاً ورقّاً للأشخاص الذين بيدهم المال، والسلطة في العالم، وأن العلم أمسى في خدمة الرأسمالية تماماً. يتزاوج العلم والمال معاً، ومن الواضح في هذه الزيجة، أيهما يكون صاحب البيت، وأيهما العيال الذي ينفق عليهم.

من هنا نرى في جميع الجامعات ـ جامعة السوربون، جامعة هارفرد، كمبرج ـ قد أصبح موضة، وهو على العلم أن لا يقدم طريقة حل، عليه ألاّ يبدي وجهة نظر، عليه ألاّ ينتقد، عليه ألاّ يقترح، عليه ألاّ يتنبأ. يجب على العلم أن يحلل الواقع الخارجي فقط.

---

(١) دزنترسمان: عدم التقييد، الحياد، عدم التحيّز.

إذا كان العلم يعجز عن أن يقدم للناس ولجماهير الشعب طريق الحل، يعجز عن كشف مشاكلهم، عن أن يدلهم على طريق النجاة، عن أن يدلهم على الهداية، ويكشف لهم طريق الكفاح وطريق تكاملهم وطريق حصولهم على امنياتهم وتحققها، إذا لم يقل العلم كل ذلك، إذاً من الذي عليه أن يفعل ذلك؟

أحد الحاضرين: الكمبيوتر.

ج ـ نعم الكمبيوتر، الكمبيوتر الذي يتقاضى في كل ساعة ألف تومان، واضح جداً أنّها تجيب لمصلحة مَنْ، ولِمَن تجيب. فالعامل الذي يتقاضى عشرة تومانات يومياً لا يحتاج إلى الكمبيوتر.

هذا هو الحياد العلمي للقرن العشرين.

ونرى اليوم، أن النابغة والفيزيائي، والكيميائي، والأخصائي بفيزياء الغلاف الجوي، وحتى العالم الإجتماعي والعالم النفساني، والمحاسب، كلهم قد أصبحوا أرقّاء مرتزقة مأجورين للرأسمالية، أو أرقاء مباعين للسلطات الحاكمة ـ في النظم التي لا تحكمها الرأسمالية فهي تحكمها القوة والسلطة على كل حال ـ ولهذا فالعلم قطع صلته بالايديولوجية في القرن العشرين وسحقها. نرى أن هذا التعصب تعصب عجيب جداً بحيث أن كثيراً من المثقفين يفكرون مثل هذا التفكير، يا سيد إن

موضوع الإيمان تم حلّه اليوم! مثل هذا، «الموضوع محلول»، كلام تافه جداً في أوروبا، ولكن نفس هذا الكلام يلقى في فم السيد المثقف، وهذا أيضاً يردد كالميكروفون: محلول! أي شيء محلول؟ هذه المواضيع محلولة يا سيدي! لم يكن واضحاً من أين يأتي بالخبر، أين رأيت أنها محلولة، أنت ذهبت هناك ومكثت ثلاثة أو أربعة أيام في الفندق، وواجهت ثلاثة أو أربعة أشخاص من المتزلفين الذين يحيطون الأجانب ومطايا الأموال، ثم تحكم الآن عن كل المدنية الحديثة.

أيّ شيء محلول؟ موضوع الإيمان هذا، الأيديولوجية محلولة، ما هو مطروح اليوم، العلم للعلم، الفن للفن، الأدب للأدب، الكتابة للكتابة. نعم، هو مطروح، ولكن من الذي طرح ذلك، ولماذا طرح ذلك، ولمصلحة من كان هذا الطرح؟

كيف تبقى مجاهدات الناس، زعامات الناس وامنيات الناس محرومة من توجيه نبوغ العلم وهدايته؟

إذا لم يقل لنا العالم الإجتماعي أنه كيف يجب أن نغيّر ونصنع إذاً فأي قيمة له، هل يكفي أن يذهب إلى الجامعة فقط وهناك يقوم بالتحليل الإجتماعي ويشرح الطبقة، ويشرح لنا المؤسسات الإجتماعية. ثم نرى نفس هذا العالم وقد أصبح بصورة مقاول ومفتش عميل للسلطات والمؤسسات والشركات،

نفس هذا العالم الإجتماعي المحايد الذي لا يتكلم عن الأيديولوجية.

هنا، في هذا المكان، كانوا قد وجهوا الدعوة إلى أحد الأشخاص ليأتي ويدرّس العلوم الإجتماعية، فاعترضت إحدى الجماعات قائلة: لا يحق له أن يدرّس علم الإجتماع، لماذا؟ صحيح أنه دارس واخصائي ومعرفته جيدة جداً، ولكن لهذا الشخص عقيدة خاصة، ولهذا فهو ينتهي بكل هذه المواضيع العلمية نحو عقيدته!.

إذاً من الواضح للذي يريد أن يكون عالماً اجتماعياً، عليه أولاً أن يكون عديم الغيرة، ثم يأتي ليكون عالماً اجتماعياً!. وإذا أراد أن يدل الناس على طريق حل، إذا كان له هدف، إذا كان يشعر في نفسه التزاماً أمام الأمنيات الإنسانية وكان له إيمان، فإنه لا يحق له التدريس في مؤسسة علمية!.

حتى في البلدان المتخلفة نرى أنهم فرضوا هذا الكلام وهذا الشعار، والجميع يكررونه. هذه فاجعة قرننا الأساسية، وأن آثارها أكثر من أي فاجعة محسوسة. لأنها اليوم تنخر من الداخل، تستعمر من الداخل، تزحف جيوشها وتحتل من الداخل، ولا خبر لنا في الخارج، في الخارج فقط تلك الكلمات التي هي صادقة وصحيحة جداً.

ولهذا، يمسي القرن العشرين قرن التجزئة العلمية، قرن الحياد العلمي، قرن التحليل، قرن إنكار فلسفة التاريخ وطردها، إنكار الأيديولوجية وطردها، لأنه عندما يذهب الإيمان فإن أصحاب السلطة سيستمرون في حكومتهم بإيمان أكثر، وأن الجماهير عندما تكون غير معتقدة، عندما تكون غير مؤمنة، عندما الجماهير لا تحس بالتزام تجاه فكرة ما، والمثقفون لا يضعون وعيهم العلمي في خدمة هدايتهم الفكرية والتزامهم الإجتماعي، فإن أصحاب السلطة لن يهددهم أيّ خطر في العالم.

أي خطر يهدد اليوم القوى الرأسمالية والسلطات الحاكمة؟ خطر الأيديولوجية فقط وفقط. أي شخص بإمكانه أن يدحر كل هذه القدرات العظيمة، الذرية، والهيدروجينية والفانتوم وأمثالها؟ يندحرون من الروح المؤمنة على الرغم من يدها الفارغة وبطنها الجائع.

ولهذا يجب أن يبقى هذا البطن جائعاً، وأن تبقى هذه اليد فارغة، ولكن هذا القلب يجب أن يبقى خالياً من الإيمان أيضاً، لأننا لو أردنا أن نعطيه فيما بعد شيئاً، مقالة، ونشبعه باسم الحياد العلمي، باسم أن قرننا قرن التحليل والتعليل النظري الواقعي وكتابة الواقع، وليس قرن العقيدة، العقيدة تعود للماضي، العقيدة تعود للقديم، تعود للفترات العاطفية

والإشراقية والعرفانية، حيث أن العلم إذا أصبح في خدمة الإيمان فسوف ينحرف.

الواقعية، نعم، من الواضح ما المقصود بالواقعية، الواقعية هي ذلك الشيء الذي صنعه العلم المحايد الآن، ذلك العلم الذي يتخرج عالمه من الصف، من صف الفيزياء، من صف الكيمياء وهو يقول: أنا محايد، ليس عندي أيديولوجية.

وبعدها يأتي رأسمالي من انجلتره، ويأتي عدد من الرأسماليين من أمريكا، وعدد من فرنسا، وعدد من أفريقيا، وعدد من روسيا، وعدد من مكان آخر، يأتون ويضعون هذا السيد (العالِم) في المزاد العلني، وكل من يدفع مالاً أكثر يأخذ السيد لنفسه، والسيد يقول أيضاً: أنا أجيء إليكم، أينما يعطى مال أكثر أكون خادماً لديه، إني ذو علم ومحايد، أينما يزداد عشبي هناك وطني، وهناك محل انجاز مسؤوليتي وأداء رسالتي العلمية.

وهنا يقع في خدمة الرأسمالية، وهناك في خدمة الاشتراكية، وفي مكان آخر في خدمة الفاشية، وهناك في خدمة «جومبى»، لا فرق بالنسبة لنا، نحن حياديون، لقد وصل العلم اليوم إلى الحياد، انتهت فترة الإيمان والأيديولوجية!.

أما الأيديولوجية، فهي في تعريف واحد عبارة عن الإيمان

الواعي بالوضع القائم (إنه كيف يجب أن يكون)، أي الوضع القائم؟ كل شيء. على كل حال، فالأيديولوجية هي التي ترد بأني في أي وضع، أين أنا، في أية مرحلة زمانية؛ في أية مرحلة تاريخية، وبالنسبة للتكتلات المختلفة في أي موضع وموقع أكون. أنا، أنا الجماعة، أنا الطبقة، أنا الشعب، أنا البشرية التي هي نوعيتي. الأيديولوجية الإنسانية، الطبقية، القومية والجماعية، هي التي تتمكن من الإجابة عن جميع هذه الأسئلة، هذه هي الأيديولوجية.

كيف يصل الإنسان إلى الأيديولوجية؟ وأي شخص يصل إلى الأيديولوجية؟

كما قلت، لم يكن الفيلسوف أيديولوجياً، والعالم ليس له أيديولوجية حتماً. بناء على هذا، وحيث أننا حبسنا الفيلسوف أو الفلسفة، العالم والعلم، وقلنا أن الأيديولوجية غير العلم، غير الفلسفة، فإننا سنصل بالضرورة إلى هذه النتيجة: أن الأيديولوجية هي وعي إنساني خاص يتمكن كل شخص من امتلاكه، العالم أو العامي، المتعلم وغير المتعلم، الشريف والوضيع، كل فرد في أية مرحلة من الثقافة، من العلم، من النبوغ، يمكن أن يكون له وعي أيديولوجي.

وهنا يتضح تعريف آخر، واختلاف مهم وحساس آخر،

وهو أن الأيديولوجية سمة فئة من فئات المجتمع اسمها المثقفون.

بناء على هذه فنحن نطلق كلمة المثقف على اولئك الذين يعملون بأدمغتهم، عمال يعملون بالفكر هم (الانتلكچوال)، المعلّمون، طالب وثقافي واستاذ ومعلم، وهذا خطأ.

هؤلاء (انتلكچوال) ولكن من الممكن ألاّ يكونوا مثقفين، من الممكن أن يكون (الانتلكچوال) عالماً، كاتباً، عالماً اجتماعياً، ولكن قد لا تكون له أيديولوجية وإنّما يكون آلة يدوية وفي خدمة احدى القوى، أو في خدمة بطنه وعائلته، أو يكون جليس داره. يوجد هناك من هو «رب البيت» وكل رسالته تدور من محل عمله إلى مطبخه، هذه هي كل رؤيته الكونية.

من الممكن أن يكون الشخص عالماً، من الممكن أن يكون أكاديمياً وهو (انتلكچوال)، ولكنه لم يكن مثقفاً قطعاً. سمة المثقف هي أن يكون إنساناً ذا أيديولوجية واعية[١] وبمقتضى حصوله على الأيديولوجية والوعي الطبقي، يحصل على الوعي الإجتماعي، الوعي الخاص بالحياة، والطريق المتميز للعمل والحياة والتفكير والأمنيات المحددة، باعتباره فلسفة الحياة

---

(١) واضيف: الواعية للتذكّر، وإلاّ فالأيديولوجية لا يمكن أن تكون غير واعية، لأنها في هذه الحالة تكون سنة تقليدية.

الذي يجعله ملتزماً في مقابل كل هذا الوعي. ومثل هذا الإلتزام ثقيل إلى حد يفصمه عن مرحلة تعلقه بحياته الفردية، ويجعله عاشقاً مجاهداً وفدائياً لأمنيات أيديولوجيته، وهذه هي سمة الإيمان، ومثل هذا الشخص هو المثقف.

لقد كان المثقف في التاريخ عبارة عن جميع الأشخاص الذين تحول وعيهم الخاص إلى حركة المجتمع وتوجيه جماهير عصرهم.

ولهذا، نرى أن أرسطو فيلسوف ولكنه لم يوجد حركة، لم يوجّه قومه. ونرى أفلاطون فيلسوفاً إلاّ أنه أساس مدرسة ـ بعكس أرسطو ـ ولكنه لم يوجد أية حركة، لم يوجد نهضة، لم يغير النظام الطبقي، بطليموس عالم، فيزيائي، له وعي علمي، ولكنه لم يترك أقل أثر في تقرير مصير مجتمعه، بحيث أن شعب أثينا إذا كان يملك ألفاً كأرسطو وأفلاطون وبطليموس لكان وضع الناس اسوأ، لأنهم كانوا مستهلكين فقط، كان على الناس أن يعطوا، وهؤلاء يأكلون ويتكلمون عبثاً.

إن الذي يرفع عبئاً من على كتف رقّ لم يكن فيلسوفاً ولا عالماً، وإنّما يجب أن يكون شخصاً آخر، يجب أن يكون مثقفاً حتى لو كان رقّاً عامياً. إن الأيديولوجي هو الذي يبادر إلى هذا الكلام، وأما أرسطو فهو يبحث عن أنه عندما خلق الخلق ماذا

كانت مادته الأولى، يبحث عن هذا، فاذهب واحصل عليه! .

لهذا نرى، وعلى طول التاريخ، أن الأنبياء لم يكونوا في عداد الفلاسفة، ولا في عداد العلماء ولا في عداد الفنانين، كذلك لم يكونوا في عداد العوام. هؤلاء ليس أنهم لم يكونوا في عداد العوام وحسب، بل هم أشخاص يغيّرون التاريخ، يصنعون التاريخ، يغيرون المجتمع، يصنعون المجتمع، يقومون بالانقلاب ويصنعونه.

أنا لا أعرف من وضع هذه الكلمات، ولكن كل من وضعها فقد وضعها بصورة جميلة ونموذجية (كثير من هذه الكلمات النموذجية عندما تكون بيد العوام يتخيلونها واقعة عينية، ومن ثم فلا يصدقها المثقف وشبه المثقف، وإلاّ ففيها معنى كثير).

يقول: «عندما ولد نبي الإسلام خمدت نيران فارس، وسقطت شرفات قصر كسرى في المدائن، وغاصت بحيرة ساوه». هذه ثلاثة نماذج للمال والقوة والخداع الديني تموت بظهور شخص، من هو هذا؟ من هو هذا المسيح؟ من هو إبراهيم؟ لم يكن إبراهيم فيلسوفاً ولا عالماً محترماً، لم يكن أيّاً من هذا، كان عامل نجار، وكان عمه أو أبوه ينحت الأصنام ويعطيها بيد الطفل، وهو يأتي بها إلى الأزقة فيبيعها. ثم يكون راعياً، ثم نرى بعد ذلك يلعب دور أعظم نهضة في تقرير مصير

الشرق، ومن ثم الغرب حيث تبعته المسيحية بعد ذلك.

ويمسي هذا الطفل أعظم من غيّر تاريخ الإنسان في الكرة الأرضية، لم يكن يكتب، كان أُميّاً، لم يقرأ كتاباً، ولم يكن فيلسوفاً وأشباه ذلك، كان طفلاً يتيماً بدون ولي، ليست له مكانة اجتماعية، صياد سمك عاطل بجوار البحر الأحمر، استطاع أن يغيّر تاريخ البشر ويصنع المدنيات.

بعد إبراهيم، وعلى أساس فكره، نرى موسى، شخص متروك من أسرته، ينتمي إلى قوم أسرى أذلاء، بنى إسرائيل، ثم يأتي، كمستخدم أحد البيوت، كطفل لقيط، يتربى في قصر فرعون، ثم يهرب من هناك ولا يدري إلى أين يهرب، ويأتي فيكون راجياً أجيراً عند شعيب، ثم يبدأ جهاده بمدرعته الصوفية وعصاه المعقدة ضد فرعون وقارون وبلعم ـ السلطات الثلاث: الدين والحكومة والملكية، والتي هي سلطات التاريخ الدائمية الثلاث ـ وينتصر.

الإيمان يحطم السلطات دائماً، حتى وإن كان في قلب شخص ضعيف، وكانت السلطات مجهزة بأحدث القدرات. هذا تزامن جبري. وعلى حد قول القرآن ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾. هذا قانون جبر إلٰهي أو جبر التاريخ ـ لا فرق ـ، ولهذا يبشر القرآن: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾(١). بأية سلطة؟ هل يريد أن يقوم بمعجز نحيبي؟ كلا، هل يريد أن يقدم السلاح؟ كلا، إنه الإيمان. لازم ذلك واقتضاؤه هو الإيمان الواعي، أي الأيديولوجية. الانتصار على كل قوة، مهما كانت متسلطة وعنيفة فإنها أمام الأيديولوجية.

إن جيلنا المعاصر بإمكانه أن يرى، وفي حده العادي والنسبي، كيف ينتصر الإيمان على قوى العالم الكبرى ويقرر مصيره في مقابل الأشخاص الذين كانوا يتحكمون به. وكيف أن الشعوب التي كانت ترفل في الضعف والضعة والشقاء قروناً، وقد اشتهرت باسمها وذلتها في التاريخ، ثارت فجأة بإيمانها الواعي.

هكذا نرى أن الإيمان والأيديولوجية هما مسيح كل القرون ومعجزته. ينفخ في جنازة شعب ما، في جنازة قوم ما، في جنازة أناس ما، بروح مسيحية، وكصور اسرافيل، يثير قبور التاريخ، ويوجد قياماً ومحشراً ويوجد قيامة، أي شخص؟ المثقف، أي صاحب الأيديولوجية.

---

(١) نرى أن الله يستعمل في القرآن كلمة الاستضعاف بدلاً من الاستعمار والاستثمار والاستحمار وذلك بمعنى التمسك بالضعف. إضعاف طبقة، سواء كان ضعفاً قومياً، أو ضعفاً سياسياً، أو ضعفاً اقتصادياً، أو ضعفاً فكرياً وعاطفياً، بالمعنى الأعم، نظام الإستضعاف بكل أشكاله، يكون الناس ضحية الإستضعاف.

على طول التاريخ وحتى عصر الخاتمية، كانت النبوة، نهضة الأيديولوجيات، كانت تأخذ بالمجتمع البشري نحو الهداية باسم الدين وبصورة الدين وعلى أساس الوحي، وتسوقه نحو الهداية، وكان جميع قادة هذه الأديان أمّيين من بين الجمهور، من الرعاة، ومن أكثر العمال حرماناً، الذي كانوا في الماضي ضحايا النظم الحاكمة، لم يكن أي من هؤلاء فيلسوفاً، فناناً، عالماً، فيزيائياً أو أديباً.

انظروا إلى شبه جزيرة العرب، كان في ذلك العصر سبعة أصناف من الناس البارزين، ولم يكن النبي في عدد أي صنف منهم. تاجر، نبي الإسلام لم يكن تاجراً. شاعر، لم يكن. عارف للغة خارجية، لم يكن. من رأي خارج بلده، لم يكن. حكيم(١) لم يكن. قصاص (أي الأدباء) الذين يقصون الحكايات، لم يكن. إذاً من كان؟ فرداً أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، نرى هذا الشخص كيف يكون فجأة منجي قومه، منجي جيله، منجي عصره، ومنجي طبقته، ويحمل رسالة إنقاذ البشرية!.

كان الأمّيون ـ على طول التاريخ ـ مظهراً للايديولوجيات، والمثقفون هم غير الفلاسفة وغير العلماء، هم الذين يولدون من وسط الجماهير.

---

(١) الشخص الذي كان يعرف الرماية والسباحة والصيد.

يوقظ المثقف الأفكار كالبرق الذي ينقدح من الحجر، يوجد هيجاناً وحماساً وحركة في عصر ميت، قرن لا رمق فيه، يُجري الخفقان ودم الحياة والحركة في شرايين ميّتٍ، فكرةٍ، دينٍ، سنةٍ. يغيّر المصير، يغيّر التقدير التاريخي، يسوق التاريخ إلى شكل آخر وهو يوجهه، يضع كل الأشخاص الذين كان بيدهم زمام فكرته ودينه ومصيره جانباً، ويكون هو بنفسه حاكماً وبنّاءً ومبدعاً ومقرراً لمصيره.

هؤلاء المثقفون يولدون من وسط الجمهور، في حين كان الحكماء والفلاسفة والفنانون أفراداً يمثلون الحاشية للقوى الحاكمة وهم يرددون دائماً: نعم سيدي ويبررون مواقفه، فضلاً عن أنهم خواص ملهاته. كانت أيديولوجية المثقفين قبل الخاتمية، أي الأنبياء، تتشكل من بين الجمهور، من بين آلام الجمهور، على شكل رسالة، أو نهضة، أو تكميل وإدامة رسالة سابقة، على كل حال كانت تلهب الجمهور الخامد اللاواعي الذليل.

وبعد الخاتمية، فالواعون والمثقفون يولدون من بين العمال، الفلاحين، المحرومين، الأميين، العوام، الطلاب، العلماء، الأساتذة، أو الفلاسفة، لأن الأيديولوجية تخاطب كل الفئات، وأكثر خطابها هو للجمهور.

لهذا فمن الممكن أن يكون المتعلمون بادئين جيدين، ولكن

الذين يواصلون العمل في الأيديولوجيات هم الجماهير دائماً. ولهذا فإنه بعد الخاتمية، كانت نهضة المثقفين نهضة أفراد من بين الجمهور ومن بين الأفراد البسطاء الذين استطاعوا ـ بمعجزة الأيديولوجية ـ أن يقرروا مصيرهم وينجزوا مسؤوليتهم الإنسانية الواعية المشرقة. وهؤلاء يمكن أن نكون نحن جميعاً، على الأقل باعتبارنا بادئين. وهذه الأيديولوجية، التي هي خطاب لنا جميعاً، وهي مسؤوليتنا الإنسانية، علينا نحن أن نختارها حسب القاعدة.

بناء على هذا، فإن جيلنا المثقف هذا لا يتمكن من أن يكون مقلّداً للأيديولوجية الغربية ـ التي تعلّب كالبضائع الأخرى المعلبة وتصدّر، فيأخذ هو أيضاً البضائع الفكرية والأيديولوجية المستوردة ويأكل ويستهلك ـ لأن ميزة الأيديولوجية هي الإختيار الواعي، ولا يتمكن من البقاء على تقاليده القديمة، تقاليده القومية والتاريخية، لأنه عندها سيكون الدين مرة أخرى تقليدياً ولم يكن الإيمان أيديولوجياً.

لهذا، يجب عليَّ أن أختار بين الفرض الغربي ووراثتي التاريخية، في هذه اللحظة الموجود فيها أنا الآن، كيف؟ برؤية وتجربة عالم اليوم وأيديولوجيات اليوم، استقرئ العناصر والمواد الموجودة في ثقافتي وديني التقليدي، اكتشف عناصر أيديولوجيتي الواعية، استخرجها، وأبداع لعصري الذي يحتضر

وجيلي الذي لا إيمان له، إيماناً واعياً جديداً. والسلام.

وعلى هذا الأساس، وخلال هذا البحث والتفتيش، قبلت أنا الإسلام.

ليس إسلام الثقافة التي يصنعها العالم،

إسلام الأيديولوجية، الذي يربّي المجاهدين.

ليس في مدرسة العلماء،

ولا في سنّة العوام،

وإنّما في ربذة أبي ذر!.

الفهرس

مقدمة ٥

١ ـ الإنسان والإسلام ٧

٢ ـ الرؤية الكونية ٣٣

٣ ـ استخراج المصادر الثقافية وتهذيبها ٨٣

٤ ـ سجون الإنسان الأربعة ١٣٧

٥ ـ مخروطة علم الإجتماع الثقافي ١٩٩

٦ ـ الأيديولوجية ٢٥٧